همُوم الشّبَاب

تأليف

عبد الرحمن بدوى

الطبعة الثانية

الثمن ٣٠ مـ

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٤٦

همـوم الشَّباب

تأليف

عبد الرحمن بدوي

الطبعة الثانية

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٤٦

Humūm al-shabāb

تنبيه

كل محاولة للربط أو المقارنة بين بطل هذا الكتاب وبين مؤلفه مصيرها الإخفاق الشنيع فما هو إلا عرض لمأساة صديق أفضى إليَّ في لحظاته الأخيرة بمكنونها، وما كان لي بها ولا بأشخاصها الآخرين معرفة من قبل على الرغم من وثاقة ما كان يربط بينه وبيني من صلة روحية عميقة. وما أنا بمسؤول عن شيء فيه، دقَّ، أو جلَّ، فليطمئن الجميع بالهم من هذه الناحية وكل مسؤوليتي في أني آثرت جانب النشر على جانب الطي، وهو قد ترك لي الأمر كيما أختار أحدهما. فإن وجد فيه الشباب القلق من أبناء هذا الجيل صورة صادقة لشيء مما يجول في نفوسهم حينما يطوون عليها ويفتشون في أغوارها، وكان في هذا بلسم لقلوبهم المكلومة بجراح الشك والحيرة والتوثب نحو المجد ونشدان البطولة في أروع معانيها، فبها ونعمت، وإن رأوه من القتامة والغموض والإسراف في القلق والقسوة في تشريح الحياة بحيث لا تتصل نفوسهم القانعة الراضية السمينة، فهنيئاً لهم هذه البراءة والصفاء، ولست ألتمس منهم أن يعكروهما بقراءة مثل هذا الكتاب، وكل ما أسألهم إياه أن يضعوا إكليلاً من الزهر الأزرق على قبر بطله الشهيد إن مروا به عابرين »

عبد الرحمن بدوي

يناير سنة ١٩٤٦

إهداء

إلى الأفعى الرهيبة التي أوردتني موارد الخطيئة في جحيم الشهوات فاقتحمت على برجي العالي، أنا الأعزل، واختطفتني ثم قذفت بي من حالق في التيار المتدفق لنهر الحياة، وما كنت أعلم السباحة فهويت في القاع مرات كانت تنتشلني فيها بشصها الذهبي الزائف فلا ألبث حتى أغوص من جديد في أسوأ قرار إلى أن أسدل الستار على ختام تلك المأساة.

إليها أهدي هذه الصفحات التي سطرتها يمينها، سائلاً الله لها الغفران وليَ الرضوان

شهيد الشباب

الأضواء الحمراء تحلق فى جو محموم على هيئة كُرات كأنها أطواق من الشهوة تريد أن تأخذ بمخنق الحاضرين ، لولا أقواس من النور الأزرق تعترض عليها السبيل فترتد نشوة فاترة تطوف هائمة برؤوس الشاربين . وألوانٌ باهتة ترفُّ على وجوه راقصات جلسن إلى موائد هزيلة يتكلفن الحديث الأجوف والابتسام المبصوق من فم أفّاك أنهكته القُبل الرخيصة المغتصبة ، وشفاهٍ أذابتها المساحيق والأصباغ وخدّدها الشراب ؛ أو خلون إلى أنفسهن وفى خواطرهن وساوس ليت شعرى من أين مأتاها و إلى أين مُرْساها ، وهن ينتظرن من جلّاد الشهوة أن يعطف عليهن فيرسل نفراً من ضحاياه المذنبين . و إنك لتلمح فى نظراتهم مواكب من الشقاء والنفاق وتدمير الروح ، لا يلبث أن يرتد طَرْفك عنها خاسئاً إن كنت غضّ الإحساس لا تزال تحمل فى قلبك للانسانية رحمة وحنانا . فها هُنّ أولاء فى ثياب السهرة يعرضن شرائح من اللحم الكالح الذى غاض منه ماء الحس ، فمهما لمسته لم يتأثر ، كأنه من فرط الشهوة تخدّر ، أو من سمّ النفاق والتصنّع تحجّر ، لعمرى إن هذا لهو الموتُ الأكبر . وها هن أولاء يبدأن حديثهن المعتادَ المُعادَ التافه الخلود ، يقذفن به فى وجه كل طارق جديد ، لا يخفف من إملاله إلا ما فى الواردين من تجديد ، كيما يظفرن بأكبر قدر من الوافدين حاجّين إلى قبر ذلك الشرف الشهيد .

والأنغام الصفراء تنطلق من فرقة الجاز كأنها صادرة من أحشاء الأرض : أصوات خرساء لا تصل الأذن حتى تنزل منها إلى نهاية الجذْع فى المِنْطَقة الوسطى من الجسم ، فتدفع بالعصارة الحيوانية الشهوانية فى مجارى الغرائز الدنيا ، فتتصاعد منها أبخرة كثيفة تنتشر فى الدماغ فتسُدّ على التفكير الواضح مسالكه وتُشيع فى البدن كله خَدَراً ناعماً فيه من الرخاوة بقدر ما فيه من الإنهاك . ألا قاتل الله من أدخل هذا المخدّر الفتاك فى جسم الحضارة السليم ، فأشاع فيه التحلّل وكان إيذاناً بالمصير الأليم الذى ينتظر هذه الحضارة بعد أن شاخت وتمشى فى أوصالها الهَرَمُ الرهيب ، فأشاحت بوجهها عن الينبوع الدافق بالحياة الخصبة ، وجثت على

ركبتيها تحت أقدام مخدِّرات الزنوج . ولقد بلغ الداء حَدّاً جعل هؤلاء المدمنين يتنكّرون للقيم العالية ويشيدون بهذه السموم القاتلة ، فترى أبواقهم المنكَرة تعلن فى كل حين أن الجاز قد غزا الأوبرا وحطم أصنام الفن العتيق : أصنام باخ و بيتهوفن و برامز ومن لَفّ لَفّهم من الحالمين المساكين ! وحجتهم أن فى هذا عَوْداً إلى البساطة والفطرة الأولى ، وانغماساً فى الطبيعة البدائية بعد إرهاق الحضارة الصناعية . لكن ، أين هى الطبيعة الحية فى هذه الدندنة الكئيبة والهمهمة البائسة والنَّهيم المكدود كأنها زفرات محتضَر وافاه القدر ؟ بيد أن الروح قد انهارت ، فخُيِّل إليها أن الطبيعة هى هذه الهزيمة البائسة للانسان الأول أمام القوى العاتية فى الطبيعة الحية .

نَقَرت المقارع وارتفعت النغمات الغليظة من السَّكْسية (السكسفون) وعَقَّبتْ عليها المترددة (الترومبون) يعزف بها قائد الفرقة مستثيراً إياهم وهم فى ملابسهم ذوات السُّتَر الحمر والسراويل السود تتخللها شرائط القصب الذهبى ؛ وحَمِىَ وطيسُ الموسيقى حينما انطلقت الشخاشيخ تبعث الحرارة فى حنايا الأوصال . وأقبل الراقصون أزواجا أزواجا يرتعدون من حُمّى هذه الموسيقى : أما كثرتهم فقد دُفِعت إلى الرقص تحقيقاً لشهوة المخاصرة والالتصاق بين الأبدان الناعمة والخشنة ، فلاهَمّ لكل منهم إلا أن يضغط على مراقِصته بكل ما فى جسمه من خلايا ، وأن يضم نهودها البارزة إلى صدره المبهور الأنفاس علّه يستريح إلى ذلك الشاطىء الزاخر بالشبَق المتحدّى ؛ فتراه مشعّث الشعر مستهِلّ العَرَق الدافىء ، قد لعب الدوار بكل كيانه كأنه درويش يدير رأسه باستمرار . وفريق قليل استبدّت به النشوة الحيوانية فبسط ذراعيه ولم يعد يُمسك من مُراقصته إلا بأطراف الأنامل ، وكلاهما فى دوّامة من الأبخرة الشهوانية تتصاعد من كل خلية فى أبدانهم .

وقام قارع الدَّفّ يعلو بحرارة الراقصين ، فينتقل بهم إلى الذَّبْذاب (الاسونج) فى لهفة وانبهار ، وهو يَهزّ جِذعه بحركات تجسّدت الغُلْمَة كلها فأهاجت الجميع وقذفت بهم فى أتاويه الانفعال ؛ ووقفتْ إلى جواره فتاة إيطالية فارعة القوام مستطيلة الوجه لطيفة الجوانح عليها مَسْحة من البرود لم تكن تتسق مع ذلك الجوّ المحموم ، وراحت ترطُن لهم فى لغة أسپانية متفسِّخة أغنية ساذجة حاولت أن تخفف بها من حرارة هذا الطقس الصناعى . لكن فى غير جدوى ! إذ أبت هذه النفوس المعذَّبة بالحرمان إلا أن تسترسل فى هذه النشوة البهيمية

كيما تُغْرِق فيها متاعب حياتها اليومية المرهِقة .

ولم ينقذهم من تلك الحال إلا قائد الفرقة . فقد شاء له دهاؤه التجارى أن يقطع عنهم فجأةً أوجَ هذه الشهوة حينما أشرف أصحابها على بلوغها ، كيما يزيد بهذا الحرمان المفاجىء من تعذيب أعصابهم فيوالوا التردّد عليه يوماً بعد يوم ؛ وإلا فإن أشبعوا قَرَمهم ولُواحهم ، ولو مرة واحدة ، فمن أين يظفر بهم مرة أخرى عاجلة ؟ ! فأطفئت الأنوار الزاهية ولم تبق إلا الأنوار الخفيفة : فى حمرتها هدوء تستعذبه النفوس الحالمة ، وفى صُفْرتها شحوب تنزع إليه القلوب المريضة ، وفى زرقتها حُزْن ترتاح إليه الأرواح السوداوية . فشتان ما هذان الجوان : جو الرُّمْبة والكونجة والبوجى أوجى ، وجوالتَّنجو : فى الأول شهوة غريزية جامحة تريد أن تَفُكّ إسار كل نزوة وخالجة فى طوايا الشَّبَق الدفين ، وفى الثانى انقباض فاتر حزين ، تطوف به طراوة ناعمة ورخاوة حريرية جذابة . ولا عجب فالنوع الأول ينبع من أعماق الروح الزنجية الوحشية ، والثانى منحدر من أصلاب أسپانية شرقية تعود إلى العصر الوسيط بجوه الرطب المعتم ورخاوته الدافئة المصقولة وزُهوِّ ألوانه الرفافة فى اكتئاب رقيق .

فى جوّ التنجو الرفيق استطعتُ أن أستعيد نفسى بعد أن طوّحت بها الرُّمْبة وهوت بها فى أسفل ساقٍ . فانطويت على خاطرى أستعرض هـذه المناظر الغريبة التى بهرته أول الأمر ، ودارت الأفكار فى نفسى : تارة تستعيد بضدها ماضياً جئتُ هنا كى أنساه ، وطوراً تتأمّل فى هذا الانهيار الروحى الذى انساقت فى تياره إنسانية اليوم المريضة ، وحيناً ثالثاً كنت أوازِن وأعلّل علّنى أهتدى إلى الدواء من هذه الأدْواء .

وبينما أنا هائم فى أودية وساوسى وأحلامى هاتيك ، تلفتُّ عن شمال متطلعاً إلى درَج مستطيل تقطعه حواجز شبكية من الخشب المطلىّ بالأخضر ، وبين كل حاجزين مائدة مربعة القوائم لا أثر فيها لفن ولا لصناعة ، وما هى إلا لوح منضود على عِصِىٍّ غليظة ؛ ولا يسترقبحها إلا مِفْرَشٌ أبيضُ من التيل الخشن . تلفّتُّ فأبصرت فى إحدى هذه الفواصل — وإن شئت الدقة فسمّها الخنادق — عينين سوداوين تلمعان فى شىء من الجزع الصامت واللهفة الباكية خلال ذلك الضوء الضئيل المترنح بين أحضان نغمات التنجو . لقد كانتا تحدقان بنظرات رفافة لا تخلو من الترويع كأنهما عينا ميدوزه . وما أقرب الشبه بين كلتيهما ! كلتا الفتاتين

بهرت بمفاتنها المنسابة من جسم بضّ وعيون ساحرة قاتلة ، و بغدائرها الرائعة وشعرها الفخم الجفال وقد عُقِص على رأسها الصغير كأنه قبة السماء انعقدت على قمة جبل مغطى بالثلوج فى ليل بهيم . وما أذهلنى منها أولَ الأمر إلا ما أذهل الآلهة الأقدمين من ميدوزه : عيناها وغدائرها .

ساءلت نفسى : أيكون حظها مع الناس حظَّ ميدوزه أيضا مع الأقدمين ؟ إن كان كذلك ، فمن هو يا تُرى هذا النبتون الذى هام بها عذراء ثم مزّق روحها فى معبد العفاف ، فعاقبتها مينرفا هذا العصر بأن ألقت بها فى هذه المواخير تبيع كرامتها فى سوق الفجور ؟ أتُراها أيضاً قد أحالت غدائرها إلى أفاعٍ فلا يقربها إنسان إلا قتلته بسمومها ؟ وماذا سيكون حظى معها لو تجاسرت ، حباً فى الاستطلاع على الأقل ، فاقتربت منها : أأكون واحداً من ضحاياها العديدين الذين جدّلتهم الواحد بعد الآخر منذ أن سلكت هذا السبيل الوَعْر ، أم أكون قوياً قوةَ پرسيوس فأقهرها بأن اجتز غدائرها ثم أسلك بها إن شئتُ سبيل الرشاد ؟

دارت هذه الخواطر برأسى فكانت دُواراً حقاً : فلقد حَشَا الناس رأسى بأخبار غريبة عن هذا القطيع الضال المضلّل الذى يسمّى « بنات الهوى » ويسمّى نفسه « الفنانات » أو فى لفظه الفرنسى « الأرتيستات » . يصورونهنّ على أنهن لَبُؤات يفترسن أرواح السذّج من الرجال ويَغْتَلن جيوبهن ولا يدعن الفريسة إلا إذ لم يَعُد يتردد فيها أقلُّ دماء . هنالك ينبذنهم كالقشرة بعد أن يُسْتَخْرج ما فيها والليمون بعد أن يُعْصَر . وهن فى هذا السبيل يصطنعن من الحيل وينصِبن من الشِّراك والأحابيل ما يخفى أمره على أكبر الناس فطنة ودهاء : فيتظاهرن بالعفاف ، بل والبكارة والطهارة ، وكأنهن قديسات متبتلات لم ينزلن مواطن الفجور إلا للمشاهدة البريئة وعما قيل يتسلّلن من بين زحمة مواكب الفجور والعهارة طاهرات أبكاراً كما دخلن . وما هذا إلا لكى تزداد الفريسة تعلقاً بهن ، وحرصاً على طلبهن ، مما يحملها على أن تبذل عصارة نفسها ونفيسها من أجل الظفر بهن ؛ فإن تم لها الظفر بعد هذا الاستنزاف كله ، كانت بين إحدى خصْلتين : فإما أن تكون من الطبائع المغامرة التى تجد الغاية عندها فى مجرد بلوغ الهدف ، حتى إذا ما بلغت ملّت فانصرفت ، وإما أن تكون من الطبائع المستزيدة من التعمق فى الغاية فلا تكتفى بالوصول ، بل تستديم التكرار ، لأنها قنوع بالقليل المتشابه . فإن كانت الفريسة من الضرب الأول — ولبنات الهوى حاسة خاصة يستطعن بها التمييز بين كلا الضربين فى يُسْر — أطلن فى الشوط

وملأن السبيل بالعقبات ، وعَدَّدن وسائل الحرمان المطلّ بالإغراء ، ومكائد الفتنة المصنوعة من معسول الإباء . وإن كن من الضرب الثانى أسرعن فى الإبلاغ من الهدف الأول ثم أقمن المصاعب فى طريق التكرار ، مما يهيج ثائرة الحرمان فتندفع الفريسة فى البذل من كل وجه وسبيل . وهن فى خلال هذا كله لا يبذلن إرضاء لذةٍ مهما ضَوّلت وهانت إلا إذا تقاضيهن عنها أفدح الأثمان ، فيُقمن دائماً مزاداً رهيبا يُشْهِرْن فيه إفلاس تلك الفريسة المسكينة .

تلك صورة مريعة . لكن لروعتها سحراً يغرى النفس بالنفوذ إلى أسرارها ، خصوصا إن كانت من تلك النفوس التى تنشد الخطر وتجدّ فى طلبه حرصا على التزود بأوفر قدرٍ من التجارب الحية حتى تحيا حياة مليئة خصبة ، وتمعن فى اكتناه المجهول كلما أوغل فى السر وتحصَّن بالغَرَر . فقلت لنفسى : ولماذا لا أركب هذا الخطر لعلى أن أجد فيه ما يرضى نزعتى الحارة إلى حب الاستطلاع واكتشاف المجهول فى النفس الإنسانية من بقاع ؟ ها هى ذى مِنطقة حافلة بأوفر التجارب ، لأنها تمثل نموذجا إنسانيا من الطراز الأول فى الغرابة والطرافة ، فلماذا لا أرتادها ، على الرغم مما عسانى ألقاه فيها من مكاره ومصاعب ؟ أوَلستُ من الداعين إلى نشدان الخطر والامتلاء بالتجارب الحية ، فلماذا إذاً لا أحقق هذا فى نفسى ؟

لكنك تعلم أنى كنت لا أزال غِرّاً فى معترك الحياة ، أكاد أحبو على الدَّرَج الأول منها ، على الرغم من نضوج شبابى ، لأنى ألِفتُ منذ ريّق شبابى أن أحيا فى عالم الكتب ، وفيه وجدت حتى اليوم مسرح حياتى ، فإن شعرتُ بنزعة إلى المغامرة عن طريق التشرّد عكفت على أشعار الصعاليك من تأبّط شرّاً حتى فرنسوا ڤيون ، وإن هفت نفسى إلى نشدان السلوى فى فردوس الكروم عكفت على خمريات أبى نُوَاس ورباعيات الخيام ، أو فى الفردوس الصناعى أطلقت نفسى تتصاعد مع أنفاس نارجيلة بودلير ودى كونسى ؛ وإن طلبت المخاطرة فى ميدان الحب تنقلت بين عشيقات جيته ، أو استهوتنى الخيانة فى غراميات ألفرد دى ميسيه ؛ وإذا ألح بى الشوق إلى عبادة البدن تنسمت أريج الجنس يعبق من مقطوعات سافو وبييرلويس وكتب ديفد هربرت لورنس . وغلبتْ علىّ حياةُ الأوراق هذه ، حتى لم يعد فى وسعى أن أُحِسّ بشىء بنفسى ، أو على الأقل لم يكن إحساسى بشىء كاملا أو واضحاً إلا إذا رددته إلى هذا الموضع أو ذاك من كتاب من الكتب . أما الشعور

المباشر بأية عاطفة ، أما هذا الاتصال الحى بالآثار والانفعالات الواردة تـوًّا من مصدرها — فقد حيل بينه و بينى .

وعلى هـذا صرت أحيا كلَّ شىء بواسطة الـكتب ، ولا أستطيع أن أحياه بنفسى . فكانت حياتى كلها بالواسطة . ولـكم كنت أثور مراراً فى داخل نفسى على هذه الحال الأليمة التى انتهت إليها ، لـكن نفسى كان الفساد قد استولى عليهـا إلى حدٍّ لم يكن من الميسور معه أن أجور بهـا عن هذه السبيل البائسة ، وأردها إلى سبيلى الحقة ، سبيلى أنا الخاصة ، وكان تألُّمى يزداد لهذه الحال حين ينبهنى الأصدقاء إلى ما فى هذا المسلك من قضاء على شخصيتى ، حينما يلمحون أننى لا أكاد أعـبّر عن أى شعور لدىّ إلا مقروناً بفقرات طويلة لمؤلفين أعزّاء لدىّ أحفظها وأؤديها عن ظهر قلبى ، تعيننى على هذا ذاكرةٌ جبارة لعل فيها من الضرر أكبر مما فيها من الفائدة والغَناء .

أيا ويلى من نفسى ! لقد صارة بَلّورة عديدة الأوجه لا هَمَّ لها إلا أن تعكس آلاف الأضواء التى تنطبع عليها من أهل الفـكر والفن ؛ زافت حقيقتها علىَّ ، فلم يكن أمامى إلا إحدى خصْلتين : فإما أن أقنع بهذا المصير فأفقد نفسى إلى غير رجعة ، و إما أن أردها إلى ينبوعها الأصيل . وطال ترددى بين هاتين الناحيتين ، وما كان له إلا أن يطول ، لأنى كنت أحس دائما بأنى إذا قصرتها على ينبوعها ، نضب أكثر مواردها وغاض أغلب مائها . وكيف أصبر على هـذا الفقر ، وأنا محموم بالنشاط وطلب المجد بأسرع ما يمكن ، يحملنى على هذا شعور غريب استولى علىّ منذ البداية ، ولا أفهم له أصلا ولا مصدراً ، كان يخيَّـل إلى نفسى أننى من أولئك الذين لن يحيوا طويلا ، وقصارى أمرهم أن يتخطوا الثلاثين قليلا دون أن يقتربوا من الأربعين . والعجيب فى الأمر أننى لم أكن أجزع من هذه الفكرة ، فـكرة أن أختَضَرَ ، ولعل هذا لأنى كنت أرى كبار النابغين والعباقرة فى الفكر يُختْضَرُون ، وكان هؤلاء خصوصاً يستأثرون بإعجابى دون المُعَمَّرين : فكنت أعجب باسپينوزا وجويو من بين الفلاسفة ، و بنوفالس وكيتس وشلى من بين الشعراء ، و بشوبرت وموتسارت و بلِّينى من بين الموسيقيين . بل بلغ بى الأمر حداً جعلنى أوثر بعضاً من رجال الفكر والفن على غيرهم لالشىء إلا لأنهم أُخترِموا فى ميعة الشباب . وكنت أردد دائما قول ميناندر : « يموت شاباً من تُعِزُّه الآلهة » .

لهذا كله كنت حريصاً على ارتقاء سُلّم المجد بوثبة واحدة ، فكان يخيل إلىّ أن هذا لن يتم إذا اقتصرت على قوى نفسى الخاصة وحدها ، فأردت أن أطير على أجنحة صناعية استعرتها بأغلب ريشها من مختلف المؤلفين ، غير منتظر حتى ينمو فى جناحىّ ريشى الخاص . ومع أنى قد أفلحت حقاً فى خداع جمهرة الناس بواسطة هذه الأجنحة الصناعية ، فقطعت الشوط الطويل فى طريق المجد بأسرع ما يمكن أن يكون ، وبالرغم من أن هذا هو المسلك الذى يتبعه كلُّ أصحاب الشهرة والمجد فى زمانهم — أقول هذا عنهم جميعا دون أن أستثنى أحداً — فقد كان فى نفسى عراك باطن يكاد أن يصل إلى حدِّ التمزق الداخلى الشامل ، لأننى كنت صريحا مع دخيلتى إلى أبعد حدّ ، وكان يؤلمنى كل الإيلام أن أرانى مضطراً إلى مسايرة هذا الدَّجْل الإنسانى العجيب . فكان فى طوايا نفسى حوار أبدى يجعلها مسرحا لأشد المعارك هولاً .

فالأنا الاجتماعى يقول : وماذا تريد أن تعمل إذاً أيها الأنا الذاتى ، أيها الغِرّ الأبله ، وركْبُ الحياة يَخُبُّ بنا دون توقف ولا رفق ؟ فإما أن تسايره وحينئذ يجب عليك أن تستمر فى مسلكك هذا ؛ وإما أن تنفى نفسك خارج الحياة ، كنُفاية لرحاها الجبارة .

والأنا الذاتى يجيب : ألا بُهْراً لك ! لا تحدثنى عن النجاح فى الحياة والمجد وما إلى هذا من ألفاظ زيّفتك وأمثالَك من البائسين الذين يحسَبون أن المجد هو بالفناء فى أحضان هذا التنين الهائل الذى يطلقون عليه اسم «الناس» ، وَيَعُدُّون المِلْك أسمى من الوجود ، فيظنون أنه كلما زاد المِلك زاد معه الوجود ، وهم فى هذا جدُّ واهمين . إنما الذات الحقة هى تلك الذات التى تستخلص نفسها صافية كالجوهرة الوضّاءة تظل على نصاعتها بالرغم من وجودها فى أعماق الطين .

الأنا الاجتماعى : أوه ! إن حالك تدعو إلى الرثاء حقاً أولى من أن تحمل على القسوة . فما أنت إلا فريسة بائسة لهذه الألفاظ الطنانة الجوفاء التى نَفَّست بها العقولُ المحرومة عن فقرها وعدم قدرتها على السيطرة فى الحياة ، ثم دَعَتها بعد هذا مُثلاً عليا ، مستعينة بهذه الوسيلة المرنة التى صنعتها أنا ، مع هذا ، وأعنى بها اللغة . لقد خنقَتْك كما خنقَتْ غيرك من الحالمين النُبلاء ، بواسطة هذه الأهوية الفاسدة . ألا فلتطلب الهواء حُرّاً فى إقليم الواقع ، هذا المُناخ المعتدل ؛ وهأنذا قد أنذرتك ، والويل لمن لا يستمع إلى النصح يُسدى إليه من أحكم الحاكمين .

وعلى نحو من هذا الحوار كانت الدّوامة تتردد فى أعماق نفسى كل آن ، فكان القلق الحال السائدة فى أطوارى . لكنى أصارحك بأننى غَلّبت فى أفعالى ذلك الأنا الاجتماعى ، ولم أترك السيادة للأنا الذاتى إلا فى داخل ميدانه الخاص ، أعنى عند ما أخلو إلى نفسى وأخلع حياتى الواقعية جانباً .

ولا أطيل عليك فى بيان مأساتى النفسية هذه ، فسأعرضها عليك فصلاً فصلاً ومنظراً منظراً طَوال هذه الرسائل . بل أخلص من هذا كله إلى القول بأننى كنت موزّعاً بين نزعتين متناقضتين : الأولى تدعو إلى معاناة التجارب الحية فى صميم الواقع بإنشاب أظفارى فى لحم الحياة ، والثانية تفرّ بى إلى مملكة الخيال والفكر أُجْرِى فيها ما أشاء من التجارب دون أن أتكلف شيئاً أو أُعانى صَعَدا . وقد كانت الغلبة إلى الآن لهذه النزعة الأخيرة ، حتى إنك لو أحصيت التجارب الحية الواقعية التى عانيتها فعلا حتى الآن لكان الناتج صفراً أو ما يقرب من الصفر . ولم أكن أشعر بغضاضة على نفسى من هذا الفرار الشائن من الواقع الفعّال ، خصوصاً فى غريضِ الصِّباء إلى أن بلغت الخامسة والعشرين ، إذ كان فى غضارة الشباب ما يغرى بالأحلام ويدعو إلى الزهد الشّبعان . لكنى لم أكد أتجاوز الخامسة والعشرين حتى بدأ القلق يساورنى على مصير هذا العيش الخيالى المستمر ، وتواثبت الوساوس تشككنى فى صحة قناعتى ورضاى ، وتصور لى أن هذا كله وهمٌ زائف لا أكاد أفحصه حتى أتبين فساده و بؤس حالى . وكانت الحقنة الجبارة التى حقننى بها نيتشه واشپنجلر قد بدأت تحدث أثرها — وأنت تعلم ما لهذين الرجلين من تأثير هائل لا يمكن وصفه فى نفوس أمثالنا من الشباب — مُبَدِّدة تلك العلل القديمة التى أعدتنى بها الرومنتيكية المريضة التى استولت على نفسى الرقيقة فى فجر الشباب فخنقتها بأبخرتها الوبيلة — أستغفر الله ! فهذه الحقنة لم تستطع أن تقضى عليها ، فلازلت أعانى عقابيل تلك العلة الرومنتيكية ، وأخشى أن تستمر طوال حياتى ، لأن إصابتها الأولى كانت مدمّرة حقاً . أقول إذاً إن هذه الحقنة النيتشية الاشپنجلرية قد زهدتنى فى الحياة الحالمة الجوفاء ودفعت بى إلى نشدان المخاطر وركوب أعنف التجارب وأحفلها بالاستطلاع ، فبدأت كِفة النزعة الواقعية تهبط قليلا قليلا وإن كانت الأخرى لا تزال جانحةً جداً . وأنت تعلم أن السياسة كانت هى التجربة الواقعية الوحيدة التى كنت أعانيها إلى تلك السن ، وفى فرصة أخرى سأطيل الحديث عنها ؛ وإنما

يكفينى هنا أن أشير إلى أنها فى تلك السنة عانت خيبة أمل مُرّة لا يكاد يبلغ مداها التعبير فكدت أبلغ منها درجة اليأس . ولم تكن فى الواقع تجربة واقعية بالمعنى الحقيقى ، لأننى كنت فى الحق أعانى تجربة خاصة فى السياسة كونتها لنفسى بنفسى ، وإن تعلقتْ بثوب خارجى ظننته فى البدء أنسب الأشياء إليها ، وكنت فى هذا واهماً وهماً هأنذا اليوم أقدّم عنه أبشع الكفّارة : كفارة انهيار الأمل والتهدم الروحى من تلك الناحية ، ناحية السياسة .

فحاولت فى هذا الاتجاه الجديد أن أنوّع التجارب حتى أظفر بقدر وافر . واستمر الحوار يجرى فى داخل النفس أيضاً حتى هذا العام ، أى ثلاث سنوات ، فإذا بى أرجّح الإقبال على تجارب الحياة فى مختلف صورها التى اصطلح عليها الناس . فكانت نفسى إذاً مهيأة لنشدان التجارب الجديدة .

ومرّت شُرُط هذه الأحوال فى ذهنى فى تلك اللحظة بسرعة خاطفة ، وقلت لنفسى : ها هو ذا ميدان جديد فاغزيه إن أردت تجارب عميقة أليمة معاً و بقيت فى ذبذبة بين الإقدام والإحجام حتى قطع مجرى خواطرى هذه انتهاء موسيقى التنجو إيذاناً بانتهاء الدور الأول من رقص الجمهور ، وابتداء رقص الفنانات . فانصرفت عن تأملاتى إلى حيث بدأ العرض .

كانت الرقصة الأولى رقصة بوليرو على اللحن المشهور الذى وضعه موريس راڤل . فأضيئت الأنوار الزاهية التى أعانت على اقتلاع النفس من الجو الحالم الذى أغرقتها فيه أنوار التنجو إلى حيث تستطيع الاستجابة إلى الآثار الخارجية ؛ وظهرت الفنانة ، لكن فى ثياب كانت ويا للأسف أبعد ما تكون عن تمثيل الروح التى تعبّر عنها هذه الرقصة بألحانها . فإن فى موسيقاها من النضارة الأولية والصفاء الساذج ما كان يخلق معه أن تكون الثياب بسيطة أولية تمثل صفاء الجو فى الصباح الباكر ليوم مُشمِس فى بلاد حارة . لكن هؤلاء الفنانات — أو من يطلق عليهن هذا الاسم فى غير تدقيق — لم يكن يعنيهن الفن بقدر مايعنيهن إثارة الشهوات واغتصاب المسرات لهذا الجمهور البائس الذى يكاد يتكوّن كله من أناس لا يفهمون من الفن شيئاً ، ولم يقصدوا هذا المكان إلا لإشباع نوازع شهوانية . لهذا لم أحفل بالراقصة كثيراً وكدت أنصرف عنها تماماً إلى الموسيقى .

وكم كانت مؤثِّرة حقاً هذه الموسيقى ! لقد كان التصعُّد (الكرشندو) يسمو بنفسى شيئاً فشيئاً إلى حالة من الوجد خُيِّل إلىّ فيها أننى قد صرتُ إلى أفلاك من الصوت الرنان ،

يتردد فيها إيقاع ترقيمتى البَنْدير كأنه العَوْد الأبدى فى الكون الأكبر . فحلَّقت فى أجواز اللانهائى لولا أن كانت أقل التفاتة إلى هذه الراقصة البائسة تهوى بى سريعاً إلى الأرض محطَّمَ البدن مُرْتَهِكَ المفاصل ، ولولا هذه الضوضاء التى تميِّز موسيقى رافَل ، وخاصة فى هذا البوليرو .

وتلتها رقصة فاتنة مأخوذة عن « كَرْمن » بيزيه . وإنك لتعلم مبلغ إعجابى بـ « كرمن » هذه منذ أن نبهنا إلى جمالها نيتشه ، وإن كان فى إشادته المغالية بها ما يدعو إلى التُّهمة لأنه أفرط فى إزجاء الثناء عليها زيادة فى مخاصمة ڤجنر بعد أن تنكرَّ له : إذ حاول أن يعارض بالرقة واللطافة التى تميَّز بها هذا الفرنسى ذلك الجوَّ القاتم الملبَّد بضباب الشمال الذى يحيا فيه سليل زيجفريد . وكانت الراقصة فتاة بارعة حقاً ، لا يعيبها إلا قِصر قامتها وضروع جسمها. وخليق بمن تؤدى هذا الدور أن تكون فارعة القوام ريّا المفاصل كإحدى الأمْزُونات ؛ بيد أن هذا العيب نفسه كان من أسباب تفوقها فى تلك الرقصة لأنها كانت خفيفة رشيقة إلى أبعد حد . فكانت تدور كخُذْروف الوليد أمَرَّتْه الموسيقى فيما يشبه الدوامة ، وفى يديها الصَّنَّاجات الخشبية تجلجل ، وهى تصّاعد وتتنزّل بانحناءة جميلة من رأسها الصغير المستدير ، وثوبها السابغ يدور من حولها فى انثناءات كأنها الأمواج ، وإنك لتشعر بأن نصفها الأعلى يكاد أن ينفصل عن نصفها الأسفل من رشاقة الحركات التى يقوم بها جسمها . لقد كنت أحس بأنى أؤدى نفس الحركات التى تؤديها من فرط التأثير الذى أحدثته فى نفسى ، وكنت أتمثل نفسى دون جوزيه وهى تتلاعب أمامى وترمقنى بنظرات من أعين نُجْلٍ يمتن العاشقين حسان ، محاوِلةً إغرائى . وعلى الرغم من أنها لم تكن تغنى ، فقد خُيِّل إلىَّ أنى أسمع أغنية « كرمن » المشهورة تُغَنَّى على موسيقى الهَبَنيرا :

الحبُّ طيرٌ مريدُ حُرٌّ دواماً شريدُ
إنْ لم تقع فى غرامى وقعتَ لمّا أُريدُ
لكن إذا همتُ فاحذرْ منِّى ، فحبى شديدُ

وأنها تكاد تنتزع من صُدْرتها زهرة الكاسيا الحمراء وتقذفنى بها ، فأكاد أقفز إليها ، لولا أن نظرتها الجارحة سرْعان ما تقفنى فى مكانى . إى والله ! لقد عاد بى الخيالُ إلى تلك الجواء الحية التى ينمو فيها الحبُّ الوحشى على الدم الزكىّ يبذله الفرسان فى الطِّعان مع

الأقران أو فى مصارعة الثيران ، وانبعثت فى نفسى نوازع لا شعورية كَبَتَتْها الحضارة ، نوازع إلى الصعلكة والتشرد والحياة العنيفة . ولست اكتمك أننى كثيراً ما أسمع نداءات هذه النوازع تترامى إلى عقلى فى بعض الأحيان صادرةً من أعمق عمائق اللاشعور ، فأشعر بشىء من الحسرة على أننى لا أستطيع أن ألبّيها نظراً إلى ظروف الحياة المدنية التى تلابسنا . وكم كان بودّى أن أرضيها ، ولو فى فترات ، فأذرع الأنحاء المجهولة والبقاع المهجورة هائماً شارداً لا رفيق لى غير العناصر الوحشية الأولى فى الطبيعة الخالصة !

وبقدر ما ازداد إعجابى بهذه الموسيقى الرائعة ازدادت حسرتى على الموسيقى التى تلتها . فكلتاهما تعود إلى أصل أوّلى واحد ، لكن ما أبعد الشقة اليوم بينهما ، وما أغرب مصير كلتيهما ! فالموسيقى الأسپانية تعود فى شىء منها إلى أصول من الموسيقى العربية فى العصر الوسيط ، بيد أنها استطاعت بفضل قواها الخاصة الخالقة أن تتطور وتنمو حتى ترتفع إلى المستوى الذى نشاهدها عليه اليوم ، مستعينة فى هذا بروافد عدة صُبَّت فيها من أوربا ومن المستعمرات الأمريكية . أما موسيقانا العربية فقد تصلّبت فى قالبها الذى اتخذته فى القرون الوسطى ووقفت عنده ، وجئنا نحن المحدثين فلم نستطع أن نأخذ بيدها من حيث وقفت ، ولا أن نستوحى الموسيقى الأوربية فى آخر مراحل تطورها كما فعلت الموسيقى الروسية . وتحت تأثير هذا التردد العاجز هلكنا كما هَلَكَ حمار بوريدان ، فلجأنا إلى موسيقى تشبه زفرات المُحْتَضَر فى حشرجة الموت ، هى خليط من الموسيقى التركية والفارسية ، ورحنا نوهم أنفسنا بدافع العجز قائلين إن هذه هى الموسيقى الشرقية الصحيحة ، وليس لنا أن نخرُج عنها ، فهى روحنا .

أية روح تلك أيها الضالون المضلون ! أهى روح الاستعباد الذى قاسيتم أهواله إبان حكم الأتراك المستعبِدين للعرب المساكين ؟ أهى التفسّخ العاجز والميوعة الجوفاء الجدباء التى لا تدل إلا على خَواء الروح فى أجدب لحظات حياتها ؟ أهى الفقر فى التعبير والتقدير والتصوير والتفكير ، بحيث لا تُسْلم إليك النغماتُ أىّ معنى أو عاطفة أو منظر أو حكم أو توحى إليك بأى معيار تقويمى فى سُلّم العلاء الإنسانى ؟ نشدتكم الله إلا دللتمونى على أىّ شىء من هذا كله وراء تأليفاتكم الموسيقية المزعومة . أجل ! أنا أعلم أنكم تحاولون أحيانا أن تموّهوا بشىء من

هذا فتطلقوا على بعض القطع عنوانات برّاقة : فهذه « عتاب » وتلك « أحلام الفجر » ، وثالثة « صرخة الربيع » . وما أبرعكم والله فى اختيار العنوانات الرنانة الزاهية ، شأنكم شأن الأطفال والسذج البدائيين الذين لا تؤثر فيهم إلا الألفاظ الضخمة التى لا شىء بعد هذا وراءها ، لا شىء مطلقاً . وتلك ظاهرة مشاهدة فى كل الأدوار الطفولية التافهة : إذ يلاحظ فيها دائما ميل الناس إلى اختيار العنوانات الطنانة الجوفاء ، فخذ هذه علامة على فقر أصحابها وتفاهة نفوسهم . لكن المرء يحاول فى غير طائل إطلاقا أن يظفر بأية صلة كائنة ما كانت بين هذه القطع و بين عنواناتها ، أو حتى بينها و بين أى معنى ومدلول . شيئاً من الجِد إذاً أيها القوم ، أو فاتركوا النفاق ! وها هى ذى تجربة الموسيقى الروسية أمامكم خير هاد إلى ما ينتظر موسيقاكم العربية من مستقبل باهر وضاء لو أنكم كنتم جادّين مخلصين إلى جانب أن تكونوا موهوبين بطبعكم ممتازين . إنها اتخذت من تاريخكم القومى نفسه ومن سِيَر أبطالكم ومن أقاصيصكم الشعبية مادة أبدعت فى إتقانها واستخراج المعجزات الصوتية منها ، فلم تدع عنترة ولا شهر زاد — وهما من كبار شخصيات أساطيركم التى هى جزء من دمكم وروحكم — حتى أخرجت منهما ومن غيرهما روائع الفن الموسيقى فى العالم كله ، لا فى روسيا وحدها . أوليس الأخلق بكم بعد هذا كله أن تدفنوا وجوهكم فى التراب من هذا العار الأكبر ؟

أعلن المذيع عن تلك الرقصة الشرقية المزعومة ، فتقدمت فتاة هِرْكَوْلة فى بطنها دَحَل يعلوه حَبَنٌ ويهبط به ثَجَلٌ ، كأنها برميل باخوس ، وقد تقهقرت عجيزتها الضخمة القلطاحة وتدلت من ورائها ، حتى ليعجب المرء كيف استطاعت صاحبتها أن تقاوم جاذبية الأرض إلى هذا الحد . وهى فعلا فى صراع دائم معها، تشاهد آثاره فى تلك الحركات العصبية التى يبديها كلا شِقىّ تلك العجيزة فيما بينهما ، لكن العجب يقل شيئا إذا ما أبصر المرء هذين اللوحين اللذين يكوّنان كتفيها ، ويزيد كل منهما عن وزن الثور الذى يقال إنه يحمل الأرض فيما يزعم أصحاب الأساطير : ففيهما ما يُجْرى بعضا من التوازن بين الأعلى والأسفل. وكان طبيعيا بعد هذا كله ألا يكون ثمت مجال لأى انفراج فيما بين فخذيها ، بل وساقيها . فكانا كعمودين من تلك الأعمدة المصرية التى تزين مداخل المعابد : سِمَن وجسامة وانتفاخ فى غير تقسيم ولا تنويع . أما نهداها فقد كانا فى تماثل (سيمتريه) تام مع رِدْفيها : تقارب

فى الضخامة وطريقة الإرتخاء ونوع الانفراج . لهذا فليس من المستطاع تصور النهدين دون الرِّدْفين أو العكس ، لأن التماثل — حتى فى القبح — يقتضى تلازُمها . وأنت تعلم مبلغ إعجابى بالنهود ، لأنها النداء الأزلى الثابت الذى توجهّه المرأة دائما إلى الرجل ؛ ولهذا كانا فى نظرى أبرز علامات الجنس . والمرأة الضئيلة النهدين هى كائن حلّت عليه لعنةُ الجنس فصار يرقص على الهاوية القائمة بين حافتى الأنوثة والرجولة ؛ إنها مخلوق شقىٌ كان الأجدر به ألا يولَد . وتعلم أيضاً كم من فتيات هجرتهن منذ اللحظة الأولى ، على الرغم من جمال وجوههن الفاتن ، ووسامة قدّهن الرائعة ، وعذوبة أرواحهن الجذابة السحرية — لا لشىء إلا لخفة نهودهن بل وأحيانا لمجرد عدم بروزها بشدة . لـكنك تعلم كذلك أننى أميِّز بين نوعين من النهود المليئة : الشّماء المنطقة ، والمترهلة المرتخية . والأول وحده هو الذى أميل إليه، لأنه يحقق الغاية منه ، ألا وهى توجيه النداء الجنسى الخالد من الأنوثة الخالدة إلى الرجولة الخالدة كذلك . أما الثانى فإن حقق جانبا من هذه الغاية فإنما يحقق جانبها السُّفْلى لأنه ينبه إلى الجنس فى أحط درجاته . النوع الأول يدعو إلى الجنس لـكنه يهتف فى نفسى الآن : عُلوّاً بالقلوب ! أما النوع الثانى فيجرُّ إلى الجنس لـكنه يهتف فى نفسى الآن : نزولا إلى دَرَك جحيم الشهوات !

وما لنا والحديث عن جمال النهود وفتاتنا ليست فى حاجة إلى شىء من هذا كله ! بل بالعكس : إنها فى رقصتها هذه وما يصاحبها من موسيقى لا تحتاج إلا إلى هذا الجسم الذى أتيت على وصفه بكل تفاصيله : فما رقصتها هذه إلا عملية شهوانية من أحط الأنواع ، تمثِّل حالة الانهيار الروحى المريع الذى يريد قوم أن يَقْرِفونا به معشر الشرقيين المساكين . وإلا فقُلْ بربك ما هذه الحركات التى تأتيها واحدة بعد أخرى فى تسلسل منطقى متصل يحاكى تلك العملية خطوة فخطوة بكل دقائقها وتفاصيلها : بدأت بهِزّات من رأسها هى حركات التمنُّع المثير الأولى ، ثم أقبلت بصدرها ونهديها علامة انجذاب بعد تأبٍّ وامتناع ، وسرعان ما انتفضت بقوامها كله انتفاضة فجائية كأنما تريد أن تتدارك خطأها فى زيادة إقبالها من قبل بنهديها ، واستأنفت حركة الرأس ، لـكن نظرات عينيها كانت هذه المرة أقل حياء منها فى المرة الأولى ، وكانت اهتزازات رأسها أميل أيضاً إلى العبث والمزاح بعد أن كانت فى المرة السابقة تَتَّسم بالجد المُغْرى فى غير تعَب ولا قطع للرجاء . وتلتها بهجات متوالية من صدرها

فى سرعة غريبة وذبذبة رجراجة كانت أول إيذان باللحظة الكبرى . وخلال هذا كله كانت تنثنى بقوامها ذات اليمين وذات الشمال مشيرة دائماً بنظراتها إلى ردفيها وكأنها تقول : هنا استودعتُ سرى ! كما كانت بين الحين والحين ترسل طقطقات صاخبة من بين سبّابتيها هى الألحان التى تجاوب بها تثنيات قوامها . ثم انتقلت الحركة كلها إلى البطن ، فأصبح يهتز ويتلوى كأنه حوض صغير مملوء بالأفاعى ، وكأنها تعبر بهذه الاهتزازات عن حركة كرات الشهوة فى حميم الدم . وأخيراً جاءت اللحظة الكبرى ، وأرجوك أن تعفينى من وصفها : فلا قِبَلَ لأية أداة للتعبير بتصوير ذبذبة مِنطقتها الوسطى كأنما سرت فيها كهرباء عجيبة ، فصارت هذه القطعة من البدن وحدها تعلو وتنخفض وتضرب يمنة ويسرة وتتمدد وتتقلّص وتتحول ملامحها وخطوطها فى أقل من واحد من مائة من الثانية وتتخذ ألواناً وصوراً عجيبة من التعبير . أوه ! كفى ! فما فى وسعى المزيد . وفى النهاية تراجعتْ برأسها إلى الوراء كما تسقط رأس المشنوق بعد شد الحبل عليها ؛ وبسطت ذراعين منهوكتين وعلى وجهها الشحوبُ — وأخيراً خرّت على الأرض منفرجة الساقين .

أىُّ جحيم من الشهوات لا يثيره فى كيان كل إنسان مثلُ هذا المنظر الجنونى !

لقد ظلت القِطعان الجائعة المتناثرة حول الموائد تصيح ملء فيها : الشهوةَ ! الشهوةَ ! وتضرب الأرض بحوافرها (واغفر لى هذا التعبير ، لأنهم كانوا فى الواقع قطيعاً من الحيوان الوحشى الغريب) ، بشدة واهتياج ينمّان عن مبلغ العواصف الجامحة التى تقصف بنفوسهم الغرثى ، وتصفق بأيدٍ عصبية يكاد دم الشهوة يسيل من بين فروج أناملها . ولا تَسل عما كان فى الوجوه من تقلصات وعما كان بين الأسنان من اصطكاك وجعجعة ، وبين الشفاه من تأوهات صارخة كأنها جُؤار الفحل .

يا لِله ! أهكذا تفعل الشهوة بهذه النفوس الساغبة اللاغبة ؟ وما لهم وهذه المناظر ما دامت لا تؤدى وظيفة التطهير (الكاثرسيس) ، بل بالعكس تهيج الشهوات المكبوتة وتولّد آلافاً أخرى غيرها ؟ أهو نوع من جنون الاضطهاد الذاتى يدفعهم إلى أن يكونوا جلّادين لأنفسهم وهم لا يَعون ؟ ومن العجب الذى يستنفد كلَّ عجب أنهم وقد تبيّنوا هذا التأثير فى ضحى الغد ، يتساقون فى العشية ظِماء مُهْطِعين إلى حيث يتناولون جرعة أخرى جديدة ، وهكذا باستمرار .

كلُّ هذا ولم أعرض عليك أيها الصديق إلا صورة بسيطة عما حدث فعلاً ؛ وأنا نفسى قد اهتز كيانى كله واضطرب فأُصِبْتُ بدوار شعرت معه بأننى فى أتون ملتهب أصلى ناراً حامية لم أفهم لها مصدراً لأنها ملكت عليَّ شِعاب نفسى . فإن كنت أنا البكر قد أصابنى هذا كله ، فما بالك بهؤلاء المحنكين الذين عانوا مئات التجارب وازدحمت عقولهم بأفجر الذكريات !

آه ! كم تنفست الصُعَداء حينما ارتدّت هذه الجِنّية الرهيبة إلى كهفها الملئ بالأشباح والتهاويل ، وأُطلِقَت صفارة الأمان إيذاناً بانتهاء غارتها الشعواء الفتاكة التى لم تدع حاسة ولا خلية من خلايا البدن إلا دمّرتها وحطمتها وخَلَّفت النفوس خرائب مشتتة بائسة !

كان طبيعياً بعد هذا أن يكون الرقمُ التالى — والأخير — مما من شأنه أن يسمو بالمرء — ولو قليلاً — إلى حيث الهواء الصافى والنور المشرق بعد تلك الليلة الحيوانية الجرية . وفعلاً كان أغنية من الرواية الغنائية « لا ترافياتا » (ومعناها بالإيطالية : الغاوية أو الضالة) لِفِردى، أنشدتها فتاة نحيلة تقرب فى نحولها من صاحبتها الأصلية فيولِتّا (مرجريت جوتييه فى رواية ديما الصغير : «غادة الكامليا») ، غنتها بصوت النَّدِىّ (السوپرانو) ، فى نبرات تذوب رقة وحناناً ، وعلى وجهها علامات التأثر ودلائل على انفعال مكتوم ، فكانت تنتفض أحياناً كثيرة وهى واقفة أمام مكبِّر الصوت مرتدية ثوباً حريرياً ذا لون أزرق خفيف كأنه لون السماء فى صباح يوم جميل من شهر أيار ، عليه فى الجانب الأيسر زهرةُ كامِليا ناصعة البياض . وكانت سيماؤها تنطق عن براءة لا تتفق كثيراً مع البطلة الأصلية ، مما زاد فى روعة تأثيرها .

ولست أدرى أى شيطان خبيث أوحى إلى واضعى البرنامج أن يختاروا الليلةَ هذه الرواية بالذات ، وأن تختار المغنية ما اختارت من قطع . أهى الصدفة وحدها التى أملته ، أم كانت إصْبَع القدر تهيئ شيئاً وتدبّر أمراً بليلٍ ؟ لعل كليهما أن يكون قد تحالف ضدى فى تلك الليلة — على قلة ائتلافهما وميلهما إلى المخالفة — لتبدأ المأساة التى عصفت بحياتى .

كنتُ قرأت الرواية فى مطلع المراهقة كما وضعها ديما الصغير على شكل قصة ، لكننى لم أحفل بها كثيراً آنذاك ، لأننى كنت فى شُغُلٍ عنها بالروايات الكلاسيكية من يونانية وألمانية وفرنسية ؛ ولم أكن أسمح لنفسى فى ذلك الحين بتخطى النزعة الكلاسيكية ثم

الرومنتيكية إلى النزعة الطبيعية ، ولم أحفل من الرومنتيك إلا بالناحية الشعرية ، أما المسرح فقد أغفلته تماماً . وكنتُ بطبعى أُبْغِض الروايات ذات الأُطْروحة أو القضية كما يسميها الفرنسيون ، أى تلك التى تقصد إلى طرح قضية على الرأى العام والدفاع عنها ، لأن فيها من التصنع الزائف ما يجور بها عن القصد الصحيح من الوضع الفنّى الرفيع .

فاطَّرَحتها حيناً إذاً فى الجانب الخفىّ من نفسى ، إلى أن بُعِثَت من مرقدها مرة أخرى أثناء مقامى بإيطاليا لدى سماعى للأوپرا أو الرواية الغنائية التى أخذِت عنها وهى التى ألف ألحانها ڤردى وخرجت باسم «لاتراڤياتا» . لكننى لم أتأثر بالموضوع هذه المرة أيضا ، ولعل السبب فى هذا أننى كنت منصرفا بتمام نفسى إلى موسيقى ڤردى العذبة والأغانى الرائعة التى تبادلها ألفريدو چرمون (أرمان دوڤال فى قصة ديما الأصلية) وڤيولتا ، خصوصا فى الفصل الأول ؛ فضلا عن أنى — ولعل هذا هو السبب الأكبر — كنت فى ذلك الحين هائما بتلك التجربة الغرامية الصوفية العذرية التى سأعرض عليك يوما ما تمام فصولها . وما أبعد هذا الجوّ عن جو التراڤياتا ! أواه ! أكان يمكن أن يدور بخلدى فى ذلك الحين أن أشبّه نفسى يوما ما بألفريدو (أرمان دوڤال) ، أو أتصور لنفسى — أنا الذى كنت أحيا فى فردوس من الطهر والبراءة ، فردوس هذا المَلَك المقرّب الذى أظلنى بجناحيه فأنزل جنات النعيم إلى تراب وجودى وهبط بعلّيين إلى أرض حياتى — أكنت أتصور لنفسى أننى سأُضطرّ إلى التخلى عنه لكى أمدّ يدىَ من بعدُ إلى أمثال ڤيولتا وأترابها من بنات الهوى ؟ !

ومع هذا فإن هذا هو الذى حدث لى بعد أن أُصِبْتُ بضربة القدر القاصمة ، فصرتُ لا أجد غضاضة فى أن أتطلّع إلى هذا الجوّ الرهيب ، ماذا أقول ! بل صرت بعد قليل أحِنُّ إليه فى قرارة نفسى . وتصادف فى ذلك الحين أن عُرِضت القصة على صورتين : مسرحية وسينمائية ، وكلتا الصورتين فاتنة متقنة الإخراج والتمثيل ، فاجتمعت الإجادة فى الفن مع الإجادة فى التمثيل فكان عنهما تفاعل خطير . إذ صرتُ لا أفزع من القيام بمثل هذه التجربة ، وكثيراً ما راودتنى عن نفسى كيما تؤديها . لكن كان لا يزال بين التفكير والتنفيذ مراحل طويلة ، كنت لا أزال أتصور أنه لا يمكن قطعها عمليا . فكانت هذه النوازع لا تزال على شكل وساوس كنت قادراً على استبعادها على الرغم من إلحاحها الشديد . ومن هنا كان لرواية ديما هذه — على أية صورة قرأتها أو شاهدتها — أكبر الأثر فى نفسى مما ظلّ يضطرب

ويتفاعل ويتضاعف بقوة هائلة مفرقعة ، إلى أن كانت هذه الليلة فى المرقص التى أقص عليك اليوم نبأها .

بدأت الفتاة بأن شَدَت أغنية الشراب التى تقول : « لِنَشْرَب ! لِنَشْرَبْ كؤوسَ الهنَا ! » والمذهبُ (الكورس) من بعدها يردّد بعد كل ميزان . وكان فى نبراتها ما يذكّر بالداء الوبيل الذى يستهلك رئتها شيئاً فشيئاً فى ذلك الحين (وأنا أقصد طبعاً رئة ڤيولتا فى الرواية الغنائية ، لا رئة صاحبتنا هذه التى تغنى أمامى فى المرقص !) ، وأنا أرثى كثيراً لحال المصابين بذلك الداء ، داء السل ، وأشعر نحوهم بعطف غريب . أهذا لِذِكريات خاصة بأشخاص أثيرين عندى اختضرتهم هذه العلة ، أم لأن الكتاب الأعزاء لدىّ قد ماتوا صرعى لها : اسپينوزا وكيتس وشلى ونوفالس وبشكرتسف ولورنس وعدد لا يحصى ؟ قل إن شئت الصدق إنه يرجع إلى هــذه الأسباب كلها مجتمعةً ، فضلاً عن أخرى غيرها لا أستطيع بعد أن أتبينه .

هنالك رأيت نفسى تنطلق على غير إرادة منى مردِّدة فى داخلها أغنيةَ ألفريدو التى كشف فيها عن حبه لها ومتى كان ، فبدأ يقول :

ذاتَ يومٍ طافَ من أعلى الأثيرْ طائفُ النشوةِ فى قلبى الكسير
نشوةُ الحبّ لها وقع كبيرْ

فكان كلانا يجاوب الآخر فى تأثر كامل دون أن يعلم أحدنا بِسرّ أخيه . وما انتهيت أنا من أغنيتى فى داخل نفسى حتى كانت هى قد بدأت الأغنية الثانية :

ربما كان ملاذَ النفس فى عاصف الأمواج من بحر الحياهْ

والغريب فى طبعى أن عاطفة الحب كثيراً — إن لم يكن دائماً — ما تنشأ عندى تحت تأثير عاطفة الشفقة . هنالك تلفَّتُّ خلفى إلى الفتاة ذات العينين السوداوين والنظرات البراقة والغدائر الافعُوانية التى كنت أتأملها منذ حين ولم يصرفنى عن التأمل فيها إلا ابتداء البرنامج ، فوجدتها لا تزال رابضة فى مكانها ، لم يتبدّل من حالها شىء ، اللهم إلا أنها استبدلت بفستانها فُستان السهرة الأسمر الذى أضفى عليها شيئاً من الطول القليل وزاد فى ضخامتها ، خصوصاً نصفها الأسفل ؛ وكان لا يكاد يغطى من صدرها إلا نهديها وقد رفعهما العِمادُ (السوتيان) بعد أن كانا مرتخيين شيئاً ، فازداد تأثيرهما صولة وعَرامة .

وفى هذه المرة أثأرْتُ إليها بصرى وأمعنتُ فيها النظر بعد أن كنت فى المرة الأولى أخالسها إياه . فلما أدركَتْ منى هذا ، خالت بحاسّتها كفنانة أننى قد أصلح فريسةً للصيد . فتبسَّمَتْ ورنتْ بعينيها مديرةً وجهها ناحية أخرى كأنما هى لا تقصدنى ؛ لكن الحياء عقد شفتىّ فلم أستطع أن أبادلها ابتسامة بابتسامة . وهذه من طباعى الغريبة التى جعلت كثيراً من الفرائس تفلت من يدى . ومع هذا بقيتُ أنظر إليها وأطيلُ فى هذا النظر ، مما أبقى على ما كان عندها من ظن وأمل ، وجعلها تتوسم فىّ السذاجة والغِرّة ، لذا رأت من واجبها أن تبدأ هى الهجوم . فضحكت ضحكة عالية ، لم أقابلها أنا إلا بسمة المقلتين وتجعد فى الجبين علامةَ الدهشة . فلعلها قالت حينئذ فى نفسها : لن يتقدم إليك بنفسه ، إذ يلوح أنه فتى غِرّ لا يعرف أمرنا معشر بنات الهوى ؛ فلأحاول الآن إغراءه بكل وسيلة ، ولن يفلت منى مثل هذا النوع من الفتيان لأنهم إذا كانوا أغنياء موسرين فإنهم ينفقون عن سَعَة ونسلبهم أموالهم قبل أن ننيلهم من رغائبهم شيئاً .

وكانت المغنية قد وصلت فى غنائها إلى القطعة التى فيها أذعنت ڤيولتا — تحت تأثير توسلات والد ألفريدو وتضرعاته — إلى الواجب ، وها هى ذى تشدو قائلة : « سأمضى ، ولكنّ ذِكْر الهوى » . فانبعثت فى نفسى صورة ذلك المنظر الرهيب بين الوالد و بين فتاة الهوى التى أغرت ابنه ولوّثت بهذا شرفَ أسرته ووقفت حائلاً دون إتمام زواج أخته ، وصرختُ فى أعماق بتلك الأغنية التى غناها الوالد واصفاً ابنته : « طُهْرُها طُهْرُ الملاك » . فأفكْتُ نفسى عن متوجّهها ، وتذكرت سوء الحال وما عسى أن يجر إليه الأمر من مصائب وأهوال ، وأدرْتُ فى نفسى ما وعته الذاكرة من صور مشابهة عرفتُها قراءةً أوسماعاً . فاستأنفت خواطرى التى كانت تجول فى داخلى قبل بدء البرنامج مباشرة ، وشُغلت بها عن فتاتى ذات الغدائر الأُفْعُوانية . فتركتها إلى حين .

بيد أن المصير الجبار قد أرسل تلك المغنية بأغاريدها المؤثرة تطلقها بصوتها الحنون حِياشةً لى إلى المأزِق المحتوم . فقد ختمتها بالأغنية الحزينة الأخيرة التى كانت نشيد البلشون لڤيولتا: « أموتُ ، إلهى ! بفجر الشباب ! » . فعادت عاطفة الشفقة تحز من جديد فى نفسى وتطرق أبواب عقلى بعنف وصخب . وأنا على الرغم من تظاهرى ببغض هـذه العاطفة من أشد الناس تأثراً بها ، ولهذا أيضاً فأنا أمقتها بكل قلبى ، لأنها مصدرٌ لكثيرٍ من الخطر على

كيانى . ولكم جاهدتها وحاولت القضاء عليها ، لكن جهودى ذهبت حتى اليوم أدراجَ الرياح . وأنا قد ذكرت لك أن عاطفة الشفقة هى أول مفتاح يفتح الحب فى قلبى نحو كائن ما . لهذا عُدْتُ أُفكر فى الأمر طويلا :

قلتُ لنفسى : ولم لا يكون دمعا صادقاً فى استدرار الدمع على حال بنات الهوى هؤلاء ، ولِمَ لا يكنّ جديرات بالعطف حقاً ، والناس هم الذين يصورونهن بتلك الصورة الرهيبة التى رسمتها لك وفق ما تقوله ألسنتهم ، ولو كانوا مخلصين فى هذا التصوير إذاً لاندفعوا لإنقاذهن أو لتجنيب المجتمع ويلاتهن ؟ لِمَ لا يكنّ شهيدات لأهواء الرجال الآثمة ، لم يستطعن ردّ غائلتها لأن المجتمع لم يزودهن بأى سلاح يذدن به عن أعراضهن فلا يلقين بها فى تلك السوق الموفورة من جراح الإنسانية ؟ تأمّلهن جيداً : أولا ترى أن الغاية العظمى لدى كل منهن أن تتزوج ، وإن حرصن على أن يكون الزواج بموسر فما هذا إلا لأن حياة البَذْخ التى اعتدنها بحكم مهنتهن هاتيك يصعب عليها أن تنزل كثيراً عن مستواها ؛ ومع هذا فالغالبية العظمى منهن يفضلن التضحية بحياة الإسراف تلك فى سبيل الزواج أيًا كان ؟ إنها لتشعر فى عمائق نفسها بأنها منبوذة من كل مجتمع وطبقة ولا تستطيع أيتهن أن ترفع عينيها فى وجه أية امرأة أخرى مهما كان من فساد سلوكها وعهارتها غير الرسمية ، فكيف تصبر نفسها على مثل تلك الحال البائسة التى تسلبها كلّ حقوقها الإنسانية ؟ وهذا هو السرّ فى رغبتها فى الزواج بأى ثمن ، لأنها تحسَب أنه سيفدى خطيئتها ، ناسيةً بهذا أن خطيئتها هاتيك إنما هى كالخطيئة الأولى ، تظل باقية أبداً لا كفّارة لها إلا بمعجزة ، وأنّى لمثل هؤلاء البائسات بالمعجزات وهن لم يصلن بعدُ حتى إلى مرتبة الإنسان ! وهؤلاء الرجال الذين لا يفلحون إلا فى الخطب الطويلة والمواعظ الزائفة ، ما بالهم يتهافتون على تلك المسكينة ، محرّضين إياها على سلوك ذلك المسلك الشائن وفقاً لأقوالهم ؟ بودى أن أعرف مَن مِن هؤلاء الرجال لا يرتكب كلّ يوم تقريباً نفس الإثم الذى يقرفون به تلك الآثمة الملعونة فيما يظنون ؟ تقولون إنها تتملق شهوات الرجال كيما تستولى على ما فى أيديهم ؛ وأنا أقول لكم : وهل تفعلون أنتم غير هذا حينما يتملق كلٌّ منكم هوى كلٍّ من بيده سلطان أو مال أو جاه أو أية منفعة من المنافع التى تتطلعون إليها فى كل آن ؟ إن سمّوتم فعلها عهارة وفجوراً ، فماذا تسمّون فعلكم هذا ؟ أو ليس هو الأخلق بهذا الاسم الذى لا تقْرِفون به إلا هذه المسكينة ؟ لماذا تبررون إراقة ماء الوجه أمام قدَمِ

ثقيل شاءت الظروف الظالمة والتوزيع الجائر للسلطان والثراء والمكانة الاجتماعية أن يكون في مركز المتحكم ، بل تظنون في هذا الحكمة كل الحكمة والرأى أصوبَ الرأى ، وتستندون فى هذا إلى مدد لا ينفد من النصائح الخاصة بالنجاح فى الحياة والوصول ؟ لماذا تبررون هذا كله ، ولا تبررون فعل بنات الهوى المسكينات ، وهل أَتَيْنَ أمراً إدًّا ، ما دمتم لا تنعتون مسلككم بهذا النعت ، مع أنه لا فارق مطلقاً بين كلا المسلكين : فغايتكم النجاح فى الحياة وإمكان العيش ، وتلك أيضاً غايتهن ؛ ووسيلتكم تملق أهواء من بيدهم الثروة والجاه والسلطان — وإن أبى نفاقكم العجيب إلا أن يسىء الاستعمال الصحيح لمعانى الألفاظ فيطلق على وسائلكم هذه ألفاظاً جوفاء لو فتشتموها حقا لما وجدتموها تستر عوراتكم ، بل تزيد فى هتكها وفضحها على ملأ من كل الأفلاك والأكوان — وتلك هى أيضاً وسيلتهن . أنا أفهم أن يقول كلامكم هذا أناس لا يشتغلون فى خدمة أحد كائنا من كان ، من الإنس أو الجان ؛ لكن هؤلاء لا يوجدون ولا يمكن أن يوجدوا ، لأنهم لكى يوجدوا فلا بد أن ينتفى كل مجتمع ويصبح كل إنسان وحيداً مع نفسه ومع مسئوليته الهائلة ، ومع الطبيعة الكلية وحدها ، بل ولا حتى مع هذه أيضا ، ولن يتم هذا إلا فى عالم البكارة والطهارة الأولى ، وأنَّى لمثله أن يوجد !

صدقتَ أيها السيد المسيح حين قلت لأمثال هؤلاء الرجال اللائمين ، وقد شاهدوك تمشى مع — الفاجرة آنذاك — مريم المجدلية ، فصاحوا ساخرين ، فقلت لهم : « ليرْجُمْها بأول حجر من خلا منكم من الخطايا ! » .

تلك كلمة خالدة تستطيع كل فتاة من هؤلاء «الخاطئات» أن تصفع بها كل رجل يلومها.

أما إذا نظرتَ إلى الأمر من جانبه المادى ، فلست أدرى لماذا يسمح الناس للمموِّلين والسماسرة وأساطين الصناعة والزراعة والتجارة أن يستغلوا المستهلكين والعمال أسوأ استغلال دون أن يؤدوا فى مقابل هذا عملا يذكر أو يحققوا لهم فائدة تكافئ والجهدَ الذى يبذله هؤلاء ، بينما يُستنكر من بنات الهوى أن يقمن بنفس العملية ، بل و بطريقة قد تكون أشرف فى كثير من الأحيان . فإن الأولين يستغلون الناس فى أمسِّ الحاجات بهم ، فى الضروريات الأولى لمجرد بقائهم على قيد الحياة ، ومن هنا يلزمونهم إلزاما لا سبيل مطلقا إلى التخلص منه أن يكونوا ضحايا هذا الاستغلال وفرائس مغلوبا على أمرها . أما بنات الهوى فالحاجة

التي يشبعنها يمكن الاستغناء عنها إلى حين ، على الأقل ، لأنها في الواقع نوع من الترف ؛ ومن هنا فإن فرائسهن لا تزال أمامها فرصة واسعة للاختيار ، فأيُّ الفريقين إذاً أشدُّ نذالة وأعظم خسة ؟ ! إنما الفريق الأول بيده المال والسلطان ، وبواسطتهما يستطيع أن يفرض من القواعد والقِيَم ما يشاء ، وأن يضع سُلَّم القيم كما يتفق لهواه ويحقق أغراضه ؛ ومن هنا اختلف التقويم بين أعمال كلا الفريقين ؛ فالاختلاف لا يرجع إذاً إلى الأفعال نفسها وفي ذاتها ، بل إلى تفاوت السلطان بين الذين تصدر عنهم تلك الأفعال . ولست أدرى إلى متى سيظل الناس فريسة لهذا الوهم في التقويم الأخلاقي ؛ ولا منقذ لهم منه إلا بمحاولتهم دائماً أن يردوا التقويم إلى الفاعل نفسه ، لا إلى الفعل .

وإذاً فالوظيفة التي تؤديها بنات الهوى إن هي إلا وظيفة سليمة مشروعة وفق نظامكم الاقتصادي . وإن نُظر إليها من ناحية النظام الاقتصادي الاشتراكي وُجِدَت أسلم من عملية أولئك ؛ لأن العمليات التي يقوم بها أولئك الرأسماليون فيها دائماً تسخير لأيدٍ وعقول إنسانية ، وفيها اقتطاع من رفاهية أناس عديدين لضمها جميعاً إلى شخص واحد أو عدد قليل جداً من الأفراد ؛ أما العمليات التي تقوم بها بنات الهوى فهي في الغالب استهلاكية ، لأنهن لا يأخذن من أصحابهن أموالا ، بل موضوعات للاستهلاك ، والنادرات اللائى في أحطِّ مراتبهن هن اللواتي يتناولن نقداً ؛ ووفقاً للاقتصاد الماركسي لك أن تستهلك ما تشاء ، لكن ليس لك أن تستثمر شيئاً ؛ فكأن العمليات الاقتصادية التي يقوم بها هؤلاء النسوة هي وحدها السليمة وفقاً لذلك الاقتصاد . وأصدق شاهد على هذا أنهن يمتن في الغالب دون أن يخلفن وراءهن ثروة ما ؛ بينما الآخرون يتركون الكنوز .

ذلك هو الجانب المادي . أما المعنوى فلا يقل عن الآخر قبولا للتبرير . فإن جعلتَ المعيار الأعلى للحياة هو معاناة أوفر قسط من التجارب الحية ، فمن أقدر على هذا من بنات الهوى هؤلاء ؟ إن أمامهن ميداناً فسيحاً للتجارب الحية مع الإنسانية في تمام حقيقتها السافرة الأصيلة التي زال عنها كل طلاء زائف . لأنهن يعرفن الناس في أخص دخائل نفوسهن ؛ ويستطعن أن يستنطقنهم خبايا بطائنهم ، لأنهن يعرفنهم دائماً في حالة السكر ، وليس ثمت حالة يمكن أن تستجلى فيها الطبائع الإنسانية كما هي في أعماقها الأولى أفضل من هذه الحالة ، فالكأس هي التي تُظهر مُضمَر الحشا ، حتى تُطْلِع على السر كما يقول مُسْلِمُ بن الوليد . ولو

كان من بينهن العاملة الذكية لاستطاعت أن تكون فى خير مركز يهيئوها لدراسة الأحوال النفسية لجميع الناس ، ولكانت خير عالمة بالنفس . لكنهن جميعا جاهلات غير مثقفات ؛ لهذا لم يتحقق ما كان ينتظر منهن من فائدة فى هذا الباب .

إنهن إذاً يقمن بغزوات واسعة النطاق فى ميادين النفس البشرية ، ويبذلن فى هذا السبيل أعز ما يملكن : نفسهن وعرضهن . أفليس غزو النفس البشرية أحرى من غزو الأرض المادية بأن تضفر له أكاليل المجد وأن ينعت القائمون به بالبطولة والاستشهاد ؟ بلى ، لأن النفسىّ الروحى أفضل من البدنى المادى .

أما مسألة الذل والمهانة ، فمسألة يتوقف الحكم فيها على الوضع القائم فى كل حالة ، كما هو الأمر تماماً بالنسبة إلى الغزو المادى . لأنها مسألة نضال بين فريقين قد يعقد لواء الظفر لأحدهما أو للآخر ، وقد يظل سجالاً بينهما . وأؤكد لكِ أيتها النفس أن فريق بنات الهوى هو الفائز الغالب . إنما الأمر كله يقوم فى حقيقته على الوهم المتبادَل . فالرجل يتوهم أنه أذلها بنقده إياها ثمن اللذة التى هيأتها له ؛ لكن أين الذلّ فى هذا ؟ وهل يفعل كلٌّ منا فى معاشه غير هذا ؟ والواقع أن ذلّ الرجل فى هذه المعركة أكبر من ذل المرأة . فهو الذى يبذل لها الكَلِم الزائف والتضرعات الممجوجة — التى قد تكونُ أحيانا مخلصة — ؛ وهو الذى يصبح أسيراً لها ، يترضى نزواتها ويتملق أهواءها ، خصوصاً منذ اللحظة التى تستولى فيها عليه ، وهى لحظة قد تأتى بعد بدء المعرفة بزمن قليل جداً ، وفقاً لتجارب الشخص المتصابى . وإن للنساء لحيلةً واسعة لا ينضب لها معين فى الكرّ والفرّ أثناء هذه العملية . فلا يوهمنّ رجلٌ نفسَه يوما أنه أذلّ بنت هوى ؛ بل ليكن واثقاً دائما أنه الذليل المهين ، وأنها الظافرة القاهرة .

وما بلغتُ هذا الموضع من الحديث إلى نفسى حتى كان صبرها قد نَفِدَ نهائياً ، وكانت طَواله تزمجر وتهدر وتحمرّ عيونها غضباً من هذا الكلام ، أو تتأسّف وتقلب كفًا على كفٍّ رثاءً لى ، أو تتسع مقلتها دهشة واستغراباً من هذا الموقف الجديد الطارئ الذى أقفه فى تلك اللحظة . فلما انهار جُرُف اصطبارها بعد هذا كله صاحت فى وجهى :

إلى أين يُذْهَب بك ؟

أتلقى التبعة أولاً على المجتمع ، وما ذنبه وقد ترك الميدان واسعاً مفتوحا للعمل الشريف

أمام الجميع ؟ فلماذا اختارت هى تلك السبيل الملتوية وقد كان فى وسعها أن تقوم بأى عمل من تلك الأعمال التى تتناسب ومؤهلاتها وأن تتزوّد بما تحتاج من قدر من الثقافة والتهذيب ، اللهم إلا أن يكون ذلك لنذالة طبيعية فى نفسها ؟ بل ما رأيك فى أن عدداً وفيراً من هؤلاء قد كنّ فى عيشة راضية بين أحضان أهل مخلصين أوفياء لهن بكل شىء ، ومع هذا فقد آثرن على هذا الوضع الكريم وضعهن ذاك اللئيم ، لم يستمعن لنصح العقل ولا لأى صوت للحكمة ، بل اندفعن وراء غريزة خاصة موجودة بالطبع فى بعض النفوس ، لا أستطيع إلا أن أسميها غريزة الدَّعارة . وقد تكون لدى الناس جميعاً البذور الأولى لهذه الغريزة ، لكن العقل سرعان ما يعترض سبيلها ويكبتها ، ومع هذا فلا بد أن تظهر فى فترات ، أو على هيئة صور متسامية شأن كل غريزة مكبوتة . وليست الدعارة مقصورة على الناحية الجنسية فى مظهرها الخارجى ، بل تمتد إلى النواحى الخلقية والأدبية والسياسية وكل مَرْفِق من مرافق الحياة : فهذا داعر فى الأدب ، وذلك داعر سياسى ، وثالث داعر فى الصناعة الخ . ولو حاولنا أن نحلل هذه الناحية فى الإنسان ، لوجدنا أنها ترجع إلى أصل فسيولوچى نفسانى معاً : فالشكل الأصلى أو الظاهرة الأوّلية — إن صح تعبير جيته هذا ها هنا — لغريزة الدَّعارة هو الدعارة الجنسية ، ولهذا كانت أكثر شيوعا فى المرأة منها فى الرجل ، لأن المرأة أقرب إلى الوجود الأصيل ، الوجود النباتى العنصرى ، من الرجل . أما عن تحديد المركز العصبى لهذه الغريزة فأمر يحتاج إلى دراسة ، ولا أستطيع بعدُ أن أحدّد مظاهره الفسيولوچية . لكن الجانب النفسانى هو الأهم : لأن المسألة تتوقف كلها فى الواقع على نوع معين من الخُلْق له صفاته ومميزاته ، وما الغريزة الجنسية إلا أداة من أدواته وآلة من آلاته . وهذا الخُلْق تتضافر على تكوينه عناصر عديدة ، من بينها : الخداع والملَق وفقدان الشخصية وزوال الإحساس بالمعنى الإنسانى فى الإنسان ، والميل إلى الترضى على حساب الذات الخاصة ، وقابلية التلوّن بأى لون يمكن من ورائه بلوغ مأرب . ولولا أننى لست بصدد الإدلاء ببحث مطوّل فى هذه الغريزة ، لحلَّلت لك كل جوانبها ومظاهرها ، وكشفتُ لك عن وسائلها وطرق تعاليها . فلندع هذا الآن ، وفيما قلناه ما يكفى لدحض أقوالك كلها .

ولعل فى هذا أيضاً ما يكسر حجتك الثانية التى حاولت فيها أن تبرر مسلكهن بما فى مسلك بعض الناس أو أكثرهم . فإن وجود الشر عند أكثر الناس لا يحيله إلى خير .

وما هؤلاء أيضاً إلا داعرون على طرازهم الخاص كهؤلاء النسوة سواء بسواء . وإذا كان المجتمع لا يعرض لهم بالنكير كما يعرض لبنات الهوى ، فالإثم فى هـذا إنما يقع على شرعة الأخلاق الوضيعة السائدة بين الناس ؛ وفساد التصوير أو الحكم لا ينهض دليلا على صحة المحكوم عليه أو فساده . ألا فليعدِّل الناس إذاً شرعة تلك الأخلاق .

أما المقارنة التى عقدتها بين الوظيفة الاقتصادية التى تؤديها بنات الهوى وتلك التى يقوم بها السماسرة وكبار المستغلين الجشعين من رجال المال والأعمال ، فمن قال إنها تبرر ما ذهبت إليه ؟ إن كلتيهما شر لا بد من الخلاص منه ، وهما يندرجان تحت باب واحد هو الاستبداد والاستعباد للانسان فى هذا العصر الآلى ، فاضرب كلا بالآخر وضعهما معاً فى صندوق پَنْدورا .

وما ذهبتَ إليه من المغامرة والحياة المليئة فى تجارب بنات الهوى وما لهذا من ميزة على الحياة الرتيبة الجوفاء التى يحياها غيرهن من النسوة ، فينطوى على مغالطة لست أدرى كيف انسقت إليها . فإن شرف التجربة الحية بشرف موضوعها ، وإلا كانت أعمال اللصوص وقطاع الطرق والقرصان والسفاكين المحترفين مما يطلب لذاته ويُحْرَص على ارتياده . ولا أحسبك ذاهبا إلى هذا الحد . ذلك أن قيمة المغامرة فى كونها تصدر عن حرية واختيار ، وتنشأ عن الذات وما فيها من قوى تريد الفيض والنماء والبذل والسخاء ؛ لـكن بنات الهوى شأنهن شأن قطاع الطرق واللصوص لا يصـدرن فى مآربهن تلك عن شعور بالحاجة إلى المغامرة كمغامرة تطلب لِذاتها ولذّاتها ، بل هى الحاجة المادية أحيانا أو الفساد الطبيعى أحيانا أخرى أو دائماً هو الذى يحملهنَّ على هذا المركب الوعر دون أن يكنَّ فى هذا مختارات أى اختيار . فأنت تخلط إذاً بين روح المخاطرة وبين الوقوع فى المخاطرة ، مع أنهما متمايزان تمام التمايز : فروح المخاطرة روح وثابة تصدر فى أعمالها عن ذاتها وتشعر بحريتها ومسئوليتها الهائلة ، وتقبل على الخطر وهى عالمة به مريدة له ، أما الوقوع فى المخاطرة فأمر اضطرارى لا يقبل عليه صاحبه وهو عالم به ، وإنما لأنه مرغم عليه لا اختيار له فيه . وشتان ما هما !

فأجبت نفسى : على رِسلك ! أفلا تزالين عالقة بهذه الألفاظ الجوفاء التى تتحدث عن شىء موهوم يسمى غريزة كذا أو كذا ، مع أن هذا تفسير عتيق عفَّى عليه الإدراك العلمى الصحيح الذى يدلنا على أن الأمر أمر فعال متناثرة تصدر عن دوافع متعددة ولا تندرج تحت قوة واحدة موهومة ، كفكرة الملكات التى كان يقول بها الأقدمون ؟ إن أمامنا

أفعالا لها طابع ونتائج واحدة ، فماذا يجديك أن ترديها إلى مصادر عدة ، ما دام كل تقويم يجب أن يرد إلى الأفعال نفسها ، لا إلى قوى مزعومة تستقر وراءها ؟ أنا لا أفهم شيئا اسمه غريزة الدعارة وكأنه ملكة من الملكات فى الإنسان . ولكِ أن تعزِّى نفسك بهذه الألفاظ الرخيصة ، أما أنا فرجل واقع ، أى رجال أفعال وأعمال ونتائج وآثار خارجية .

ثم أراك تطلبين إليهن أن يزاولن مهناً أخرى تسمينها أنتِ شريفة ، وأنا لا أفهم كيف تخلطين هنا بين الاقتصاد وبين الأخلاق ، مع أن أول كلمة تضعونها على رأس كتبكم فى الاقتصاد هى أن هذا العلم بمعزل عن الأخلاق ، أى يجب ألا تتدخل فيه المعايير والقيم الأخلاقية وإلا فسد ، أو على الأقل اتخذ وجها آخر غير وجهه الصحيح الصادر عن طبيعته الخاصة ، بوصفه شيئا مستقلا بذاته ، وليس خادما لغيره . ففضلا عن أن فكرة تقسيم العمل والتخصص تقتضى أن تتعدد المهن وفقا لإشباع الحاجات ، فإن الأصل الاقتصادى فى مهنة بنات الهوى واضح . إذ المقصود من كل اقتصاد هو إشباع الحاجات الطبيعية ، وكيف تنكرين أن الحاجة التى تشبعها بنات الهوى ليست طبيعية بل وطبيعية جداً ! إنهن يكسرن من غائلة شهوة جامحة وحاجة عنيفة لا نكاد نجد فى الحاجات ما يدانيها صولة وعَرامة وقوة . فإذا كانت القيمة الاقتصادية تقاس حسب ما يشبعه الشىء من حاجة ووَفقاً لشدة هذه الحاجة ، فيجب كما يقول اقتصاديوكم أن يُعدّ عملهن من أعلى الأعمال الاقتصادية قيمة . أما ما يجرى خلال هذه العملية من إجراءات فى المعاملة فشأنه شأن كل صفقة اقتصادية : يحاول كلٌّ من الطرفين أن يحقق منها أكبر منفعة لنفسه . فهنّ إذاً لسن بِدْعاً فى هذا الباب .

فقاطعتنى النفسُ قائلة : اوه ! أنا أعلم أنك قد صرت من الفساد فى التفكير بحيث تستطيع أن ترد علىّ حجة بحجة ، وقد تكون أبرع منى فى هذا الباب ، لأن العقل والمنطق قد خلقا لتبرير الشر أولى من أن يكونا قد خُلقا لإنتاج الخير ، إذ هما عاملا دفاع أى أنهما سلبيان ، وليسا عاملى إنتاج ، أى أنهما ليسا إيجابيين . لهذا فلست بمجاريتك فيما تذهب إليه من حِجاج ، بل سأكتفى بأن أدعك وشأنك — ما دمت حريصاً على أن تدرك كلّ شىء بالتجربة والعيان — تنساق وراء مغالطاتك .

فأجبت : على كل حالٍ نحن نستطيع أن نقف عند نقطة أظن أننا متفقان عليها ، هى أنه يجب ألا ننظر إلى بنات الهوى على أنهن بِدْع بين البشر ، وأنهن وحدهن بنات الخطايا

والآخرين أناس أخيار . فالشر أعدل الأشياء قسمةً بين الناس . وعلينا أن نعاملهن برفق ، أو ننظر جديًّا فى أمرهن حتى لا ندعهن منبوذات من المجتمع ، يُكتفى بأن يُدمَغن بالاسم الذى يطلق عليهن حتى يُحسبن نوعاً من البرص الذى يجب تجنبه تجنباً تاماً . إنهن جديرات بالعطف والرثاء شأنهن شأن بقية بنى الإنسان . وليس خليقاً بنا أن نكتفى بنعتهن بما نشاء من الأوصاف أو بإلقاء المواعظ والخطب الطوال عليهن ، كيما نكون أدينا واجبنا حيال أخواتنا هؤلاء من بنات البشر ؛ بل يجب علينا أن نتلمس علاجاً لحالتهن ، علاجاً صادراً عن طبيعة الأشياء والأحياء ، وليس مجرد كلمات رنانة لا فائدة فيها ولا غَناء .

وتغلبتُ ، أنا العقل الداهية ، على نفسى البريئة الساذجة . فأمضيت نيتى على القيام بتلك التجربة .

وهنا كان البرنامج قد انتهى ، وبانتهائه يبدأ عمل بنات الهوى . فقد كُنّ خلاله مقتصرات على الانتثار ها هنا وهناك ، مُرسِلات نظرات باسمات داعيات إلى الحاضرين ممن يتوسمن فيهم سمانة المال وفراغ البال وسذاجة القلب إلى درجة الغِرّة . أما الفتيان الذين عركتهم حيل هؤلاء الماكرات فينأين عنهم لأنهم إن لم يكونوا هم الصائدين فإنهم على الأقل فرائس مهزولة عسيرة الهضم محفوفة بكثير من المخاطر . فإن استطعن خلال العرض أن يظفرن بواحد من أولئك الأغرار فبها ونِعمَتِ ، وإلا انتظرن حتى يفرُغ أصحاب الرقص واللهو ويبدأ رقص الجمهور ، فتغيثهن موسيقى الجاز بما لها من تأثير أحمر شهوانى ، فتجَدّل لهن فرائس تلو فرائس . وانطلقت موسيقى الجاز تطارد الفرائس التى لم يتمّ صيدُها بعدُ ، وبناتُ الهوى يَشْحَذْن أسلحتهن ويحطن جميعا بأولئك المساكين حِياشةً لهم إلى مهاوى الهوى المغتصب . فيتنقلن بين الموائد ويتحدثن إلى الفتيان المحنّكين المعروفين لهن ويطلقن لهن ضَحكات عاليات يردن بها استثارة الأغرار بلفت أنظارهم إليهن ؛ وما من عِلّة لهذا الضحك إلا أن يكون وسيلة للاغراء .

وجاست فتاتنا خلال الممرات بين الموائد لأنها لم تكن قد ظفرت بصيد بعدُ : ضاحكة محتكة بذاك ، سائلة من تعرف ومن لا تعرف لفافة من التّبْغ أو قطعة من الحلوى كيما تكون هذه وسيلة لبدء الحديث بينهما . بيد أن هؤلاء الذين تحدثَتْ إليهم كانوا من الفتيان المحنكين فلم تَحْلُ منهم جميعاً بطائل . ومن ثمّ عادت أدراجها إلى الدَّرَج العالى ذى التقاسيم ،

لكنها هذه المرة أخذت جانباً آخر لعل الصيد أن يكون فيه أسعد حظاً منه فى ذلك الجانب الأول .

جلستْ إلى مائدتها وانتظرت بعد أن أرهقها التنقل فى غير جدوى واكتفت بالنظرات ترسل سهامها المطلية بالإغراء والحقد معاً ، تدفعها من عينيها الكليلة بقوة سخطها على نفسها وعلى الدنيا والناس . لكن هذه السهام كانت دائماً ترتد إلى صدرها . يا ويلتاه ! لقد مضى من الليل شَطره الأكبر وها هى ذى لم تظفر ليلتَها بشىء ! لقد كانت تنظر إلى الجالسين بين الحين والحين نظرات مفترسة تود لو أنها عصفت بهم وتود لو أنها كانت من أفتك البارود حتى تقضى على هؤلاء الذين لم يكترثوا لها ، وهى التى ملأت نفسها بالآمال والظنون تحت تأثير تلك الكلمات الزائفة السمجة المملولة التى يرددها على مسامعها روّاد الهوى الأثيم ، والمبتدئون منهم خاصة . أجل ! لقد كان صديد السخيمة يتحلب من فمها وعينها اليمنى وجبينها المتغضِّن ؛ وكانت رِعدة الحَنَق تتردد فى ساقيها فتهتزان هزات عصبية سريعة حتى كادت أن تضرب الأرض برجليها .

هنالك ثارت فى نفسى عاطفة الشفقة من جديد . وكانت العوامل السالفة قد أحدثت تأثيرها كله ، فلم يعد لى قِبَل بالتمنع والارتداع . فقررت لفورى أن أجلس معها . لكن ما السبيل إلى هذا وكيف لى به أنا الخجول الذى لم أجرّب شيئاً كهذا من قبل ؟ فسألت أحد أصدقائى الجالسين إلى جوارى العونَ ، وكان ممن صاروا مُضْغة فى أفواه المراقص كلها : فهو يقضى الليل طوله متردداً بينها ، وقد يمر بالأربعة أو الخمسة منها فى الليلة الواحدة ، تدفعه إلى هذا غريزة التهتك الكالح فى غير ما وازع من حياء أو اعتكاف ؛ أو إن شئت فقل إن نفسه قد أصابها من الملال لفرط التنقل بين بنات الهوى والمراقص ما جعلها تعانى نوعاً من الاضطهاد الذاتى يشعرها بلذة خاصة أجل ما فيها شدة تعذيبها وإيلامها لصاحبها .

وما سألته ذلك السؤال حتى انهال علىّ هو الآخر بالمواعظ الطوال يحشد فيها ألوانا من التحذير الممزوج بالتغرير ، منذراً إياى بالويل والثبور وعظائم الأمور . فقلت له إنى قدرت وأفكرت ، ولا داعى لخطبك المنبرية هاتيك وقد كان الأولى بها نفسك . والحق أنه كان يشعر وهو يحدثنى هذا الحديث بشىء من الاعتداد والشعور بالاستعلاء ، وكأنه يقول لى : هذا فن عويص لا يحسنه إلا المهرة الراسخون فى العلم بالحياة وما فيها من معارك قاسية ،

فلا قِبَل لك به أيها الغر الساذج ! دعه لأمثالنا من الخبراء بالدنيا والناس ، ولعلك لا تدرى أية قوة هائلة و بطولة بارزة بذلتها فى هذا الميدان ، فمن الغرور إذاً أن تخاطر بنفسك فى هذا البحر المتلاطم الذى لا يجيد السباحة فيه إلا نفر من أكابر المستبطنين لدخائل الحياة .

فلم تكن إذاً الرغبة فى النصح الصادق هى التى أملت عليه مواعظه المجوجة ، بل الكبرياء والاستعلاء اللذان يدفعان إلى استكثار المشاركة على الآخرين ، وكأنه ميدان مقصور عليه وعلى النادرين من أمثاله . ومن شأن هذا أن يدفع الموعوظين إلى حركة رد فعل قوية ضد ذلك التعالى الكالح تغذيها روح المنافسة المشوبة بروح المناقضة ، فتكون النتيجة على عكس ما قصد أولئك الوعاظ . ولعلك لو فتشت فى نفسى وقتئذ لوجدت ذلك الدافع من بين تلك الدوافع التى جعلتنى أزداد حرصاً على أن يتوسط هو لى فى التعرف إليها ، ثم على القيام بتجربتى معها . فلما رأى هذا الإصرار منى التمظ بشفتيه وقلَّب كفَّه باسماً آسفاً ، راضياً مع هذا فى قرارة نفسه ، لأنه يريد أن يسخر من ذلك الفتى الساذج الذى ظن فى نفسه القدرة على السباحة فى ذلك المعترك الصاخب وسيرتد عليه غروره هذا فيصير أضحوكة جديرة بالتندر فيما بين الأصدقاء ؛ فلماذا لا ندعه يغامر حتى يكون موضوعاً للعبث بيننا ، خصوصا ونحن لا نجد مادة للتندر والفكاهة ؟ ! هكذا قال فى نفسه ، ثم قال لى : ليكن ، وأمرُك لله !

إيه أيتها اللحظة الرهيبة التى امتلأ بها مصيرى ! أ كنتِ مكتوبة فى لوح مقدورى ، أم كنت وليدة اتفاق يلهو كما يهوى ؟ ليخيل إلى المرء أن مثل هذه اللحظات إنما أرادتها عناية عليا ، لأن النتائج الضخمة التى تترتب عليها توحى بأنه من غير المعقول أو المقبول أن يكون مصير الإنسان فريسة لأشد أنواع الصدفة نزاءً وتقلبا . لكن أين وجه الصواب فى هذا التوهم الذى يصدر فى أغلبه عن أمنية للنفس لا عن تصور صادق لطبيعة الحياة والوجود ؟ إن كان ثمت نظام وعناية ، فكيف يكون فى وسع لحظة واحدة أن تحتمل مسئولية أحداث هائلة تكوّن مصيراً كاملا ؟ إن هذا التصوير للعلّية فى الحياة الإنسانية نيشبه القول بأن الأرض كلها محمولة على قرن ثور . بيد أن مثل هذا النوع من عدم التناسب بين العلة والمعلول يدعو إلى القول بأن هذا التصوير فاسد ما فى ذلك ريب .

قل إذاً إنه الاتفاق — هذا الإله الأكبر المسيطر على الكون كله — هو الذى رمانى

بتلك اللحظة المريعة التى عرفت فيها هذه الفتاة .

جلستُ إليها وما دريت كيف أبدأ معها الحديث : فكانت نظرات فيها دهشة وخجل منى ، وفيها سخرية وإغراء منها ؛ حتى غلَبَتُ الحياء فى نفسى ورحت أحدثها عن الأرقام التى رقصت وغنت ، وتنقلت معها إلى الرقص والغناء حيث رأيته فى أوْجه فى إيطاليا والنمسا ، معرّجاً على السينمائيات الحديثة التى عرضت فى الأيام والسنوات الأخيرة . وما كنت أدرى أتفهم عنى ما أقول ، أم لا تعى منه شيئاً ، لكننى كنت أراها تلوّح بنظرات موافقة خيل إلىّ أنها تتصل بحديثى وإياها ، ويعلم الله إلى أى هدف آخر غيرى كانت تصوبها فى نفس الآن الذى تجالسنى فيه : لكنها البراءة الساذجة تحملنى على أن أنظر إلى الأفعال والأقوال من جانبها الوردى الزاهى .

وما مهدنا بهذه الأحاديث العامة حتى انتقلنا إلى الشئون الخاصة فسألتنى أمرى فلم أصارحها إلا بالقليل ، وسألتها أمرها فراحت تحاور وتداور ؛ لكنى أظهرت شدة رغبتى فى أن أتعرّف إليها لعل فى حياتها من الأحداث الشائقة ما يكون مادة خصبة لدراسة النفس الإنسانية ، وفى خلال هذا الحديث الطويل كانت تتبدّى لى فى شىء كثير من البراءة وكأنها مَلَك دفعه شيطان خبيث من عِلّيين فهوى إلى الأرض ؛ وما باختياره تردّى فى هذه الحمأة من الشر .

وكانت بسبيل أن تقص علىّ شيئاً مما دعته ماضيها حينما دخل المرقص صديق لى لم أكن أتوقع مجيئه فى ذلك المكان ، وما كان هو ليتوقع مجيئى إليه ، فما بالك بالجلوس إلى مثل هذه الفتاة ! لهذا استولى الاضطراب على نفسى وتحلّب العَرَق من جبينى ، وأدرت وجهى عُرْض الحائط ألتمس له مهرباً ولات حين مناص ! فاستنبأتنى عن حالى هذه والسر فيها ، فعييت بالجواب واكتفيت بإنكار أن ثمت شيئاً ؛ لكنها وجدت أذنى أبعد ما تكون عن لسانها ، وأخيراً فهمت السر فى اضطرابى ، فسألتنى أن تغادرنى ، وبعد تأبٍّ منى تركتها بعد أن تواعدنا اليومَ التالى نلتقى فيه .

وأشهد أنها أثرت بحديثها فى نفسى إلى حد بعيد . فهذه البراءة المسكينة التى تبدت فى حديثها عن نفسها وماضيها ، أين منها هذه الصورة القاسية لبنات الهوى كما رسمها لى الناس : ألوانها هى الخسة والخداع والقسوة والشر الغريزى ؟ وهذه الضحية الشهيدة كما رسمت

نفسها ، أين منها ذلك الجلاد المفترس أو الغول الكاسر الذى يفتك ببنى الإنسان كما حدثنى الأصدقاء عن حالهن ؟ وهذه الظروف التى دفعت بها إلى هاوية الرذيلة ، أين منها تلك الطهارة الفطرية التى دمغ الناس بها هؤلاء البائسات ؟ لقد كانت الدموع تتواثب فى عينيها — فيما تراءى لى آنذاك — وهى تشير من بعيد إلى الحياة التى تحياها هى وأمثالها من الشهيدات المنبوذات من المجتمع ؛ وكانت الصرخات الصامتة تتدافع عند الشفاه فى النبرة الحزينة التى تتحدث بها وهى تحاول أن تلقى بإيماءة بعيدة إلى ماضيها والظروف التى أخذتها بالإثم ودفعتها إلى حِضْن الرذيلة .

أفلم يكن هذا كله خليقاً بأن يدفعنى إلى الرثاء لحالها والعطف عليها ، وأن يثير فى عقلى حب استطلاع غريب لزيادة العلم بالطبائع الإنسانية بتعرف هذا الفريق — المنبوذ — منها ؟

لهذا ازداد اقتناعى بصواب رأيى فيما عزمت عليه من القيام بهذه التجربة ؛ فلما عُدْتُ أدراجى إلى منزلى فى تلك الليلة بقيت أُجيلُ الخواطر فى هذا الاتجاه ولم تَسْرِ فى نفسى شائعة ندم أياً كان نوعه على ما فعلت ؛ بل بالعكس ، تأكد يقينى بضرورة الاستمرار فى التجربة حتى نهايتها .

فنمت تلك الليلة ملء جفونى شاعراً بسرور كأننى اكتشفت قارة جديدة فى دنيا النفس الإنسانية .

ما أنجزت الفتاة فى اليوم التالى وعدها ، بل تركتنى حيث تواعدنا أضرب الفروض على الفروض ساعات طوالا لم تنته إلا حين أعلن النُدُل أن قد حان موعد الإغلاق .

كان المكان ضيقاً والحرارة قد بلغت درجة عالية فى ذلك اليوم من شهر أيّار ، فحاولت أن أسرّى عن نفسى فى الدقائق الأولى بالنظر إلى فتاة كانت تجلس مع ضابط بريطانى ، وكان الحديث بينهما أقرب ما يكون إلى الهمس . كان يبدو على محياهما أنهما لم يتعارفا إلا منذ لحظات قصار ، لأن كليهما كان يتأمل قَسِمات الآخر فى شىء من حب الاستطلاع المشدوه ، وإن كان هذا أظهرَ عند الرجل منه عند الفتاة التى كانت تلبس فستاناً أحمر مشجّراً اتسع نصفه الأسفل كأنه المظلة أو الناقوس ، وبه ثنايا واسعة كانت الملاذ الفسيح لنظرات ذلك الضابط الحائرة . وكان يفوح من تحت إبطيها رائحة تعبَق بالشهوة الجنسية ، سرعان ما تتصاعد على هيئة أبخرة كثيفة فاغمة العطر الجنسى فتملأ أنف مُجالِسها ، فيصاب بدُوار شَبِق تجلّى فى سهوم وجهه وارتهاك مفاصله وحرارة الزفرات التى كان يبعثها من ثمه رغماً عنه .

— أين يقيم أهلُك يا توم ؛ هكذا بدأتْ الحديث .

— فى مكان قصىٍّ فى شمال اسكتلند .

— وهل تستطيع أن تدلنى عليه فى مصوّر جغرافى ؟

— إنه من الصغر بحيث لا تستطيع المصوّرات العادية أن تشير إليه . وفى جيبى مصوّر قد يعينك على معرفة إقليمه .

وهنا أخرج المصوّر وأشار إلى الإقليم بحركة سريعة من إصْبَعه . فتظاهرت بأنها لم تعرف مكانه بعدُ وسألته أن يضع إصبعها عليه . فهمّ بلمس يدها برفق شديد حتى لامست كفه بشدة وقالت :

ما أجمل أصابعك ، على الرغم مما فيهما من ثنيات وتجاعيد ! وهذه الأظافر لماذا تركتها تطول هكذا ؟ أو بالأحرى هذا هو سر جمال بنانك ، وبودى لو طالت أظافرى إلى هـذا

الحد . لقد حاولت الكثير فى هذا السبيل فذهبت إلى أبرع المُفتَنّين فى الزينة كما أظفر بأجمل المخالب ، لكن دون جدوى تذكر . وأنت ، ألا تعرف رجلا ماهراً فى هذه الصناعة ؟

— أعرف فى بلادنا معاهد ممتازة فى هذا الفن .

— حقاً ، حقاً ؟! لا بد أن تكون بلادكم جميلة يجد المرء فيها كلَّ بغية . أوه ! بودى لو رأيت تلك البلاد ! لكن ما السبيل إلى هذا ؟ هيهات ! هيهات !

— يمكن أن تتحقق لك هذه الرغبة يوماً ما .

— كلا ، بل هذا بعيد . فمن عسى أن يأخذنى إليها ؟ قالت هذا وأنغضت رأسها ثم صاحت :

— أوه ! ولكنك نسيت أن تدلنى على موقع بلدك أو منزلك إن استطعت . ثم ابتسمت وأشارت بمُؤْخِرِ عينها اليسرى .

— هذا هو الموقع تقريباً . لكن ها هى ذى بعض الصور القليلة التى تعطيك فكرة عنها أكثر وضوحاً .

وأخرج ثلاث صور من حافظته وأراها إياها ، فأقبلت عليها بنظرات لهيفة ، ثم صاحت :

— ما أجمل هذا الموقع ! أيتيسر لمثلى أن تقطن مكاناً بديعاً كهذا ؟ هيهات ! هيهات !

فالتزم الصمت . لكنها عادت فقالت :

— وأبواك ، أيقيمان وحدهما فى هذا المنزل ؟ لابد أن يكونا زوجين سعيدين ؟ قالت هذا وقد وضعت كفها فى كفه وشدت عليها بحرارة .

هنالك بدأ الفتى يتنبه إلى الأحبولة التى تنصبها له هذه الفتاة الماكرة . وهاله أن تحاول الفتاة عقد صفقة تجارية بضاعتها المُزجاة كلمات رخيصة جفتها روح الإخلاص ؛ فأنشأ يأخذ حِذْره فيجيبها بألفاظ مقتضبة لا تستطيع هى أن تحلو منها بأمنيتها المنشودة . وكلما تراجع هو ازدادت حرصاً على مطاردته .

عند هذا انصرفتُ عن الإصغاء إليهما — وقد كلفنى جهداً شديداً — إلى حالى أنا ، محاولا أن أستخلص العبرة من هذا الحادث الطارئ .

قلت لنفسى : أهذه طبيعة المرأة ؟ أهى لا تعرف العاطفة إلا كوسيلة لغاية مادية ؟ أهى لا تفيض بشعور جميل إلا إذا قبضت الثمن مقدماً : إما نقداً أو وعداً إلى أجل محدود ؟

ولماذا تنظر إلى الرجل هذه النظرة ، بينما هو ينشد منها العاطفة الخالصة أولاً ، ولو استطاع لا كتفى بها ؟ ألأن هذا الشعور لا يقوم إلا فى جانب واحد ، هو جانب الرجل ، بينما المرأة لا تشعر بالحب المجرد ولا تستسيغه بغريزتها ؟ وهل هذا هو السبب فى أن الغَيْرة عند المرأة أكبر منها عند الرجل ، لأن الحب واسع بطبعه ، بينما الغَيْرة أَثِرة لأنها حب سيطرت عليه فكرة المِلكية فأفسدت جوهره الصافى ؟

فقالت لى نفسى : أوه ! تباً لهذا الغرور الزائف الذى يصوّر لكم ، معشر الرجال ، أنكم وحدكم الأطهار الأبرار ، بينما غيركم فجار أشرار ! فكثيرات هن النسوة اللائى تركن الجاه والثراء وضربن بهما عُرْض الحائط من أجل عاطفة خالصة قد تكلفهن أفدح التضحيات دون أن ينتظرن من وراء هذا كله شيئاً . وكثيرهم الرجال الذين لا يطلبون المرأة إلا لتحقيق مآرب بينها وبين الحب والعاطفة مراحل طويلة . فما بالك تتجافى عن الإنصاف ؟

— أنا إنما أتحدث عن الجمهور الأعظم من كلا الفريقين ؛ أما ماتذكرينه فشواذ ، إن قلتُ إنها تؤيد القاعدة لم أتجاوز طور الحق .

— أراك قد عُدْتَ إلى دائك القديم ، داء السفسطة والبرهنة العقلية المتعسفة بأى ثمن . وإلا فحدثنى لما ذا تأخرتْ صاحبتك عن ميعادها ، ولو كان الأمر كما تحسَب ، لما تركَتْ هى هذه الفرصة تمرّ ، مع أنها واثقة بأنها تستطيع أن تعقد معك صفقة جيدة . أليست هى الزاهدة وأنت المتصابى ؟ والزهد هو — كما تعلم — والتجرد فى العواطف صنوان .

— أأنتِ على هذه الحال من السذاجة ، فتندّ عنك حيلتُها المكشوفة ؟ إنها لا تتظاهر بالزهد إلا لتكون فى قمة الطمع . وعما قريب سترين حرصها الفاغر وستألفين منها الكثير من الأحابيل .

وأنقذتُ نفسى من هذا الحوار بأن اتجهت ببصرى مرة أخرى ناحية صاحبينا ، فألفيت الصمت قد سلك سبيله بينهما ، كما كانا قبل بدء الحديث ؛ ووجدت الفتاة تخالسه نظرات تجلى فيها نوع من الغيظ المتوثب ، سَرْعان مايرتد على الشفاه فيصور فيهما حركةً لسانُ حالها يقول : ومع هذا سأعرف كيف أظفر ببغيتى منك وأدعك ألعوبة فى يدى . أما هو فقد بدا هادئاً لا يحفل كثيراً بما يجول بخاطر الفتاة ، وقد كان يبدو على علمٍ به ؛ لكن يظهر أنه كان من الفطنة بحيث يدعها وأفكارَها تصنع بها ما تشاء . فشاقنى من الرجل هذا

الموقف الذى كان خليطاً من عدم الاكتراث والمكر معاً ؛ وظللت أتابع ملامحه ببصرى وتود نفسى لو ازدادت به علماً .

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنُّدُل يغدون ويروحون وهم يتظاهرون بإصلاح ترتيب الموائد ؛ ثم رفعوا أغطيتها واحدة بعد أخرى حتى بلغوا صاحبينا فنهضا لفورهما . فسألت أحد الندل عن موعد الإغلاق ، فأجاب قائلا : إنه مضى . فنهضت أنا الآخر وعدت أسلك طريقى خائب الميعاد .

***

وكان من عادتى أن أرتاد فى بعض الأماسى من كل أسبوع مقهى متوسط الموقع من المدينة ، ومع هذا فقد حاول صاحبه أن يضفى عليه طابعاً ريفياً حتى ينال من هذا التعارض بين معمعان المدينة وبين منظر الريف طرافة تحبب إليه الناس . وكان رُوّاده يرتاحون إلى هذا الوهم الجميل فيخيل إليهم أن فى ارتياده ما يغنى عن نشدان الطقس البديع فى ظاهر الريف المحيط بالمدينة . ولقد كان لهم بعض العذر حقاً فى الانسياق قليلا فى هذا الوهم ، لأن المقهى قد بنى على هيئة صُفّــة ذات جناحين بينهما فسحة من الأرض نضِّدت فيها الموائد والكراسى ، وعلتها عرائش من الأشجار الزاحفة أمسكت بها حبال ممتدة بين أطراف الحديقة . أما أحد الجناحين فمصنوع من الخشب البُنِّى وفى وسطه شجرة من الجُمَّيز البنغالى باسقة الأغصان قد امتدت أطراف فروعها إلى أسفل فكونت أجَمة صغيرة تفصل المكان وتصّاعد إلى السقف الهرمى فتشقه وتنفذ من خلاله إلى عنان السماء ، لكنها سرعان ما تذكر أنها فى داخل المدينة وليست فى الفضاء الطلق فتخفض أجنحتها على هيئة مظلة وارفة الظلال يسكن إليها اللاغبون فى الحر القاسى إبان الصيف المتقد اللاهث .

بعد يومين من ميعادى الضائع ذهبتُ إلى مقهاى هذا ، واتخذت مجلسى فى الزاوية المعهودة التى كنت أستشرف منها إلى الوافدين والوافدات . وهؤلاء كن فى الغالب فتيات من مختلف الأجناس ، ومنهن من ظفرن بخلاصة الجمال فى كل جنس : فجمعن شُقْرة الشعور وزرقة العيون إلى كُمْتة البَشَرة وسَمَن الشفاه وحرارة الدماء ، هذا إلى خدود قانية ترددت بين الأسالة والاستدارة المليئة فضمت أحلام الأولى إلى شهوة الثانية . وكانت هذه الوفود الفاتنة لا ينقطع مددها منذ الأصيل حتى موعد الإغلاق ، فكانت تكوّن معرضا ساحراً يشبع العيون اللاهيفة لشباب ضُرِب عليه الحِرْمان . ولقد كان لهؤلاء مندوحة عن الوقوف

عند إحدى هذه المعروضات المغرية ، لأن تنوّعهن وسرعة عبورهن لم يكونا يسمحان بالوقوف عند إحداهن . لكن كان من بينهن فريق دائم الترداد ، وأشهد أننى كنت فى مكانى ذاك أملّى العين والإحساس كله بالتطلع إليهن ، وعلى الأخص فتاتين كانتا تجلسان سوياً فى جمع من الأهل والأصدقاء : أما إحداهن فكانت هى الحركة بعينها : عيون باسمة لا تكاد تستقر لحظة فى محاجرها ، ونهود بارزة يتماوج بها الصدر فى اضطراب وغليان ، وسيقان تشع منها أطياف الشهوة لا تلبث الواحدة أن توضع على الأخرى حتى تُبادِلها الأخرى الوضعَ ، كل هذا بحركة كهربية سريعة ، كانت تتظاهر خلالها بجذب ثوبها حتى يغطى كل ركبتها ، وهى فى الواقع إنما تنبه العيون الشبِقة إلى مُنْفَرَج فخذيها ، كما يبدو من النظرة الخفيضة — حياء فى الظاهر — التى ترافق هذه الحركة ؛ ولا تسل عن العطر الفاغم الذى كان ينبعث من كل كيانها ، تكاد أن تراه بعينيك كالأبخرة المتصاعدة من ماء يغلى وإن لم تكن قد تعطرت فعلا ، لكن هكذا يخيل إليك . أما الأخرى فعلى النقيض تماماً : هدوء راسخ كهدوء الماء فى أعماق المحيط ؛ وكان هذا يتجلى خصوصاً حينما تلبس فستاناً أزرق ، وكثيراً ما كانت تفعل ، فتستحيل تماماً إلى بحر لُجِّىٍ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ ، لولا هذا الوجه الناصع البياض الذى يذكرك بأنك بإزاء إنسان حى لا بإزاء كائن جمادى ؛ ولولا هذه الخدود المستديرة الناتئة كأنها قمم من الثلج انطبعت عليها إشراقة الشمس فى الصباح الباكر . لكن ما تلبث العيون أن تعود بك إلى العمق الصامت الذى يجلل موكب بدنها : عيون من الظل كل نظراتها إلى باطن ، لهذا لا تكاد ترنو إليها حتى تأخذ بك إلى أعماق نفسها ونفسك فتلتقيا فى السراديب الخفية ذات الأسرار الكونية . كل ما فى الأولى يصّاعد بك إلى سطح الحياة حيث فرحة الدنيا فى إشراقة الفجر ؛ وكل ما فى الثانية يهوِى بك إلى الينبوع المجهول الذى تصدر عنه جداول العواطف الخالدة .

كم كان عذباً إذاً ، وكم كان مثيراً أن أقبع مترصِّداً على كرسِيِ الخشبى ذى المقعد المجدول من سيورٍ من الجلد ، وأتأمل هاتين الفتاتين ! لقد كنت مترجِّحاً فى نظراتى النهمة بين كلتيهما ، لا أكاد أستقر ببصرى عند إحداهما حتى أرتدّ إلى الأخرى كأننى كُرة تتبادلها أكفهما الناعمة : فأبدأ بالنظر إلى الثانية ، حتى إذا ما أرهقنى هدوؤها الراسخ وعمقها الجاثم انتقلتُ إلى الأولى فخففت عندها هـذا العبء الانفعالى وأفرغتُ على وجهها تلك الشحنة

العاطفية الباطنة التى ملأتنى بها الأخرى .

كلُّ هذه أحْساس وعواطف كنت أتلقاها فأمتّع نفسى بها دون أن أركزها عند نقطة خاصة أو أردها إلى مصدر واحد فى نفسى أو أوجهها إلى ناحية أو غاية كالحب والتعلق بإحداها . إذ كنت سلبياً ، قابلا لا فاعلا ، إلى أبعد حد ، وما أذكر أننى فكرت بجدٍّ فى شىء يسمى عاطفة الغرام نحوهما ؛ بل كنت قانعاً بهذه المتعة الوديعة . ولعلّى لو فتشتُ عن السر فى هذا لوجدته فى بقاء عاطفة غرامى الأكبر هى هى على حالها ؛ فلو أنى فكرت فى غرام آخر ، لقد كنت أكون حينئذ متجانفاً لإثم وخيانة لم يكن ثمت ما يدعو بعد إليهما . فقد كان يمكن أن يقوم لى العذر لو كانت هذه التجربة جديدة إن فى نوعها أو فى موضوعها ؛ أما وهى على ما ذكرت ، فلا مدعاة لها ، وأقصد بالموضوع اختلاف النموذج الإنسانى . بل لعلّى قد نشدت فيهما ما يذكرنى بمهوى فؤادى ، فيكون فى هذا ما يزيد من حرارة غرامى نحوها ويذكيه ، وكأنى بتأملهما إنما أحْضأ نار الحب حينما تهدد بالخمود والانطفاء .

قلت إنى عُدْت بعد يومين من ميعادى الضائع إلى هذا الركن المتين ، وطوّفت بذهنى وخيالى فى الممالك المفقودة لغرامى العليل ، بينما كنت أستعرض هذه الوجوه الزاهية والأجسام الناعمة التى تتوالى وفودها حوالىّ . وكانت العصافير البديعة تسقسق فوق رأسى بعد أن أوت إلى أفنانها فى شجرة الجميز البنغالى وأشعةُ الشمس المُطْفِلِ تتراقص على خدود الغادات الجالسات حول الموائد فى وسط الحديقة ، فتضفى على حمرة الشفاه أنواراً زاهية سرعان ما تحيلها إلى جَذَوات ملتهبة ، وبخاصة الشفاه الدَّسِمة . وبينا أنا على هذه الحال ، أقبلت صاحبتى ذات الميعاد الضائع وهى فى رفقة تلك المغنية الإيطالية التى حدثتك عنها فى المستهلّ وكانت تغنى مع موسيقى الجاز . ولَمْ يكادا يجلسان حتى أتاهما رجلٌ استحار شبابُه فاستأذنهما فى الجلوس معهما وأُجيب . كانت عينا صاحبتى مصوبتين ذات اليمين وذات الشمال . بحثاً عماذا ؟ عن صيد نفيس فى هذا المكان الذى عُرِف روّاده بسعة الثراء والبسطة فى الإنفاق . وكنت أنا فى زاويتى منحرفاً عن زاوية إبصارها ، فاستبدلت بمكانى آخر يهيىء لها أن ترانى فيه . وسرعان ما لمحتنى ، وتبادلنا نظرتين ضاحكتين : فيها عتاب منى ، وفيها عبث وسخرية من جانبها مع تلاعبِ مُغْرٍ جذاب . وبقينا على هذه الحال ساعة أو تزيد ، هى تنظر إلىّ من حين إلى حين عن عُرُضٍ وهى تبتسم متظاهرة بأنها تضحك من الحديث الذى كان يجرى

بين رفيقتها وجليسهما وكأنها لا تلقى بيالها إلىَّ ، وأنا أتابع النظر مفكراً فيما يخلق بى عمله : أأدعها تذهب إلى الشيطان وكأن ما قد بدأ بيننا لم يكن إلا إزجاء لوقت ثقيل فرضت عليها مهنتها أن تقضيه معى لقاء دراهم معدودات ، أم أجاهد مرة أخرى وأتابع التجربة ؟ لقد كانت عزيمتى على القيام بهذه التجربة من الثبات بحيث لا تزعزعها هذه المضايقات البسيطة : من خُلْف أول ميعاد وعدم اعتذار ، فآليت أن أستمر على الرغم مما احتملتَه أنفَق المعهودة فى سبيل هذا من خدش واضطراب . وانتظرت حتى آذَنت بالانصراف مع رفيقتها فتتبعت طريق خروجها بنظراتى ، فوجدتها بعد خطوتين توقفت وكأنها تريد أن تصلح من شأنها وشأن هندامها ، بينما سبقتها الأخرى بعشرات الخطوات . فقلت فى نفسى : لا بد أن تكون هذه إشارة لى باللحاق بها . وصدق ما حَسِبت ، فبدأتنى بالحديث حين وقفت أمامها وجهاً لوجه وراحت تلقى معذرة طويلة عن ضياع ذلك الميعاد ؛ ولم أدعها تطيل فقد ضربت عن هذا صفحاً جميلا وتواعدنا مكاناً آخر فى ضاحية بديعة تبعد عن المدينة بمسافة ليست قصيرة ، وحسبنا للزمان حسابه ، فكان الموعد ظهراً : نجتمع أولا فى ذلك المقهى المعتاد ، ثم نمضى منه بالسيارة إلى تلك الضاحية القائمة عند الهرم ، على أن نقضى النهار طوله وشطراً من الليل إلى أن يحين وقت ذهابها إلى عملها الليلى فى مرقصها .

وفى هذه المرة صدقَتْ المجىء وإن لم تصدق الوقت المحدد : فقد تأخرت قرابة الساعتين. وانطلقنا بالسيارة فى طريق فسيح بديع تناثرت على طوله بيوت خاصة كلها أنيقة فى مظهرها الخارجى ، وإن كان الذوق الفنى يعوز أغلبها : فلم تُبْنَ على طراز واحد ولا متشابه ، بل جاءت أخلاطاً متنافرة من الطراز المصرى القديم ، والطراز الإيطالى ذى الأشكال الأُسطوانية أو المستديرة ، وبينها تنويعات مختلفة من الطراز العربى والطراز الفرنسى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والطراز الإنجليزى العتيق . وما هذا الخليط إلا تعبير عن روح الخلط التى تحيا بها مصر فى هذا العصر المضطرب : فهى برج بابل اليومَ فى كل شىء : فى الثقافة والسياسة والفن والصناعة والعادات والأزياء . فلا شخصية تكون المرجع على اختلاف المظاهر وتعددها ، ولا مركز للإشعاع تخرج عنه هذه الألوف العديدة من التعبير عن الذاتية ، إنما هو العماء الذى يسبق الخَلْق والخليط الذى يسبق التركيب العضوى . وما أنا على هذا الخلط بالزارى ولا اللائم : فما هو إلا نتيجة الهِزّة التى تسبق فعل الخلق وتُفضى إليه .

وكم كان رائعاً أن يرى المرء حوله على طول الطريق أشجار النخيل وهن قائمات صامتات قانتات فى هذا القيظ اللافح ! كان يعلوهن وقارُ العابد الساجد وهو قائم يصلى فى المحراب حتى ليخيل إليك أنهن من فرط الوجد قد صِرْنَ دُمًى بوذية ، لولا أن أشعة الشمس كانت أحياناً تتألق على خُوص السَّعف فتخرج المنظر عن شىء من صمته ، حتى إذا ما استقرت عليه طويلا عاد النخيل إلى حاله من الوجد بإغراقه فى هذا اللون الذهبى الخاطف للبصر — مما يدفع بالنخيل إلى أبعد غايات الأحلام الزاهية البراقة . والحق أن هذا النخيـل هو خير ممثل للروح الشرقية السحرية المنطوية على نفسها فى كهفها المطلىّ بالذهب المموّه .

وبلغنا عند نهاية الطريق قبيل الهرم فندقاً ضخماً بُنِىَ على طراز عربى كيما يستهوى بهذا الطراز رواده من السائحين الوافدين عليه من شتى بقاع العالم . وكان شاذًّا أن تجد هذا الطراز العربى فى بقعة كلها مصرية قديمة : لـكنه الاضطراب وفقدان الذوق الفنى قد أطارا عقول أصحابه فأقاموه على هذا الطراز الغريب فى تلك المنطقة . وكانت الساعة قد جاوزت الثانية وآن موعد الغداء فدخلنا مطعم الفندق نتناول تلك الوجبة ، وما فرغنا منها حتى عدنا إلى بهو الفندق ، وهو بهو فسيح مستدير حاول معماره أن يجعله عربياً خالصاً على الرغم من أن المدخل فِرْعَوْنى — ولا تعجب بعد هذا لـكل ذلك الخلط ، فستجده فى كل مكان — فطُليت جدرانه السميكة بخطوط عريضة بعضها أحمر والآخر أبيض يميل إلى الصُّفْرة على التبادل ؛ وله بابان واسعان نصفهما الأعلى قوس عربى على هيئة نعل الحصان وإن كانت قمته تميل إلى شىء من الاحديداب ؛ وفى هذه الجدران خروق أو نوافذ كالمحاريب صغيرة كل الصغر ، يملأها زجاج مكون من قطع ذات ثلاثة ألوان : الأحمر والأخضر والأزرق ، وقد ينضم إليها الأصفر فى بعض المواضع . وعلى طول الجدران صُفَّت دواوين تغطيها الحشايا الناعمة والطنافس الوثيرة ، وبعض هذه الدواوين مرتفع والبعض الآخر منخفض تمس أرجلُ الجالس عليها الأرضَ . وعلى الرغم من سعة هذا البهو ، فإن ضوء الشمس المتألق فى الخارج لم يكن يدخل من تلك الخروق إلا بعد جهد جهيد ، وبعد أن يمر على هذه الألوان التى سرعان ما تعبث به عبثاً منكراً مريعاً حتى إنها لتحيله إلى ظل ظليل فيه خيوط وأطياف من الألوان الحمراء والخضراء والزرقاء والصفراء . فيولد هذا كله جواً غريباً يوحى بالأسرار فى داخل

هذا البهو ، وتحس بأنك فى كهف من الكهوف الجيرية ذات الاستلكتيتات والاستلجميتات ؛ خصوصاً والسقف المحلّق من فوقك قد تطلى بالأزرق القاتم فى قليل من الخطوط اللونية القاتمة الأخرى ، وعند منحدرات التقائه بالجدران شريط أحاط بالجدران كلها قد كتبت عليه آيات قرآنية ، قصد بها إلى الزينة طبعاً . فأشاع هذا روحاً دينية صوفية فى المكان كله ؛ وتدلّت منه ثريا فاخرة كانت بقضبانها البلورية تزيد المكان ازدهاء وتمويهاً .

من ذا الذى يجلس فى هذا المكان ولا يستسلم لأشد الأحلام إيغالا فى الطرواة والرخاوة !

وما أعذب النجوى فيه يتهامس بها عاشقان منهوكان !

لهذا سألت صاحبتى أن تقصّ علىّ بعض أمرها . فتأبّت . وكلما ازدادت إباء ازددت إلحافاً وتوسلاً وإغراء لها بحرصى مخلصاً على أن أعرف ماضيها وحياتها حتى أجد ، إن استطعت ، لها مخرجاً . وبعد تجاذب وتمنع يخالطه دلالٌ وتلامسٌ بين الأكف ومغاضنة بالعيون ، قبلت أن تقص شأنها على أن يكون سراً مقدساً بينها وبينى . ثم أنشأت تقول :

اعتراف سافطة

كنّا ثلاث فتيات جمع بيننا طلبُ العلم فى إحدى المدارس الثانوية فى ثغر من الثغور المصرية ؛ وكنا كواعب أتراباً تنتزى فينا قوى البلوغ ، لـكننا لم نـكن نعرف بعدُ من أمره شيئاً اللهم إلا عواطف خيالية جامحة كنا نقرأ عنها فى القصص التى بين أيدينا ، وهى قصص كنا نطلبها فى البدء لجمال أسلوبها كيا نفيد منه فى إتقان الإنشاء ، ثم ما لبثت أن صارت غذاءنا العاطفى فى دور المراهقة الذى كنا نجتازه فى ذلك الحين . وعلى الرغم من كل المضايقات التى كنا نلقاها من صغار الفتيان ونحن فى الطريق بين البيت والمدرسة ، فقد كنا لا نحفل بشىء منها . حتى إذا ما أتى الصيف وأقبلَتْ أفواج المصطافين تترى على ثغرنا ، كنا نمضى الأصائل البديعة على الطريق الطويل الممتد على طول ساحل البحر ، غاديات رائحات أحياناً وحدنا وأحياناً ينضم إلينا بعض لِداتنا من فتيات الحى أو المدرسة ؛ وفى الصباح نقضى الوقت سباحة فى البحر بين الأمواج الصاخبة ولعباً بالرمال على الشاطىء المنبسط . ثم انضم إلى ثلاثتنا فتاة رابعة كنا نسمع عن صداقاتها مع الفتيان ، لذا تجنبناها أول الأمر ، لـكنها ما لبثت أن ألحت علينا فى أن تشاركنا الرُّفقة ، وكانت ماكرة عذبة الحديث معسولة العبارات ، فـكانت بين الحين والحين تزج بنا فى حديث عن اللهو والرقص وما فيهما من متعة وفائدة : أما الفائدة فلأن الفتاة التى تجيد فنون اللهو وتتقن أنواع الرقص هى وحدها التى تستطيع أن تظفر بالزوج الممتاز ، لأنها بهذا تدخل المجتمع الواسع وتعرف عِلْية الشباب ، وما عليها بعد هذا إلا أن تنصب له الشِّباك حتى يقترن بها ، خصوصاً إن كانت من أصل متواضع أو متوسط — ونحن كنا على هذه الحال — ؛ وأما المتعة فهذه تاج يزين تلك الفائدة التى هى غاية كل فتاة . وكانت الفتاة الماكرة تحرص على توكيد الناحية الأولى — ناحية الفائدة — حتى تستطيع أن تنفذ بيسر إلى موضع الإقناع فى قلوبنا . ومن هى الفتاة التى لا تبذل كل شىء فى سبيل أن تظفر بالزوج الممتاز ! إن الأسر العالية نفسها تلجأ إلى سُبُل ملتوية كيا تحقق هذه الأمنية ، فما بالك بنا ونحن من أسر متواضعة ! وكانت تضرب لنا مختلف الأمثال وتسرد الشواهد من الأحوال المعروفة التى تؤيد رأيها : فهذه فتاة

فقيرة استطاعت أن تحمل شابا ثريا كل الثراء على الاقتران بها ، لأنها سلكت سبيلها إلى مقتله ، فلم يجد بُدّاً من الزواج منها ؛ وهذه ابنة موظف صغير أشاعت ذكرها فى محافل الشباب حتى لفتت إليها الأنظار ، وبحيلة من حيل النساء البارعة لم يجد أحد الفتيان من ذوى الحول والسلطان مناصاً من أن يبنى بها . وما قيمة الحياة بالنسبة إلى فتاة لا تستطيع أن تظفر بالزواج الموّفق ! إن النجاح فى الزواج بالنسبة إلى الفتاة لهو كالنجاح فى الحياة العامة بالنسبة إلى الشباب . فلماذا يجاهد الشباب فى سبيل الحياة العامة الممتازة ، ولا نجاهد نحن معشر الفتيات فى سبيل الحياة الزوجية الرفيعة ؟ ولماذا يسمح لهم باتخاذ السبل الملتوية من أجل تحقيق هذه الغاية ، ولا يسمح لنا نحن الفتيات ؟ أنترك أمرنا لآباء وأمهات ليس الشأن شأنهم ، فلا يحسنون القيام بتلك المهمة ، فنُترك هكذا تحت رحمة الصُدَف والمقادير ؟ لماذا يدع الآباء أبناءهم أحراراً فى شق طريقهم بأنفسهم حتى ينالوا بغيتهم فى الحياة الناجحة ، ولا يتركوننا نحن نفعل كالشباب ، بل يفرضون علينا العبودية وعدم العمل حتى تتداركنا رحمة الظروف والاتفاق ، وهيهات أن تتداركنا ؟ لماذا ينكر على الشباب القعود وعدم السعى فى مناكب الأرض لتحصيل الرزق ، ولا ينكر علينا هذا الانتظار العاجز الأليم ؟ كم من آباء تركوا بناتهم عوانس ، أى قضوا عليهن بالإعدام ، فضاعتْ حياتهن إلى غير رجعة ، ولو تركن وشأنهن يسعين لتحصيل غايتهن فلربما ظفرن بها ؛ وعلى كل حال فلماذا لا تترك لهن الفرصة كيما يجربن حظهن لعلهن أن يفلحن فيما لا يفلح فيه آباؤهن ؟ كيف نصبر على هذا ونحن فى عصر أعيدت فيه للمرأة حريتها وكرامتها ، ومع هذا فقد تم هذا كله نظرياً ، ولما نمارسْ بعدُ حقوقنا ؟

وكانت الفتاة تبذل من فصاحة بيانها وعذوبة لسانها ما يحملنا على التفكير فيما تلقنه إيانا من حديثها الطويل المغرى لنا ونحن فى ميعة الصبا وريّق الفتاء ، تضطرم نفوسنا بالآمال الواسعة والأحلام العريضة لأننا كنا على درجة من الثقافة تخوّل لنا أن نمتد بأبصارنا إلى الغايات البعيدة . ومن يظفر بحظ من الثقافة يكبُرُ عليه أن يرى الجاهل — مهما كان ثراؤه وأصله — أعلى منه مركزاً . وهذه ملاحظة لم تفت ناصحتنا الماكرة ، فظلت حيناً طويلا تضرب على هذا الوتر الرنان فى نفوسنا مستشهدة بالفتيات الجاهلات — ولكنهن من أسر ثرية — اللائى ظفرن بأفضل الأزواج . فكان يجرى فى نفوسنا ما يجرى فى نفوس

الشباب المثقف الذى يطمع فى بلوغ أرفع المناصب فى الدولة لتفوقه العقلى ، وينكر أن يكون للتفوق فى الثراء أو الجاه دخل فى الارتقاء فى سُلَّم الحياة العالية والسلطان . فكيف تكون القاعدة بالنسبة إلى الشباب فى ميدان نشاطهم هى ترك الفرصة مفتوحة للجميع وفقاً لمواهبهم دون ما اعتبار لثرائهم أو جاه أعراقهم ، بينما لا تكون كذلك بالنسبة إلى الفتيات ، ونحن قد صرنا والشبان سواء ؟

ومثل هذه الحجة كانت خليقة أن تدفع بنا — ونحن فى حماسة الشباب وثورته — إلى حيث تريد هذه الفتاة أن تقتادنا . فمن منا لم تطمح فى أن تنال أكبر المراكز الاجتماعية ، أعنى خير زواج ميسور ! وأنت تعلم سفسطة العقل البورچوازى الذى كنا نمثله ، وما يندفع فيه من مطامح وهمية وآمال كاذبة خداعة . لهذا أسلمنا قيادنا لفتاتنا دون أن نحسب لشىء حساباً .

وأنشأت الفتاة تسلك بنا طريقها السلطانى المزعوم . فغدت بنا إلى معلمة رقص علمتنا الرقصات الأربع المشهورة : الفوكس والتنجو والاسونج والفَلْتس . وبدأنا نتدرب عليها فى منزل صديقتنا هذه ، وهى تشرف على حركاتنا وتصلح من أمر الفاسد منها ، حتى أتقناها ، وقمنا بالتجارب تلو التجارب استعداداً للتمثيل العَلَنى . لكن كيف السبيل إليه ؟

لم يكن مجتمعنا البورچوازى المحافظ يسمح بالاختلاط بين الفتيات والفتيان إلا إذا كان هؤلاء محارمَ ؛ ولم يكن يسمح حتى لهؤلاء المحارم أن يتبسطوا مع الفتيات أى تبسُّط ، فما بالك بأن يراقصوهن ! لو حدث هذا لكان كبيرة الكبائر ولعنة عظمى حلت بالأسرة كلها وفضيحة صارخة تدنس شرفها إلى الأبد ، فمن كان يجرؤ عليها ؟ هيهات ! هيهات ! ولم يكن فى وسعنا أن نستمر طويلا على التدريب مع أنفسنا ، خوفاً من أن يفضى هذا إلى شذوذ أخطر مما كنا نخشاه من عواقب . فسألنا مستشارتنا النصح عليها أن تجد لنا من هذا الحرَج مخرجا .

فقالت : إن لدىّ من الأصدقاء الشباب ما يسعكنّ جميعاً .

فأجبنا : ويحك ! وكيف يمكننا لقاءهم فى جماعة واحدة ؟ سنكون من الكثرة بحيث يُفتضح أمرنا . وإذا كنا نجتمع بك ، فما ذلك إلا لأنك فتاة مثلنا . وما عرفنا قبل شاباً غريباً عن أقرب أقاربنا .

— أفٍّ لكن ! أولا تزلن على سذاجتكن الأولى ؟ وما فائدة دروسى التى استنفدت فيها كل جهدى ؟

— لكننا سايرناك حتى الآن لأننا لم نأت بعد أمراً إدّاً ينكره الناس ، إنما هو علم تلقيناه ورياضة مارسناها ؛ وفضلا عن هذا فقد تم كل ما تم سرًّا ، لم يدخل فيه أحد من أفراد الجنس الآخر ؛ وما دام الأمر لم يتجاوز هذا الحد ، فالأوضاع الاجتماعية لا ترى غضاضة ظاهرة فيا فعلناه .

— لقد وافقتن على أن نسعى فى سبيل حياتنا بأنفسنا ، دون أن تحسبن لشىء حساباً ، وأراكن الآن قد نكصتن على أعقابكن ولما نخط أول خطوة . فبالله عليكن ماذا أفعل لاقتيادكن ؟

— أشيرى علينا على الأقل بحيلة نتذرع بها فيكونَ فيها توفيق بين اللياقة العامة والدخول فى هذا الميدان .

فأطرقت الفتاة برأسها قليلا ثم انتفضت باسمة بخبث وكأنها قد وجدت الحل القويم ، وصاحت :

— أرى فكرة جميلة تريحكن من مخاوفكن ، هى أن نذهب فى المساء إلى أحد ملاهى المدينة حتى تتعودن تلك الأماكن وروادها فتقل درجة الحرارة فى خجلكن الأخرق هذا . أفهمتن ؟

فأدرنا عيونا زائغة حائرة ، وقلنا : لكنا لم نسهر فى المساء يوماً واحداً إلا فى صحبة أهلنا حين نغدو إلى المسرح أو السينما . فكيف نسهر وحدنا فى الليل ، خصوصاً ونحن نخشى أن يرانا أحد من أهلنا أو معارفنا ؟

— لن تكنّ نساء إذا لم تجدن حيلة للخروج فى الليل بحجة من الحجج . لقد خُلقنا معشر النساء وخلق الدهاء معنا ، فظفرنا بتسعة أعشاره وتركنا — متعففات فحسب ! — العشر الباقى لسائر الخليقة من رجال وحيوان ذكرٍ وجماد ، إن صح أن يكون فى الجماد مكر أو دهاء . لهذا أعلن لكن أنكن إن عدمتن حيلة فى تحقيق مآربكن النسوية ، فقد حلت عليكن لعنة جنسكن وعما قليل يقرر طردكن من حظيرته وتبرُّؤه منكن . فاتركن هذا العبث الفارغ يا بنات !

فلما رأينا منها هذا التحدى والتهديد نظر بعضنا إلى بعض يسأله الرأى ، وهل نوافق فتاتنا على قولها ونقبل تحديها . و بعد تردد و إحجام وتساؤل واستفهام ، أسلمنا أمرنا واتفقنا على أن تجد كلٌ منا الوسيلة للخروج فى المساء بحجة الذهاب إلى دار السينما وتنتحل العذر الذى يتفق وظروفها الخاصة . ثم قلنا لفتاتنا : هذه مشكلة واحدة حُلَّت ، فما رأيك فى الأخرى ، أيتها الخبيثة الملعونة ؟

— ماذا ؟ أن يرانا أحد المعارف ؟ أوه ! هذا بعيد الاحتمال .

— كلا ! هكذا قالت إحدانا . فإن لأخى أصدقاء يرتادون هذه الأماكن وهم يعرفون وجهى ، لأنهم يترددون على منزلنا لزيارة أخى ، وكثيراً ما فتحت لهم الباب ورأونى ؛ فماذا سيكون أمرى لو رآنى أحدهم ؟ إنه بلا شك سيخبر أخى ، وإنكن جميعاً لتعلمْنَ قسوة أبى — وهو الرجل العسكرى — ؛ لهذا لا بد أن تجدى لنا حلاً آخر .

— أى حلٍّ أيتها الساذجة المغرورة ! أتظنين أنك تعرفين عِلْية الناس ، وأن الجميع يقفون لك بالمرصاد ؟ يالك من بلهاء !

— ليس هذا بلهاً منى ، أيتها اللعوب التى تريد أن تلقى بنا فى التهلكة ، وهنالك تضحك ملء فيها . إنما هو الحياء الذى فقدته نهائيا أيتها الدائرة الفاجرة !

— ومن أنتِ حتى تخاطبينى بهذه العبارات ؟ دعى المسألة فى السرّ ، وإلا حدث ما لا يرضيك !

— أية مسألة يا ... وماذا سيحدث أيتها ... ؟

واحتدت كلتا الفتاتين وتنابزتا بالألقاب وكادتا الاشتباك لولا أن تدخلتُ أنا والأخرى فهدّأ كل منا واحدة منهما . ولكى نعود إلى شأننا اقترحتُ حسماً للأمر أن تتفقد لنا مستشارتنا هذه مكانا غير مطروق من الكثيرين وبخاصة من المصريين . ففكرتْ قليلا ؛ ثم صاحت وهى غاضبة حانقة على الفتاة الأخرى :

— لن يساير عقلى عقل هذه الفتاة (وأشارت إلى غريمتها منذ لحظة) ، لأننى إنما أقصد الخير والنجاح فى الحياة لكنَّ ، وهى ساذجة لا تعرف صالحها من طالحها ، ومع هذا فسأتبرع بالنصيحة لها هى الأخرى وأغتفر لها جريمتها معى (وكانت وهى تقول هذا تضغط على أسنانها وتلوى شدقيها وتهدد بعينيها وتُنغِض جميع رأسها) ، فإلى اللقاء فى الساعة الثامنة مساء غد .

أفهمتن يا بنات ؟ هيه ! هيه ! قالت هذا ووجهت الحديث إلى غريمتها قائلة بمؤخر عينيها : وأنتِ ! لا تنسى أن تلبسى طاقية الإخفاء حتى لا تراك الجموع الحاشدة من معارفك الذين يقفون لك كلَّ مُتَرَصَّد ! هئه ! هئه !

وفى اليوم التالى تلاقينا حيث تواعدنا وانطلقت بنا الرائدة إلى المكان الذى اختارته نائياً عن مُزْدَحَم المدينة . ودخلنا المرقص فبهرتنا أنواره الزاهية ، وما شاع فى جوه من طرب خفيف سرعان ما أثر فى نفوسنا الرقيقة الغضة . وقد انتحينا فيه ناحية نائية عن الأنظار الفضولية التى كانت مع هذا تصوّب سهامها القاتلة إلينا ، لكنا كنا من الخجل بحيث لم ندع لهذه السهام مجالا لإصابتنا . وكانت زُمَر من الشباب المجتمع حول الموائد تديم النظر فى أمرنا ؛ وتدهش لهؤلاء الفتيات اللائى جلسن وحدهن ، وراحوا يفرضون الفروض المتضاربة عن جليَّة أمرنا فى نظرهم ، ويتهامسون :

— انظرْ هذه الناحية تر أربع فتيات جميلات قد جلسن وحدهن ؛ فماذا تظن بهن ؟

— أهنَّ منذ زمن طويل ها هنا ؟ إن كن كذلك ، فلا بد أن يكن قد جئن للصيد .

— لكن ، ألا تنظر إلى الحياء يعلو وجوههن ، اللهم إلا فتاة واحدة يظهر أنها لعوب مُدَرَّبة ؟

— لقد صدقت إذاً فى ظنى . فهذه رائدتهن ، والباقيات حديثات العهد .

— لكن ، من يدريك أنهن لا ينتظرن أحد معارفهن أو أهليهن ؟

— لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ما دُمْن قد بقين وحدهن كل هذا الوقت الطويل . وفضلا عن هذا فإن نظرات من قُلْتَ إنها لعوب مدربة ، تلك التى تلبس فستاناً أحمر صارخا به قطع زرقاء ناصعة ، أقول إن نظراتها لا توحى بالثقة . وأقسم لك وأراهن بما تشاء على أنهن كما وصفتُ ؛ ولن أكون جديراً باسمى إذا كنت مخطئاً فيما نبأنى به حَدْسى .

— لكن فيم تختلفان ؟ هكذا قال ثالث .

— أنا أقول له إن هؤلاء الفتيات قد جئن للصيد والدليل على هذا أن الفتاة ذات الفستان الأحمر تجيل فى الشباب الحاضر نظرات شهية ماكرة ؛ كما أنه لا يتصور وجود مثل هؤلاء فى مثل هذا المكان وحدهن إلا إذا كن يبيتن أمراً .

— الواقع أنى لا أتبين أمرهن بوضوح : فالأدلة متكافئة فى كلا الجانبين . لكنى

سأسأل صديقنا الجالس حول المائدة المجاورة ، فقد عركته المراقص حتى صار على علم بكل من يشتغلن فيها . ما من فتاة من بنات الهوى إلا و يحدثك عنها وعن ماضيها ، فينبئوك بأصلها وكيف كانت تعمل خادمة عند فلان ابن فلان ، وعن الأخرى بأنها بنت هَيّان ابن بَيّان وقد انساقت فى طريق الشر فكان مصيرها ما كان ؛ أو يحدثك عن عشاقها ومغامراتها وماذا جرى له هو نفسه معها ، و إذا تبسط معك أخبرك عن حياتها فى بيتها وكيف تعود إلى مرقدها ، و بعض طباعها الشاذة ... الخ . إنه فى هـذا الفن داهية باقعة وعَلاّمة مُحَنَّك . فدعونى استنبئه .

وانعطف عليه يهمس له بالأمر ، فقال له : انتظر ! انتظر ! إنهن لَسْن من بنات الهوى ، بل أؤكد لك أنهن لم يرين أماكن اللهو قبل هذا ، فيما عدا هذه الفتاة ذات الفستان الأحمر ، فإنى أذكر أنى رأيتها مراراً فى المراقص والمقاهى بصحبة شبان مختلفين لا يمكن أن يكونوا من أهلها نظراً لتعددهم وما كان يدور بينها و بينهم من همسات وحركات . وفتاة كهذه ينتهى أمرها بأن تقتاد غيرها من الفتيات إلى الهاوية التى نزلت إليها ، و بعد حين قليل تصير موردّة لهن ، تتحف بهن الشباب إما هواية وغواية ، أو لقاء أجر تتقاضاه . ويخيّل إلىّ أن هؤلاء الفتيات الثلاث اللاتى فى صحبتها هن ممن ذكرتُ ، ويبدو أنهن مريدات محدثات جداً لهذه الشيخة المحنّكة ، ففى حركاتهن السذاجة وعلى وجوههن من البراءة والحياء ما يؤذن بصحة ما أقول .

قال هذا بلهجة الواثق الذى أحصى كل شىء علماً فلا تندّ عن معرفته شاردة ولا واردة . فشكر له من سأله ، وراح يخبر أصدقاءه بالنبأ اليقين الذى تلقاه من ذلك الجِهْبِذ ، حِلسِ المراقص ، الذى تظاهر أول الأمر بعدم اكتراثه للفتيات ، علامةَ أنه قد شبع من أمثالهن ، وهؤلاء طفلات ساذجات ، وقد جاوز هو ذلك الدور الأوّلى و بلغ طور الصيد الجارح العسير . لكنه ما لبث أن تابعهن بنظراته باسماً حيناً آخر كالصائد الواثق من فريسته فلا يظهر احتفالا بها ظاهرا . ولما لم نبادله نظراته ولم نحفِل به ، إزداد غيظاً وراح يهدّد بعينيه ولسان حاله يقول : أو تتحدينى أيتها العصافير الساذجة ، أنا النسر العتيق الذى عَنَت له أصعب الفتيات ؟ غرور مضحك وأيمُ الله !

هذه النظرات المتوعدة من ذلك الجِهْبِذ المحنك لفتت أنظار الشباب الحاضرين إلى حيث

يصوبها ، فتوزعتنا كلُّ العيون وناشتْنا من كل جانب ، فلما رأينا هـذا كله أنحينا باللائمة على رائدتنا ، وخرجنا خجلاوات يدفع بعضنا بعضا ؛ وعبثا حاولت الرائدة أن تستوقفنا ، فإنا لم نـكد نصل إلى الباب حتى هرولنا بسرعة فائقة . فلما رأت هـذا نفضت المـكان بعينيها الشهوانيتين وضحكت وخرجت .

هذه الضِّحْكة أغرت بعض الفتيان بالسير من ورائنا فتتبعونا ونحن لا نلتفت إليهم ، فلما رأوا هذا يئسوا وعادوا أدراجهم إلى حيث كانوا يجلسون .

عدت إلى البيت أفـكر فيما شاهدت فى تلك الليلة فلم يُغمَض لى جفن . وكيف يغمض وهذه الصور الزاهية والأصوات الشهوانية تنبعث من الموسيقى الحارة قد ملـكت علىّ زمام نفسى وألحت على مخيلتى فوقفت حائلا بين أجفانى وأحداقى لشدة وضوحها حتى كأنها تقوم بارزة أمامى ، بينما ظلت تلك النغمات تطرق أذنىّ وتقرع مسامعى بعنف شديد حتى أصاب دماغى دوار كأنه من أثر خُمار . وفى الغد كنت أدير هذه الصـور فى ذهنى وأترجح بين المعاودة والمباعدة وأتصور النتائج ثم أنقضها بالمباهج التى أتاحتها لى تلك الليلة . وبينا كنت على هذه الحال من البلبال أردّ عوادى الشر أو أنهنه آلام الضمير ، إذ بالشيطانة المـاكرة تدخل علىّ ومعها بقية الصواحب ، فتسألنى الرأى فيما شاهدتُ وأنا أجيبها لاعنة تلك الساعة التى عرفناها فيها ، ومُنْحية عليها بأعنف التقريع لأنها تسلك بنا سبيل الغىّ والضّلال . بيد أنها ما عتّمت أن دخلت على نفسى ونفوس صواحبى بأقوالها المعسولة ومداعباتها الخبيثة وفراهاتها البارعة حتى أغرتنا على اصطحابها إيانا مرة أخرى بعد يومين .

ولما رأتنا فى المرة الثالثة قد ازددنا تآلفاً بدأت تلعب ألاعيبها الشيطانية ، فاتفقت معنا على الذهاب للمرة الرابعة ، كما اتفقت فى الوقت عينه مع بعض خلانها من الفتيان على أن يوافوا — وكانوا أربعة مثلنا — فى نفس المـكان قبل الموعد المعلوم بنصف ساعة . وفى كل المرات الثلاث السابقة كنا نقنع بالجلوس فى ركن منعزل نستمع منه إلى الموسـيقى الساخنة — موسيقى الجاز — ونتعاطى هذا الأفيون الغريب الذى كان يخدر أبداننا أيضاً ؛ ثم ننظر إلى المتراقصين فتنبعث فى مخيلتنا صور حسية شهوانية تـكاد تقف بيننا وبين الرقص الفعلى ، فننظر بعيون سادرة إلى المشاركين فى الرقص ، ونحن فى الواقع نجيل فى خواطرنا أشواقاً حارة إلى المشاركة بأنفسنا أيضاً . ولِمَ لا ، وعيوننا لا تصبر على رؤية هذه المناظر المثيرة ! فهذه

الذراع الشابة تخاصر الفتاة الغضة تكاد أن تعتصر محور اللذة فيها ، وتضغط إليها صدراً عامراً بالنهود البارزة فتصل هذه الأزرار التى استودعت كل الكهرباء الجنسية بصدر الفتى الوامق المهاجم ؛ وأحياناً تنخفض الذراع على ظهر الفتاة فتهتاج أكثر فأكثر ويستمر تحريكه لذراعه عَلواً وسُفلا حتى تشيع الحرارة فى البدن كله فيكون على تمام الأهبة لاستقبال كل أنواع اللذائذ ، ولات حين موضع ! ثم هذه الفتاة وقد أحاطت عنقه بذراعها وكأنها تقول له : لقد أخذت بمخنّقك أيها المسكين ولا حيلة لك فى الفرار من قبضة يدى ؛ أما أنا فحرّة فى الاعتقال فى طوق ذراعك أو التخلص منه لأنّ فى خصرى من الرشاقة والمرونة ما يسمح لى بالانزلاق من بين قبضة ذراعك كما أشاء . وكأن هذه الطريقة فى الإمساك أثناء الرقص تعبر تماماً عن نصيب كل من الجنسين فى الصلة بينهما . فكيف بعد هذا كله لا أحترق شوقاً إلى الإمساك بمُخنّق كل الشباب ! وأى مُلك أغرى بالغزو من هذا ! شهد الله أنى ما كنت أنظر إلى فتاة تراقص فتى وسيماً إلا تمنيت أن أكون هذه الفتاة حتى كنت أحسُد الفتيات المراقصات لفتيان ممتازين ، حسداً ينفذ إلى أعماق نفسى .

ودخلنا المرقص للمرة الرابعة واتخذنا مكاناً قريباً من مَوْطىء أقدام الراقصين — ولا تَنسَ أن مائدتنا كانت تقترب كل مرة شيئاً فشيئاً من هذا الموطىء ، علامة تطورنا الداخلى — ، وأخذنا مائدة كانت رائدتنا اللعوب قد حجزتها لنا مقدما . فما كدنا نجلس حتى رأينا إلى جوارنا مائدة جلس عليها أربعة فتيان ظلوا منذ اللحظة الأولى ينظرون إلينا بتفرُّس واهتمام . والتفتت إليهم الرائدة ضاحكة ثم ارتد بصرها إلينا ؛ وبقيت تقوم بهذه الحركة عدة مرات فسألناها السر فى هذا فاعتصمت بالصمت . وكان الشبان يتضاحكون ، لكن فى شىء من التكتم المتفاهم . وبعد أن مضى شَطْرٌ من الوقت ، وارتفعت أصوات الچاز الحارّ تقرع لرقصة اسونج ، وكانت حرارتنا نحن أيضاً قد ارتفعت ، وازددنا اهتياجا ، قالت الرائدة :

— وإلى متى سنظل على هذه الحال يحتجزنا الخجل السخيف عن المشاركة فى هذه المباهج ؟ وهل نحن أقل أو أفضل من هؤلاء الفتيات العديدات اللائى يشاركن فى الرقص ؟ الحق أننا لا نزال متعلقات بأفكار رجعية عَفّى عليها هذا العصر ، حتى لنوشك أن نتخلف عن ركبه السائر قُدُماً نحو المدنية العامرة باللذائذ والمباهج . وأنا لا أفهم — وقد خطونا كل هذه

الخطوات وصرنا نغشى هذه الأماكن بجرأة وغير اكتراث — أن نظل متحجرات فى قوالبنا التقليدية . فليس بين ارتياد الملهى و بين المشاركة فى كل ما يدور فيه إلا خطوة واحدة . فهيا بنا نخطوها .

— وماذا تريدين منا أن نفعل إذاً ! دعينا فكفانا ما أنزلته بنا . فلو أننا اندفعنا إلى ما تدعين إليه ، لهبطنا إلى قاع الهاوية بحيث لا يرجى لنا بعد هذا أن ننتشل منها . أما ما فعلناه حتى الآن فلا يعسر معه الارتداد من حيث أتينا .

— كلا ! بل أنتن واهمات ! أفتحسبن ، وقد بلغتن هذه الدرجة التى لم يصبح فى وسعكن بعدها أن تتحللن من المجىء إلى مثل هذا المكان ، أن الأمر قد صار باختياركن ؟ كلا ! كلا ! ثم حتى لو كان هذا مستطاعاً ، فما الفائدة فيه وقد جئنا هنا لتحقيق غرض لما نصل بعدُ إليه ؟ فما لكن بعدُ إلا أن تتابعن التجربة عسى أن نحقق مأمولنا الذى عقدنا العزم عليه . وها أنتن أولاء قد رأيتن أن ليس فى الأمر كله ما يدعو إلى كل تلك المخاوف الصبيانية التى كانت تملأ رءوسكن فى أول الأمر . فالأمر هو دائماً أهون مما تتخيَّلْن .

— كيف تقولين هذا أيتها المضلِّلة ، والفارق هائل بين الخطوات التى خطوناها حتى اليوم و بين الخطوة الواحدة التى تريدين أن تحملينا على إتيانها الآن ؛ فكل ماخطوناه حتى الآن شىء ، وهذه الخطوة الواحدة شىء آخر مختلف تماما . لأن العبرة هى بالاتصال بالجنس الآخر ، ونحن فى كل ما فعلناه حتى الآن لم نتصل بأحد ؛ أما فى هذا الذى تدعيننا إليه فثمت اتصال ، بل واتصال مباشر بين الأبدان . أواه ! أوتريدين منا أن نسمح لخصورنا أن تعتصرها أذرع فتيان غرباء ! يا لله ! يا للفضيحة والعار ! أو قد رانت الغِشاوة على عينك إلى هذا الحد الذى لا تستطيعين معه أن ترى هذا الفارق الهائل الذى يخرق العيون الكليلة نفسها ؟ كان الله فى عونك أيتها المسكينة !

فلم تجب الرائدة واكتفت بأن ألقت علينا نظرات سخرية وتهانفت وأنغضت رأسها وتمصّصَتْ شفتيها .

فالتزمنا الصمت حينا ، بينما نظرتْ إلى الفتيان بجوارنا نظرة تقول : لمّا بعدُ ! صبراً ! إنهن لا زلن ساذجات . لكن عيوننا كانت متجهة كلها إلى حلقة الرقص تتابع الراقصين بنظرات حاسدة وامقة لا تلبث أن ترتد آسفة إلى الرائدة وكأنها تتساءل : ولماذا لا نرافق

الرائدة على رأيها فنراقص شبانا ؟ وكانت هى تقرأ هذا فى عيوننا فتضحك فى أعماق قلبها ، ووجدت فى الصمت خير وسيلة لحملنا على مشايعتها ؛ فلزمته حينا طويلا . هنالك لم نطق نحن صبراً عليه ، فسألتها إحدانا أسئلة تكشف عن ميل إلى معاودة الحديث عن اقتراحها وإمكان تنفيذه ، كما أردفنا نحن الاثنتين الأخريين كلامها بأسئلة من عندنا تتجه كلها هذا الاتجاه ؛ وكانت هى تجيب وتتثاقل بدلالٍ حتى تتمكن من حملنا على الاقتناع برأيها مُرغماتٍ فعلاً،مختاراتٍ فى الظاهر . وبعد أخذ ورد أسلمنا لها الرأى بعد أن تركناها تكون البادئة .

هنالك أشارت إلى أحد أصحابها هؤلاء الجالسين إلى جوارنا كيما يأتى إليها ويلتمس منها أن تراقصه ، فأقبل باسماً فى شىء من المكر واصطحبها إلى الموطىء (الپيست) ودخلا حَلْقة الرقص وكانت رقصة تنجو رقيقة هادئة فيها حركات تلائم النفوس الخَجْلى . وبقى ثلاثتنا حيث نحن على مائدتنا ، كما بقى الشبان الثلاثة على مائدتهم طوال الجولة الأولى من رقصة التنجو ؛ ولكنا كنا نتبادل النظرات مع صاحبتنا وهم يتبادلونها مع صاحبتهم ، ثم تتلاقى نظراتنا جميعاً — فى سرعة وخجل أولا ، ثم فى تباطؤ وجرأة شيئاً فشيئاً — حتى انصرفت نظراتنا إلى نظراتهم وتبادلنا الابتسامات . ومع هذا فلم نجرؤ على دعوتهن ، فلم يتقدموا إلينا . وكانت استراحة دقيقة استأنف الراقصون بعدها الجولة الثانية فى رقصة التنجو هذه ، فلما بدأت أشار المتراقصان علينا بدعوة الفتيان الثلاثة وبعد إشارات من هذين ومن هؤلاء الثلاثة قبلنا دعوتهم وأتوا فاصطحبونا إلى الموْطِئ . وبدأ الرقص المشترك لأول مرة فى حياتنا .

ولا تسلنى بعد هذا عن الأحساس العذبة التى شعرنا بها آنذاك . فقد تجمعت الجِدّة وفَتاء السن وغضارة الشبان وحلاوتهم وحديثهم فأشاعت فى نفوسنا أجمل الأحلام وأعذب اللذات . ومن كان يستطيع بعد أن تذوق هذا مرة أن ينساه أو يتناساه أبدَ الدهر !

ولا أطيل عليك . فقد توزعنا هؤلاء الرفاق الأربعة ، وإن كنا قد بقينا على الصحبة زمناً ليس بالقصير ، فكنا نأتى المرقص سوياً عدة مرات فى الأسبوع ، وتواعِد كلٌ منا فتاها كيما يختليا ساعة من غد تلك الليلة التى نرتاد فيها المرقص .

ولقد ظل أمرنا طىّ الكتمان لم تضطرب به ألسنة السوء حينا ليس بالقصير ، لأنه لم تظهر منه نتائج بارزة . فقد كنا فى العطلة الدراسية ، فماذا عسى أن يكون لجرينا طوال النهار

وشطراً من الليل من أثر فى المنزل ! إنما بدأ أمرنا فى الظهور حينما انتهت العطلة واستأنفنا الدراسة . لقد كنا دائماً فى الرعيل الأول بين الطالبات ، فما هذا التأخر فى الترتيب إلى حد الخزى ، فقد صرنا نحن الممسكات بدفة الفصل ، كما يعبَّر فى لغة المدارس ؟ وكنا أحرصهن على الإجابة ، فما هذا السهوم الذى يتبدّى جلياً على وجوهنا ، وما هذه الغفلة المستمرة التى صاحبتنا ؟ ولا نذكر أننا تغيبنا لحظة واحدة عن أى درس مهما اشتد بنا المرض ، فما بالنا نتخلف عن كثير من الدروس ، بل نغيب أياماً كاملة ، وحتى هذه الدروس كنا لا نحضرها إلا بأجسامنا ، أما عقولنا وأخيلتنا فقد كانت تحوم فى قاعة الرقص ، وأما آذاننا فقد كانت مليئة بنغمات الجاز ، وأما قلوبنا فقد كانت تخفق لوقع أقدام الراقصين أو تضطرب وهى تنتظر ميعاد الحبيب .

ولاحظت علينا المعلماتُ هذه المغايرة لما ألفنه منا فاكتفين بالتساؤل العام فى بادىء الأمر . ولما أُرْسلت النتائج الشهرية إلى أهلنا كانوا يقنعون بالإرشاد والتأنيب الخفيف ورد هذا التغير إلى أسباب صحية ، وكان يشجعهم على هذا التفسير أن السهر وطول الجرى والتجوال قد أثرت فينا إلى حد الإنهاك : فعلا وجوهَنا الشحوب ، وأصابنا شىء من الهزال وقد كنا ممتلئات ، بل وبعضنا من كانت بدينة مترهلة شيئاً . ولما كنا نغيب النهار بطوله كنا فى اليوم التالى نزيف شهادات من أولياء أمورنا كتبناها نحن بأيدينا نعتذر فيها عن الغياب بما شئت من الأعذار الصحية أو الأُسْرية .

بيد أن الأمر لم يكن من الممكن أن يستمر على هذا النحو طويلا . فقد بدأت الماكرات من زميلاتنا تفهم أنه لا بد أن يكون فى الأمر سرٌّ غرامى ، فكن يتتبعننا ما استطعن إلى ذلك سبيلا ، ويتلقفن أخبارنا من هنا وهناك حتى تَنَدَّسْنَ أنباءنا من حيث لا نعلم وغدون يتحدثن بها بين الطالبات . فتصاعدت من حولنا فى جو المدرسة روائح خبيثة ما عتّمت أن دخلت أنوف المعلمات والمعلمين حتى زكمتها . هنالك لم تجد الناظرة بُدّاً من أن تنهى إلى آبائنا ما سمعته من أنبائنا ، فى شىء من الاحتياط واللباقة .

لكن لات ساعةَ خلاص !

فنحن من جانبنا قد تطورت العلاقات بيننا وبين فتياننا إلى أبعد حد . ويكفى أن أقول لك إننا فقدنا جميعاً بكارتنا . ولم يكن لنا سبيل إلى إنقاذ أنفسنا وقد ارتكبنا ذلك

المنكر الأكبر وأضعنا بهذا كلَّ شيء ، حتى تلك الآمال التى كانت تداعبنا وكنا نغذيها بالاندفاع فى ذلك التيار الجارف الذى مالبث أن اقتادنا إلى الهاوية لأننا لم نكن نحسن بل لم نكن نعرف كيف نسبح فيه . واقتنعنا تماماً بأنه لا أمل لنا بعدُ فى معاودة الحياة الكريمة ، لكننا لم نشأ التصريح بهذا لآبائنا ولا لأحد من الناس ؛ فبقى أمرنا محصوراً فى دائرة ضيقة لا تتجاوزنا أول الأمر . لكنك تعرف — وأنت الشابُّ — تهور الشباب وعدم قدرته على كتمان الأسرار ، حتى لو كان فى هذا إضرار بالغ به ؛ فما بالك وقد وجدوا فى الأمر مدعاة للتفاخر ، إذ يرون أترابهم يتباهون بالمغامرات الغرامية ويعدِّد كلٌّ منهم ، متنفِّجاً ، صريعاته الكثيرات فى ميدان الحب والغزل ! لهذا جرى ذكرنا فى أوساط الشباب المرح ، وظلت الدائرة تتسع شيئاً فشيئاً حتى كادت تنتظم الشبابَ كله ومن إليهم من المتصابين ، فكنا لا نسير إلا والعيون ترمقنا بنظرات ساخرة من أغلب الشباب ، وتتهامس الألسنة بل وأحيانا تصيح بأبشع العبارات .

هنالك ضِقْنا بأنفسنا ذرعا ولم نستطع أن نجد من هذه الحيرة مُلتحداً . لقد سلكنا سبيلنا فى الحياة علنا أن نظفر بالنُّجْح فنحظى بتحقيق أمانينا فى الزواج الموفق السعيد . وإذا بنا بعد قليل قد فقدنا كلَّ شيء ، فصار الناس جميعا ينظرون إلينا عن عُرُض ساخرين ، وإذا بِلِدَاتنا من الفتيات الماكرات ينظرن إلينا باسمات شامتات ، وإذا بأهلينا يتنسمون أخبارنا الكريهة وهم حانقون علينا ساخطون ؛ بل إن هؤلاء الشباب الذين بذلوا لنا خير الوعود وأمطرونا بأعذب عبارات الملق والتمجيد كانوا أول من تخلَّوا عنا ، فألقوا فى وجوهنا أول حجر ومضوا إلى سبيلهم يستهزئون .

أى إثم اقترفناه أيها الرب ، حتى تحشرنا هكذا فى زمرة عبادك المنبوذين ! لم نفعل شيئا اللهم إلا أننا نمينا ميولاً رُكِّبت فى طباعنا وما كان لنا عليها من سلطان حتى نردها عن غايتها . فهل فى إشباعها جُرْم لا يغتفر ، نصير بعده عبرة العبر ، فلا ينفعنا مُزْدَجِر ؟ لماذا إذاً يسمح للفتيان بما لا يسمح به لنا معشر الفتيات ، بينما الطبيعة قد سوّت بيننا جميعا فى قوة هذه الميول وعرامتها ؟ لماذا يُفرض العفاف على الفتاة ، ولا يطلب من الفتى ؟ أنا أعلم أن سفسطة الرجل قد خوّلت له أن يلقى هنا الخطب الطوال والمواعظ المسهبة وكلها تدور حول وجوب العفاف للمرأة ، وإلا خرجت عن طبيعتها ، أما الرجل فلا جُناح عليه أن يدخل

باب الفُسوق ؛ لكن لماذا يكون فى هذا خروج للمرأة عن « طبيعتها » ولا يكون فيه خروج للرجل عن « طبيعته » هو الآخر ، ما دامت الطبيعتان متساويتين فى هذا الصدد ؟ لماذا يوزن لنا بمعيارين مختلفين إلى هذا الحد ؟ ألا شيئا من الإنصاف أيها الرجال ، فاسمحوا لنا بما تسمحون به لأنفسكم ما دمنا فى هذا الشأن سواء !

ثم ماذنبنا نحن ، والشباب يطلبون دائما أن يكونوا على علم كامل بمن سيقترنون بهن من الفتيات ، فكيف يتم هذا إلا بالمرافقة والصحبة فيما بين كلا الفريقين ؟ إذا كان الزواج ائتلافا بين القلوب ، فمن يدريكم أن قلبين سيتآلفان ولمّا يتعارفا ؟ لقد صار الزواج فى جوهره محنة ترجع فى مجموع أسبابها إلى هذا السبب ، فلماذا لا تتجاسرون على الاعتراف به ، وعمل ما ينبغى لملافاته ؟ أما الزواج الذى يقال عنه إنه موفق ، فإما أنه قد جاء من قبيل المصادفة وحدها بأن قُدِّر للقلبين القابلين للائتلاف أن يتحدا — عرضاً واتفاقا — ؛ وإما أنه التسليم بالذى ليس منه بُدٌّ أولى من التمرد عليه ، وإما لأن العناد يدفع بالمرء إذا ارتكب فعلا أن يستمر فيه حتى لو تبين له بعدُ خطؤه ، وإما لأن هنالك أسبابا خارجة عن طبيعة الصلة الزوجية فى ذاتها تحمل على الإبقاء على الرابطة ما دامت قد عُقِدت . فكيف تستحلون لإنسان إذاً أن يقضى العمر كله شقيا ، لا لشىء إلا لأن المجتمع — باسم كذا وكذا من الأفكار المتسلطة والأحكام السابقة — يقضى عليه بأن يُجْهِد نفسه للاحتفاظ بعقدة تبين له منذ البداية أنها واهية ؟ وهل سيحيا مرة أخرى ، حتى يستعيض عن هذا العمر الضائع ؟ إن المرء لا يحيا فى الدنيا غير مرة واحدة ، فإن ضاعت ضاعت أبداً ، فمن أنتم حتى تستحلوا لأنفسكم أن تسلبوه الحياة السعيدة مدى الدهر ؟

على نحوٍ من هذه الخواطر كنا نقلب الأمر على وجوهه ، ونُجيل قِداح الرأى فيما يجب علينا أن نفعله وقد صُدِمنا هذه الصدمة الكبرى ، ولما نكد نسلك الخطوة الأولى فى سبيل السعى فى الحياة . وتكشَّف لنا ما فى وجه الحياة من نفاق ينطوى على قسوة وكآبة . وكانت التجربة من المرارة بحيث لم يكن ثمت من مخرج لهذه الرواسب العَفِصة التى استقرت فى نفوسنا ، فلم نستطع أن نعود أدراجنا إلى الحياة السابقة .

وهنا لا أستطيع أن أكتمك ما فى طبعى من حب للانتقام . أنا لا أحب المبادأة بالعُدوان . لكن إذا اعتدى علىّ أحد فإنى لن أنسى اعتداءه أبد الدهر ، ولا بد لى من

الانتقام الرهيب . أضف إلى هذا طبيعتنا نحن معشر النساء ، تجدْ عندى أعنف عاطفة للانتقام تستطيع أن تتصورها . هنالك وجدتُ أن التجربة التى عانيتها تقتضى منى أن أنتقم لنفسى من الرجال . وأشرت على رفيقتىّ بهذا الرأى ، فوافقتا نى عليه بعد تردد طويل .

قالت إحداهما : لو سلمنا جدلاً بصحة هذا الرأى — وأنا شخصياً لا أرى فيه غضاضة لأنى أصبت إصابة بالغة — فأنا لا أعرف ما هى الوسيلة لإنفاذه ؟

فأجبت : المهم أولاً أن تؤمنى بصحته كل الإيمان حتى تمتلئ نفسُك به ، و بعد هذا فما أيسر الوسائل وما أكثرها !

— أنت واهمة ! فلا قيمة لرأى لا سبيل إلى تنفيذه . وأقصد بالتنفيذ هنا أن تكون الوسائل من الإحكام بحيث نبلغ مرادنا من أقرب سبيل و بأقل نفقة ممكنة . أما أن يفضى بنا الأمر إلى ما هو أشد نكراً فهذا ما لا قِبَل لى به ، خصوصاً والأمر لا يتعلق بى وحدى ، بل بغيرى من أهلى و بنى عشيرتى ، ولا أريد مرة أخرى أن أكون سبباً فى شقائهم ومتاعبهم .

— ما دامت الغاية نبيلة ، فلست أجد ما يردنى عن اتخاذ أية وسيلة أو التضحية بأى شىء فى سبيل تحقيقها .

— وأىّ نبل فيما تهدفين إليه !

— ماذا تقولين ؟ وهل هناك شىء أنبل من أن ينتقم المرء لبنى جنسه من هؤلاء الذين غرروا به ودفعوا به مغتبطين إلى مواطن الحتوف ؟ لقد كانت الثقة تملأ نفسى بالناس قبل هذا الحادث ، أما الآن فقد انتظمتنى خيبة أمل لا يبلغ مداها التعبير . وأى شىء أشق على النفس من تجربتها الأولى الخائبة فى ميدان عظيم من ميادين حياتها !

— لكن أهلنا ، ماذا تظنين هم فاعلين ؟

— ماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟ يتبرّأون منا ويتنكرون لنا ؟ لكن ما قيمة هذا بعد أن تنكر لنا المجتمع الإنسانى كله ومنا تبرّأ ؟ لا بد من الانتقام !

— أنتِ عنيدة لا يردك شىء عما تقصدين . لكن هل أفكرت فى خُطة للعمل ؟

— لقد أفكرت وقدرت ، لأن الأمر قد شغلنى وأقض مضجعى منذ اللحظة الرهيبة التى تبينت لى فيها مرارة التجربة التى عانيناها ؛ فوجدت أن خير وسيلة لتحقيق هذا الانتقام هى أن نصبح من بنات الهوى ، هؤلاء اللائى كنا نشاهدهن فى المراقص التى كنا

نغشاها ؛ فكنا نرثى لحالهن ، لأنهن من أخواتنا اللاتى عصفت بهن زلازل الحياة الرهيبة ؛ أو كنا نسخط عليهن لأنهن يلجأن إلى أخس الطرق للظفر بالمال من الرجال . لكن هذا التصوير أو ذاك إنما ينطبق على حال البعض منهن ، وليس الحقيقة كلها . إذ علمتُ من بعدُ أن البعض منهن إنما يفعلن هذا رغبة فى الانتقام من الرجل ثأراً لأنفسهن ممن أذلّ جنسهن . إنهن بطلات شهيدات فى ميدان الصراع الخالد بين المرأة والرجل ، وهن الجيش الدائم الذى نجرّده نحن ضد الرجل . وأنت تعلمين نُبل هذا الصراع وعظمته ، إذ هو المحور الذى يدور من حوله معظم التاريخ الإنسانى . وإذا كنا نحن نبدى السخط عليهن بل والتبرؤ أحياناً منهن بحسبانهن قد خرجن على حقيقة جنسهن ، فلا تحسبنّ أننا فى هذا جادّات ، إنما هو نوع من التمويه (الكاموفلاچ) على الرجل حتى ينزلق إلى الهاوية بين أيديهن ، فيخر صريعاً هو وجنسه بفضل هذا الكمين البارع والحيلة الموفّقة .

وعلى هذا النحو يا صديقى — هكذا تابعت الفتاة اعترافها لى — استطعت أن أقتاد زميلتىّ (أما الثالثة الرائدة فقد تركتنا منذ أن أوقعتنا ومضت لسبيلها تفتّش عن ضحيات جديدات) إلى رأيى هذا . فقررنا العمل فى أحد المراقص كبنات للهوى . وكان علينا أن نبدأ العمل .

ولحظى — السيئ أو السعيد ، لست أدرى — توفى والدى فى ذلك الحين وأنا على بَتات تنفيذ فعلتى الكبرى هذه ، وكان مريضاً منذ عدة أشهر بمرض السُّكَّر ؛ ويعلم الله أية آلام سببها له مسلكى الأخير فى حياتى . لقد كان رجلاً عطوفاً علىّ ، برّاً بى ، ما أذكر أنه رفض لى حاجة أو صدنى عن قصد ؛ وكان يصدر فى هذا عن ثقة بى ، من ناحية ، ثقة تولدت عنده من نجاحى المطرد فى ميدان الدرس ورؤيته إياى منكبّة دائماً على التحصيل والانصراف عن المشاركة فى اللهو مهما تكن براءته ، فكانت ثقة وطيدة لم تتأثر أول الأمر بشىء من الشائعات التى بدأت تطوّف ، بل وتحلق فوق الأسرة ؛ كما كان أيضاً طيب القلب إلى حد السذاجة البريئة ، وكان وديع النفس بحيث لم يكن ليفكّر فى الزجر القاسى ؛ إنما كان يختلى بآلامه وهمومه يطويها فى نفسه ويجترُّها بين الحين والحين فى سكونه ووحدته ، وبخاصة إبان مرضه ، ولم يُفضِ بشىء مما ينتاب نفسه إلى أحد ، حتى أمى ، وهى كانت تلاحظ عليه شيئاً من هذا فتسأله جلية همومه ، وعما إذا كانت تتصل بى ،

فكان يكتفى بهذا القول المستسلم : الله كفيل بهدايتها ! يقول هذا مؤمناً واثقاً بأن الله لابد مجيب دعاءه . كيف لا ، وهو البارُّ المخلص الذى لم يَعُقَّ يوماً أبويه ، فماذا جنى إذاً حتى يُنْتَقَم منه بلا إثم ؟!

وهنا تحدرت من عينيها دموع غِلاظ ، وهى تذكر هذا الحنان وتخشى أن تكون السبب فى انقطاعه بما فعلته بأبيها الذى سرعان ما ألحت عليه العِلَّة وتكنفته الهموم البيض التى تُشْعِر بدنوِّ الأجل ، وبعد قليل فارق الحياة .

فأنشأت أواسيها بقليل من الكلمات وحولتُ مجرى الحديث بأن سألت النُّدُل إحضار الشاى ، وما فرغنا من احتسائه حتى التمست منها أن تستأنف حديثها الشائق ، وكانت عَبْرتها قد تكففت ، فسألتنى عن الوقت فأجبتها بأنه لا يزال فى الوقت متسع طويل .

فقالت : أستميحك عذراً فى إعفائى من الاسترسال فيما حدث بعدُ لأنه يَنْكأُ جِراحاً أوشكت على البُرْء ، فمن الخير أن أدعها تبرأ تماماً فأشفى منها .

— لا عليك من الحديث عنها ! فخير علاج للألم العميق أن يطيل المرء عنه الحديث : والألم الذى لا يبرأ أبداً هو ذلك الألم الدفين الكظيم الذى يظل يعمل فى الأعماق ، يعمل فى الخفاء فيتسع له المجال للإيذاء . إذ شأنه شأن السرطان تماماً : لو بقى مستوراً ، لقضى على الجسم سريعاً ، لكنه لو كُشِف لأمكن علاجه قدر المستطاع . فلا تخشَىْ شيئاً من ترديد تلك الآلام ، بل بالعكس : خيرٌ لك أن تجترِّيها بين الحين والحين .

— ليكن إذاً ! فعلى الرغم مما فى هذا الرأى من مخالفة للمألوف ، فإن به من الطرافة ما يغرى بتجرع هذا الدواء . لكن ، قل لى من أية صيدلية حصلت عليه ، لابد أن تكون صيدلية منزلية ، أعنى أنها فى داخل نفسك . يخيل إلىَّ أن لك أنت الآخر تجربة أليمة من نوع ما عانيتُ أو ما يقرب منها . فبربِّك إلا حدثتنى عنها .

— دعى هذا الآن ، وهات أنت حديثكِ ؟

— أتوسل إليك ، وإلا فسأقطع حديثى عند هذا الحد !

— ولماذا ؟ لقد كنت البادئة فاستمرى حتى يكمل ، وبعد هذا فلننظر فيما تطلبين .

— أنت تريد أن تخفى عنى حقيقة نفسك ؛ أنت إذاً لا تثق بى ! يالك من ماكر غادر ! هكذا أنتم دائماً معشر الرجال . لقد خبرتكم وعرفت كل دخائلكم ، يالكم من ... يالكم

من ... ! أتريد أن تسخر بى وتضحك علىّ أنا ؟ أنا التى عركت الرجال عَرْكَ الرَّحى بِثفالها فحملت وأتأمتُ من الحِيل ما دككت به أمنع معاقل الرجال ؟

— على رِسْلك قليلا ! ولماذا كل هذه الثورة ؟ ماذا حدث ، خَبِّرينى ؟

— حدث ؟ حدث ماذا يا ... ! ليكن فى علمك إذاً أنه لم يوجد بعد الرجل الذى يستطيع أن يضحك علىّ .

— أوه ! ماذا حل بك : أطائف من الجِنّ أم ماض أليم تريدين إبعاده ، أم هى العادة التى تولدت عندك بحكم المهنة التى تزاولينها ؟

— ماضٍ ومهنة ؟ هيه ! ما هذا ؟ وماذا دعاك إذاً إلى التعرف إلىّ ! هذا فِراق بَينى وبَيْنِك ، وأنا ماضية لسبيلى .

— يا لله ! بمثل هذه السرعة ؟ تحلى قليلاً ، فأنا لا أدرى ماذا أتيت . خبرينى ماذا فعلت حتى أعتذر عنه ، إن كان ثمت ما يدعو إلى هذا . ماذا تسألين ؟ أن أقصّ عليكِ شيئاً من حياتى الماضية ، ولا أخفى عليك من أمرها شيئاً ؟ أعدك بهذا .

— وعد كوعود الرجال ، أليس كذلك ؟

— كلا ، بل كوعود النساء !

— إيه ! أتسخر أم تهزل يا ... ؟ لولا أن فيك شيئاً من الظَّرْف لا تصرفتُ عنك فى الحال وتركتك تُحرِّق الأرَّم ، وأنت الخاسر على كل حال ، ولست أنا .

فلم أر بُدّاً من السير فى هذه الملاطفة حتى يسكت عنها الغضبُ (المصطنع فى حقيقته ، ولكنى فعلتُ وكأنه حقيقى : إما سذاجةً منى ، أو لأنى كنت جادّاً فى أمرى ، فلم يكن لى أن أدع الأمور تتعقد بكل هذه السرعة) ، فقلتُ : حقاً إنى أنا الخاسر ، هل فى هذا شك ؟ وأية خسارة أفدح من أن أفقد ملاكاً كريماً مثلك ؟

— بِجِدِّك هذا ، أم تسخر مرة أخرى ؟

— أوه ! ماذا أفعل حتى تصدقينى ؟ أنظرى فى عينىّ ترَىْ مصداق قولى .

فأنشأتْ تحدق فى عينىّ وهى تبسم ، وتقرِّب خدَّها منى شيئاً فشيئاً حتى مس خدّى فلم أدع الفرصة تمر دون أن أطبع عليه قبلة عابرة ، ولكنها جميلة حارة ، فكانت نسياً

منعشاً خفف حرارة الجو كله . فغاضتنى وقالت : أقْسِم بشرفك أنك ستحدثنى عن تجاربك فى هذا الشأن بكل صراحة ؟

فأجبت : لك علىّ هذا ، بشرفى .

فقالت : على هـذا الشرط وحده سأتابع الحديث ، أفاهمٌ أنت ؟ يا لك من عِفريت خبيث ، ولا زلت طفلا !

— فاهم جيداً ، وقُضِىَ الأمر . فاستأنفى حديثك الطلىّ الجذاب .

— أتنعته بالجاذبية والطَّلاوة وهو حديث آلامى ومآساتى ؛ أنت إذاً قاسٍ أَثِر .

— لا أقصـد هذا ، بل أريد أن أقول إنه يثير النفس حقاً ويدعو إلى حشد الخاطر والانتباه الـكامل . أوه ! حاشا لله أن أُسَرّ لمثل هذا ، فأنا أندبُ حظَّكِ بكل قلبى .

— أصلِح عبارتك إذاً وإلا لم أحتمل منك بعدُ شيئا ، فأنا لا أستطيع أن أغتفر لك زلة كلامية ، خصوصاً لأنك بصير بمواقع الـكلام ، فهذه مهنتك : كلام فى كلام ، ومع هذا لا تُحسن أداء العبارة المهذبة .

— أوه ! أرجوكِ ألا تجرينا إلى المنازعة مرة أخرى ، فقد عِيل صبرى ؛ ولك علىّ أن لا أتكلم إلا كما تودين ، ولا تؤاخذينى بكل دقيقة ، فأنا لا أضمر سخرية ولا سوءاً . لماذا أراكِ متشكـكة فى كل ما يقوله الناس إلى هـذا الحد ؟ أجل ، قد يكون فى تجاربك مع رجال سابقين ما يحملك على التشكك ، لـكن ثقى تماما بأنى لستُ من هؤلاء ، بل أنا غِرّ ساذج لما أكد أخطو الخطوة الأولى فى الحياة ، فخذى ما أقول على سبيل الثقة والنية الصافية التى لا يُحتَمل معها تأويل ولا تعديل . أخشى أن يمضى الوقت دون أن تتابعى الحديث ، فأتوسل إليك أن تمضى فيما كنا فيه . هات إذاً حديثك ... أوه ! حدِيثك هذا وكفى !

وكانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكنا قد بقينا جالسَيْن ساعات طوالا لا نريم عن مقعدنا الرخو الذى اتخذناه فى ذلك البهو العربى المتعدد الأضواء والألوان ، خصوصاً فى ساعة الأصيل وقد انساب ضوء الشمس الهادىء الدامى فأشاع فى المـكان نشوة خفيفة كانت عوننا على الاسترسال فى الحديث وعدم الملال من ذلك المُـكْث الطويل . فلما بلغ منا الملالُ غايته آثرنا التجوال سائرين على أقدامنا فى طريق الهرم البديع حتى يحين وقت العود إلى المدينة . فغادرنا الفندق ويممنا أولاً شطر الأهرام فاتخذنا سبيلنا إليها صَعَداً ؛ وكانت الشمس لا تزال

فوق الأفق على وشك الانحدار إلى مخدعها ، فأسرعنا فى الصعود حتى بلغنا الرابية التى يقوم عليها الهرم الأكبر ، فرأينا أمامنا واديا منبسطاً تناثرت فيه أشجار السرو العالية تحيط بالصّفاف والمنازل الشامخة المترامية على طول الطريق ، ورأينا إطار هذه اللوحة البديعة قائماً عند جبال المقطم وقد استحال ترابها تحت تأثير شعاع الأصيل إلى أوراق من البنفسج واللازَوَرْد تعلو قم هذه التلال القصيرة ، وخلال هذا كله يمتد النيل وينساب فى انثناء بديع تحجُبه أحياناً خمائل فاتنة من النخيل أو الصَّفْصاف ؛ فكان النيل بقنواته العديدة مُلَطِّفا للرتوب الذى ينتظم الوادى ، إذ الرابية وتلال المقطّم لم يكونا يتدرجان سويا مع الوادى بل كانا كجدارين عموديين والوادى سهل منبسط لا تدرج فيه ولا تصعيد . وكانت الإبلُ برحالها المزركشة تصّاعد إلى الأهرام أو تنحدر إلى الفندق وقد علتها فتيات مُجَنَّدات من جنوب أفريقية ، غلب على أكثرهن الجمال الفاتن والسّحر الحار : شعور شقراء تنافس أشعة الشمس الذهبية فترى بينهما انعكاساً متبادَلاً هو الاشتباك بين هذين القرينين اللذين عدما النُّظَراء ؛ وخدود حُمْر تتوهج فيها جَمَرات الشهوة المتدفقة ؛ وعيون زرق وخُضْر تطوف بالخيال إلى ثَبَج الموج فى البحر المحيط ؛ وسيقان بضة تَدَلّت على الرحال فى انثناءة خائفة وانفراجة متوثّبة ؛ والفساتين الكاكى تلتوى بالقدود النحيلة وتشد الصدور الناهدة ثم تنحسر عن السيقان الجاثمة على الرِّحال فتغرى العيون بالفضول اللهيف والاستطلاع الشَّبِق . وما أجمل نبراتهن وأعذب صرخاتهن حينما تهرول بهن الجمال فيستصرخن الأعراب من أصحاب الجمال ، فيكتفى هؤلاء الأعراب بابتسامة خشنة ترتسم على وجوههم المتخدّدة وقد علاها التراب وأحاطت بها كوفيات مرقومة بالأحمر والأبيض والبنفسجى !

ثم جلسنا على حجر من تلك الأحجار المتناثرة إلى جوار الهرم الأكبر ، وبعد حديث قصير عما تبدى أمامنا من مناظر ، استأنفت قصتها فقالت :

توفى إذاً والدى وأنا على ثبات تنفيذ عزمى أنا ورفيقتى ، وكنتُ كبرى أولاده ولى ثلاث أخوات وأخ كان رابعنا . ولم يترك الوالد شيئاً مذكوراً إذ كان من أولئك المتوسطين من الموظفين الذين ينفقون كل مرتبهم لأنه لا يكفى لأكثر من هذا ، فيحيا فى شىء من يُسْر الحال — إلى حد ما — هو وأسرته طالما كان على قيد العيش ؛ حتى إذا توفّى لم يدع شيئاً : فحتى المنزل كان مُسْتأجراً . فياويل أُسر هؤلاء بعد وفاتهم ! إن الفلاح فى الريف

— أيا ما كانت ثروته ومهما يكن فقره المدقع — هو لابد يملك بيتا ، إن يكن حقيراً فهو بيت على كل حال يستطيع أن يأوى إليه مهما بلغت به سوء الحال ، ويستطيع أن يتضوّر فى داخله جوعاً بعيداً عن أعين الناس . إنه يمتد بجذوره إلى الأرض التى ينمو عليها عن طريق هذا البيت الذى يملكه ، فهو إذاً نبات أصيل وليس نباتاً طفيلياً كهذا الموظف المسكين الذى يُهدّد كل شهر بإيجارة إما أن يدفعها و إما أن يطرد شريداً فى الأزقة والطرقات. وما قيمة النبات إن فقد جذوره ؟! لكن هذا الموظف مهدد دائما بفقدان جذوره كلّ ثلاثين يوما . فمن أسوأ منه حالا إذاً ! إنى أفضل أن أكون صاحبة كوخ من القصب والغاب أقيم به على أن أكون مستأجرة لأفخم قصر سلطانى فى أجمل بقاع الدنيا . وإنى لأرثى أشد الرثاء لحال أولئك الذين يقضون حياتهم متنقلين من منزل إلى منزل فى داخل برج بابل الهائل ، هذا الذى يطلقون عليه اسم : المدينة . ومع هذا فأنت تراهم يتنقلون غير مكترثين ، بل مغتبطين لأنهم جدّدوا ونوّعوا ، ألا ساء ما يظنون ! لقد فقدوا كل إحساس بما هو حى ، فتهاووا كالفراش مهطعين لا يرتد إليهم طرفهم ولا يدرون ما يفعلون . شيئاً من الإحساس بالأرض و بمعنى الأرض أيها المستأصلون المساكين !

وكان علىّ أن أجد لهذه الأسرة مايقيم أودها ويهيىء لها أن تحتفظ بقليل من مستواها الذى كان لها أيّام عائلها ، وأنت تعلم تكاليف الحياة العصرية وما تقتضيه من إنفاق كبير على التهذيب والهندام والمأكل . والمعاش الذى خلفه الوالد قد التهمت الحكومة ربعه ، والثلاثة أرباع الباقية — بعدخصم كذا وكذا من الضرائب وما إليها — كانت لا تكاد تكفى لإيجار المنزل . وما من عم أو خال أو قريب أيا كان يمكن أن يعيننا فى هذا الصدد بشىء مما يملك . وأنا لم أكن قد ظفرت بعدُ بشهادة دراسية تسمح لى بأن أجد من العمل ما يكفى أجره للانفاق على هذه الأسرة الضخمة . فياويلتاه مما رمتنى به الأقدار !

حارت نفسى ؛ وفكّر عقلى وقدّر ، فقتِل كيف قدّر ، ثم قُتِل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عَبَس وبَسَرَ ، ثم أدبر واستكبر ، فتذبذب وتحير ، ذلك هو العذاب الأكبر . فلقد كنت مُقْدمة على تنفيذ عزمى الأول وأنا واثقة من أننى أفعل فعلة مشروعة لبنات جنسى ، لأننى كنت أنتقم لهن من الجنس الآخر ، فكنت فخوراً بعملى هذا مُقدِمة عليه غير متأثمة ولا متحرّجة ، ولِمَ أتأثم وأنا أسعى لغاية نبيلة ؟ أما اليوم وقد صارت ضرورة العيش هى التى تدفعنى إلى هذا العمل ، فقد تبدى لى هَوْلُ ما كنت مقدمة عليه . ذلك أن قيمة الفعل

كثيراً ما تقاس بحسب كونه صادراً عن ضرورة ثقيلة أو اختيار حُرّ . لهـذا يقاس الفعل الواحد ويقوّم تقويمين متناقضين وفقاً لـكونه صادراً عن الضرورة أو عن الحرية : فيكون إثماً وحُوباً كبيراً إن صدر عن ضرورة ثقيلة ، ويكون عملاً جليلاً نبيلاً إن صدر عن حرية واختيار ، والفعل فى كلتا الحالتين واحد . والعلة فى هذا فيما يخيل إلى هى أن الحرية فى ذاتها من أكبر الأشياء قيمة ، فتكفى بنفسها لِأن تُضْفِى على الفعل الصادر عنها — أيًا كان شأنه — قيمة أخلاقية نبيلة ؛ بينما الضرورة بطبعها شر ، فتطبع ما يصدر عنها — أيًا كانت حاله وصفته — بطابع الشر والفساد . ولذا أحجمت كل الإحجام حتى عن مجرد التفكير فى تنفيذ مشروعى الأول بعد أن كان على بَتات التنفيذ . وكان تصورى لحالى بعد هذا يُقِضُّ مضجعى حتى انتابتنى وساوس جنونية . ولما أتت صديقتاى ، بعد انقضاء أيام الحداد الأولى ومالها من حواش وذيول ، وسألتانى عن مشروعى القديم فى الانتقام ، كشفت لهما عن التحول الذى طرأ على فكرى من هذه الناحية بعد ذلك الحادث الأليم وصوّرتُ لهما حالى من الاستجداء بالشرف والعِرْض فى سبيل العيش الرخيص ، وكنتُ خلال هذا كله أُسْبِل أحرّ العبرات حتى استمطرت شآبيب عيونهما ، فانهلّت بوادر الدمع من مآقينا أجمعين ، ثم أَفَقْنا من هذه المناحة وقد اطَّرحنا المشروع إلى حين .

وكنت لا أزال أحمل فى نفسى بقية من الثقة بالناس ، حتى بعد تلك التجربة الأليمة . وزاد من ثقتى يقينى بأن مصابى هذا كان كافياً لتوطئة مِهاد رأفتهم بأمثالى من البائسات ، فما كنت لأتصور أن الرحمة تجافى القلوب إلى حد أن يُعْرِضوا عنى وأنا فى أشد البلوى . بيد أنى كنتُ واهمةً مرة أخرى ، فتلقيت صفعة ثانية كانت فى الواقع أشد هَوْلاً من الأولى . إذ كنت أُمَنّى نفسى بأن يتقدّم إلىّ شاب — ولو من باب العطف فحسب — فيبنى بى ، وربما استطعت بهذا أن أعين أهلى على بأسائهم عن طريق مثل هذا الزوج إن كان سخياً ميسور الحال . وطَمِعْتُ فى أن يكون ذلك الشابُ الذى عَبث بى ذلك العبث المنكر الشنيع هو أولَ المتقدمين ، لو كانت لديه ذرة من مرحمة . وانتظرتُ وانتظرتُ ، لـكن فى غير جدوى ! أما هذا الفتى فقد كان أول المعرضين المتنكرين : ذهبت إليه مرات ومرات أعرض حالى وأذكره بمآلى وبالوعود السخية التى كان يبذلها لى فى غير تحرج ولا تحفظ ، لـكنه أعرض عنى ولوى عنى عِذاره ؛ ولم يجْدِ إلحافى وترددى عليه مرة بعد مرة ، مقتحمة

عليه مكان عمله ، مما كان يضطره إلى استقبالى مرغماً ساخطاً . ثم أمر أتباعه بطردى أشنع طِرْدة إذا تجاسرت مرة أخرى على الالتجاء إليه . فعُدْتُ أجرر أذيال الخيبة والخذلان . هنالك أدرت عينى فى معارفى ومن إليهم علِّى أن أجد قلباً ينبض بشىء من العطف والرحمة ؛ لـكن سرعان ما أخلف الواقعُ الأليمُ حُسْنَ ظنى . وهكذا حال الناس : لا تقبل الدنيا على أحد إلا أوسعوه تملقاً واحتفاء ، ولا تدبر عنه حتى يرجموه بالحجارة ، أو يلقوه بالإعراض وعدم الاكتراث .

فلما رأيت هـذا كله ، رُحْتُ ألوم نفسى : وماذا عسى أن يكون فيك حتى يُغْرِى الشباب فى هذا العصر بك ؟ لا جاه عندك تهدينه ولا مال ؛ أجل لديك جمالٌ ، لـكن أيان يُسْعِد اليومَ الجمال ! فإن تقدم إليك أحدٌ ، فلن يكون غير صعلوك حقير سيستنزف جمالك بأقل النفقات ، حتى إذا ما أتى عليه مضى لتوه كيما يعلق بفريسة أخرى يمتص دمها . فما عليك بعد هذا كله إلا أن تعودى إلى مشروعك القديم .

فأجابت نفسى : أوه ! كلا ، كلا ! فدون ذلك تقطيع الرقاب !

— لـكن هذه الـكلمات الجوفاء لن تملأ البطون الجائعة لأمّك وأخواتك الصغار ، فدعى هذا التنبُّل الزائف .

— ولماذا لا أجد عملاً شريفاً يعيننى على إقامة أودى وأودهن ؟ لماذا ؟ بلى ، سأطلب عملاً ولو صغيراً منذ الغد .

فسكتت نفسى مستسلمة آسفة . وذهبت فى اليوم التالى أفتش عن عمل فى المحلات التجارية التى تستعين بالفتيات فى أعمال خزانة النقود أو بيع أدوات النسـاء . فتلقانى أحد أصحاب هذه المحلات ، وكان رجلا متوسط العمر ، وتبسم ابتسامة ماكرة لم أفهمها ، وَقَبِلَ أن أشتغل عنده بأجر كان متواضعاً شيئاً ، لـكنى لم أستطع إلا قبوله . وبقيت فى عملى هذا يومين ، ومنذ اليوم الثالث بدأ الرجل يغاضننى ، لـكنى آثرت الصمت وانصرفت إلى عملى بجد ، فازداد إلحاقاً فى غزله وملاطفاته ، وكنت أرده بلطف ورقة لأنى كنت أخشى فقدان عملى ، فكان هذا اللطف يحمله على طول المماكسة والتمادى فى تنفيذ ما انتواه ، وأخيراً — ولما يَمْضِ على وجودى فى عملى غير أسبوعين اثنين — طلب منى ما لا قِبَل لى بإجابته ، فانتهرته بعنف ، فـكان جزائى الطرد فى اليوم التالى .

ومرة ثالثة أصاب بخيبة أمل أليمة فى ثقتى بالناس . ومع هذا فقد دفعت اليأس عن نفسى ، وطرقت أبواباً أخرى لعلها أن تكون أسعد حظاً من السابقة ؛ لكنى كنت أعود فى كل مرة بخيبة أمل جديدة ، فإما أن تتكرر مأساتى الأولى مع هذا الرجل الذى اشتغلت معه أول الأمر ، وإما أن أتقاضى مرتباً من الضآلة بحيث لا يكفى للامساك برمقى أنا ، فما بالك ببقية الأسرة ، وإما أن أنال الذل والهوان وأنا صاغرة ، وإما ... الخ حتى تكسرت الخيبات على الخيبات وتحطمت نفسى بكل كيانها ، فضاعت القدرة على المقاومة عندى نهائيا ، وأسلمت أمرى لأقل إغراء .

هنالك أهبت بمشروعى القديم ، الذى لم يصر لى عنه مندوحة بعد الآن ، كيما ينقذنى من حالى وحال أسرتى البائسة . فذهبت إلى صديقتىّ أعلن لهما عودتى إلى الرأى القديم الذى عدلنا عنه إلى حين . فاتفقنا على التنفيذ ، وتركتا لى مهمة رسم الخطة .

لم يكن لنا أن ننفِّذ مشروعى هذا فى مدينتنا ، وإلا افتضح أمرُنا فى الحال وفسد المشروع كله من ناحية . ومن ناحية أخرى كنا سنسىء إلى أُسرنا أبلغ إساءة ، وكان خيراً لأسرتى أن تتضور جوعاً بل وتنتحر عن بكرة أبيها من أن تسمع أن لها فتاة ساقطة تستجدى لها القوت بذبح عرضها على مذبح الكرامة والفضيلة . فكان علينا إذن أن نختار مكاناً نائياً ليست لواحدة منا به أية صلة من قرابة أو معارف أو صداقة ؛ وأن نختار مرقصاً إفرنجياً ، حتى يكون بمنأى عن عامة الناس ، وإن ارتاده الشباب المُترف ، فضلاً عما فى هذا من فوائد خاصة تتصل بثراء المرتادين وغفلة أكثرهم بسبب نُبل أصولهم ؛ فعند هؤلاء يحسن الصيد الثمين .

لهذا اخترنا ثغراً آخر من الثغور المصرية النائية التى تكتظ بالأجانب ، ولا يكاد المصريون ينعمون فيها بشىء ، لأن الأجانب كانوا كفيلين بالسيطرة على كل شىء وابتزاز كل مال واستنفاد كل مورد ، بحيث لا يصير المصريون فيها إلا مجرد أُجراء ، اللهم إلا نفراً قليلا جداً استطاع أن يشق طريقه وسط أولئك الذئاب بجرأة ومهارة . واخترنا مرقصاً متوسطاً بعض الشىء — فقد كنا فى بداية أمرنا — يقع على شاطىء البحر فى ضاحية مجاورة للثغر .

وهنا يحملنى الواجب على أن لا أذكر لك شيئاً عن زميلتىّ وما أحاط بهما من ظروف وما وقع لهما من أحداث رهيبة ومآس مهولة ، خصوصاً بين أسرتيهما المسكينتين وبين هاتين

البنتين الآبقتين . فليس هذا من حقى ، مهما حملك الفضول على أن تتوسل إلىّ فى هذا ؛ فلا تُتْعب نفسك فى شىء من المستحيل أن أُبلِغك إياه .

أما عن نفسى ، فلا مانع عندى من أن أُطلِعَك على أطراف من حياتى كنت هوى (أرتيست) . ومن حسن الحظ أنى كنت أكتب عن هذه الفترة « يوميات » ، فيها خير تصوير لأحوالى ومشاعرى إبانها ، لأننى سجلتها حية غضة ، إذ كنت أكتبها فى الساعة الثالثة صباحاً بعد عودتى من عملى ، وقد يتأخر بى الوقت الذى كنت أستغرقه فى كتابتها حتى مطلع الصباح الباكر . ولن أجد كثيراً من الحرج فى أن أدفع بها إليك لمجرد الاطلاع عليها بشرط ألا يراها أحد من الناس أياً كان ، فهذه خلاصة حياتى وأثمن ما أعتز به فى الوجود ؛ إنها قُدْس أقداسى ، فلا تسمح لأية قدم أجنبية أن تدخله ؛ وما أمنحك هذه المنحة العالية — فى نظرى — كل العلوّ ، إلا لأننى أصبحت أثق فيك ، وأثق بأنك لن تدع أحداً ينظر فيها . أليس كذلك ؟

فأجبتُ : بدون شك ! ثقى بأنى سأُحِلّ هـذه الوديعةَ موطنَ السر الأكبر فى أعماق قلبى . وحاشا أن أطلع عليها أحداً من الناس . أوه ! حاشا ! حاشا !

وكان الوقت قد حان للعودة ، إذ كانت الساعة الثامنة ، وكان عليها أن تعود إلى منزلها تصلح هندامها وتستبدل بثوب النهار ثوب المساء ، وتصفِّف شعرها الجفال العظيم ثم تذهب إلى عملها بالمرقص . وتواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى ، على أن تُحْضِر هى كراسة « يومياتها » ، وأنا من جانبى سأبعث إليها فى الصباح بهدية فاخرة .

ثم ركبنا سيارة بعد أن ودعنا هـذا الأثر الرائع الذى أظلنا فى الليل برهبته المحبوبة ، وطوانا فى أسراره الخالدة التى حملها على طول الزمان . وكان القمر قد ارتفع فوق الأفق وصَعّد فى الجانب الشرقى من السماء ، وإذا بالقنوات والترع تتراقص أمواهها الفضية تحت أضوائه المترنحة المتواثبة ، وإذا بالأشجار على طول الطريق تستلق تحت شعاعه وهى ناعمة بملاطفاته الناعمة الجميلة ، وأشجار الجكرنده تبسم للقمر بأزهارها البنفسجية الفاتنة ، فكان جوّاً حالما سرعان ما طوانا نحن فى أحلامنا ، فأحطتُ خصرها بذراعى النهمة وألقتْ خدها على كتفى واستسلمنا لأحرّ الاحساس وأعذب الخيالات التى لم يكن يقطعها إلا بعض النظرات الماكرة من السائق ، أو القبلات الحارة يطبعها ثغر كل منا على خد الآخر أو شفتيه .

فى اليوم التالى تلاقينا حيث تواعدنا ، وكنتُ أنا قد أرسلت بهديتى إليها ظهرَ ذلك اليوم ، فجاءتنى على ظن أنها تحمل « يومياتها » فى حقيبتها . فلما سألتها أين « اليوميات » ، أجابت : لقد نسيتُ أن أطلب إليك أن تعدنى بأن تطلعنى أيضاً على وثائق تجربتك الغرامية ، فلا بد أن تكون هناك وثائق ، على الأقل على هيئة رسائل تبودلت بينك و بين من تعشقت .

فقلت : لك علىّ — على الرغم مما فى هذا من أشد الإيلام لنفسى ، لأن الأمر لا يتعلق بى وحدى — أن أزوّدكِ بكل وثيقة تتصل بتلك التجربة ، و إن كنت أفضل أن تعفينى من هذا ، لأنك تعلمين شدة هذا على نفسى .

— لا إعفاء ولا شىء من هذا القبيل . و إلا فلماذا أبوح لك أنا بخالص أسرارى ؟ أتريد العود إلى نزاعنا السابق ؟

— كلا ! كلا ! أرجوك ! لكن أين هى « يومياتك » ؟ ماذا ؟ أنسيتِ أن تحضريها ؟

— نسيتها إذا لم تكرر لى مرة أخرى قَسَمك بألا تطلع عليها أحداً من الناس . وعلى ذكر هذا ، فاسمح لى أن أقول لك إن هديتك لم تكن كما كنت أود . فالعقد — و إن كان من ذهب وفيه فصوص من اللؤلؤ — لا يقوم وحده إلا إذا كان إلى جواره سواران فى أحدهما ساعة ذهبية صغيرة . فهل تعدنى باحضارهما غداً ؟

— إذاً أنت أحضرت الكراسة معك ؟ فهاتِها ، ولكِ علىّ أن آتيك بما طلبته .

— لا أكتمك ، إن شئت الصدق ، أنى أحضرتها ؛ ومع هذا فلن أعطيك إياها اليوم ، بل غداً حينما نلتقى فى الصباح لنشترى سويا هاتين القطعتين ، أعنى السوارين ، لأنى أفضل أن أكون معك حتى أدلك على الجيد من الأساور ، فهذه صناعتنا معشر النساء ، و إن كان ذوقك أيضاً لا بأس به ، فضلا عن أنه لا بد من قياسهما على ذراعىّ حتى يكونا محكمين ، أليس كذلك ؟

— لكن ما شأن هذا وشأن إعطاء « اليوميات » الآن ؟ وهل لا تثقين بى إلى هذا الحد ؟

— كلا ، و إنما أحببتُ أن أزيدك شوقاً وتلهفاً إليها ، و إلا فنحن على اتفاق فى أن هذه الهدايا لا صلة لها « باليوميات » ، وليست ثمناً لقراءتك إياها ، فما تقدر « يومياتى » بأى ثمن مهما غلا .

— عفواً ، عفواً ! فما إلى هـذا قصدت . إنما أردت أن أقول ... إنه لا داعى لزيادة التشويق ، فما عندى من الشوق كاف لاحتراق ، بل واحتراقك أنت لو صدقتنى .

فتبسمت وقالت : ولَوْ !

فأجبت : بربِّك إلا خففت من عذابى ، وماذا يفيدك أن أقطع الليل ساهراً متحرقاً إلى الغد فى انتظار هذا الـكنز الثمين ؟ أيلذ لك تعذيبى ؟

— أحياناً !

— ولماذا وأنا لا أحمل لك إلا كلّ إخلاص وحب ؟

— لـكى تزداد بى تعلقاً .

— أ كثر من هذا ؟ لقد ملـكت علىّ كلّ نفسى .

— هذا كلام كثيراً ما سمعته ولم أعد أصـدق منه شيئاً ، لأنه سرعان ما يتبخر بعد خروجه من الشفاه على الرغم من أنه صادر من فم أبرد من الجو ، لأنه غير صادر عن صدق ولا إخلاص .

— لقد قلت لك مراراً وأ كدت بل أقسمت بمغلّظ الأيمان بأننى مخلص فى تعلقى بك كل الإخلاص ولست كغيرى من الآلاف التى مرت بك لقضاء لذات عابرة ، فإما نالوها ، وإما تركوك قائمة . فأتوسل إليك — للمرة المائة بعد الألف ، أو الألف بعد المائة ، لست أدرى — أن تثق فى عاطفتى نحوك كل الثقة ، لأن تشككك فيها يحُزّ فى نفسى كثيراً ، وأنا أخشى من هذا الإيلام الذى لا داعى له .

— قلتُ إنى لن أعطيك إياها إلا غداً ؛ بهذا أمرتُ وما عليك إلا الطاعة .

فقلتُ : أمرى لله ! إذاً إلى غدٍ ولا تنسى ليس فقط أن تحضريها ، بل وأيضاً أن تتعطفى علىّ بها ، لأن فى مجرد إحضارها مع عدم إعطائها إيلاماً أشد من عدم إحضارها إطلاقا ، فأرجو أن ترحمينى من مثل هذا العذاب الذى عانيته اليوم .

— إن شاء الله !

واستسلمتُ للأمر على مضض واضطراب ، وا كتفيت بأن مَسَحْتُ بهذا الـكنز البائع السر بواسطة أناملى المشوقة المتلهفة .

وكان اللقاء صبيحة الغد ، وقـد تأخرت عن الميعاد تأخراً ملحوظاً ، فجاءت تتعجلنى

وتقول : انهض مسرعاً قبل أن تغلق محلات المجوهرات أبوابها ، والأمر يحتاج إلى شيء من الوقت لإتقان الاختيار .

— « واليوميات » ، أما أحضرتها ؟ إذاً أرينيها ؟

— ليس لدينا الآن وقت طويل ، فأرجوك أن تسرع و بعد أن ننتهي من هذه المهمة سيكون لدينا متسع من الوقت .

فنظرت إليها وأسلمت أمرى ونهضت من مقعدى ، ومضينا ندخل محلا بعد آخر حتى عثرتْ على ضالتها وكانت باهظة الثمن ، فنقدته البائع مع هـذا ، وفى شيء من الحسرة ، لـكن لم يكن من هذا بد ، فما قيمة هـذه المبالغ إلى جانب ذلك الـكنز الفريد ! هكذا كنت أقول لنفسى وأنا أخرج حافظة النقود بيد مرتجفة متألمة متثاقلة .

ثم ذهبنا إلى أحد المطاعم المجاورة ، وكان مطعماً بلدياً ، ومع هذا فقد كان يجيد الشُّواء كما لا يحسنه غيره ، فنال شهرة واسعة فى هذا اللون من الطعام ، حتى إن الوفود كانت تتوالى عليه من أقصى الأماكن ، بالرغم من موقعه البعيد عن وسط المدينـة ، وكان أكثرهم من عِلية القوم ، على الرغم من قـذارة الحى الذى يقع فيه و بُعْد المـكان عن وسائل النظافة الحديثة فى الأدوات التى يُتناول فيها الطعام أو يُتناول بها . ومع هذا فيجب أن يقال أيضاً إن هـذا الحى الذى يقع فيه المطعم حىٌّ حقاً : حىٌّ بآثاره الإسلامية الرائعة التى تـكدست فيه مع هذا فى غير عناية ظاهرة ولا اهتمام بأمر من سيزورونها ، خصوصاً من السائحين ؛ وحىٌّ كذلك بتجارته النشيطة إلى أبعد حدود النشاط ؛ وحىٌّ ثالثاً بالروح الدينية الصوفية العميقة التى تسود أرجاءه ، حيث تؤويها هذه الآثار المقدسة من مساجد ومدارس وسُبُل ، خصوصاً من عهد المماليك ، لهذا كان يلذ لى كثيراً أن أزور هذا الحىّ لأستروح هذا الجو العابق بالقداسة الرطبة ، وأتنسم البَخور فى الروح الشرقية التى تسوده ، وأملأ رئتى بهوائه الدينى الصوفى المخدِّر . وكم أفادتنى هذه الجرعة من الدواء ! لقد كنت أستعيد بها شيئاً من الروح الشرقية الممتازة بالطراوة والرخاوة والأحلام الذهبية المخدِّرة والصوفية الشاحبة المريضة — أستعيده حتى لا أتوهم أنى نسيت نفسى الأولى نهائياً بفضل الجو الغربى الثقافى الذى كنت أحياه فى بطون الـكتب أو فى ذكرياتى بأوربا ، ولا بأس على المرء أحياناً — مِنَّا معشر الشباب — أن يستسلم لهذه الروح الشرقية الناعمـة المخدرة فى بعض الأوقات والساعات ،

على أن يكون هـذا الاستسلام مؤقتاً كنوع من المشروب أو المخدر الذى ينسى المرء شيئاً من قسوة الحياة وصلابتها ، و إلا فإنه إذا استمر كان تأثيره تماماً كتأثير الإدمان على غيره من المخدرات ، إذ لا شك فى أن كليهما مخدر ، فلا يجب إذاً الإدمان عليه . ألا فليأخذ كل من هذا الدواء برفق !

ولما فرغنا من طعامنا تجولنا جولة قصير فى زُقاق ملتوٍ يضم دكاكين لبيع التحف الشرقية وشىء من العاديات المصرية الفرعونية ، وهى جولة كُنت أقوم بها دائماً إذا مازرت هذا الحى ، فبدونه لن تكون للزيارة قيمة ، لأنه يُتم ذلك الدواء الشرقى الذى تحدثت لك عن بعض مركّباته : ففى تخطيطه مثال كامل لتخطيط المدن الشرقية ، لأن ضيقه الشديد والتواآته العديدة هما اللذان يتفقان مع الجو الشرقى بشمسه المحرقة وقيظه المهلك ، لذا مايكاد المرء يدخل هـذا الزُّقاق حتى يتفيأ ظلاًّ ذا ثلاث شعب ، حقاً لا مجازاً : شعبة من الظل تكونها هذه السقوف المتقاربة تكاد تلتصق وتتعانق ، وشعبة ثانية تكونها أرضه المبتلة باستمرار ، وشعبة ثالثة هى هذا الجو الفاغم العطر الذى يخيّل إليك أنك فى حمام باردٍ مُزِجت مياهه بماء الورد والزعفران . واللون الغالب على هذا الزقاق هو الأصفر : يتمثل فى سُبُحات من كهرمان وعقود من خرز غليظ من الكهرمان أو فصوص من الياقوت الأصفر ؛ وفى الصِّحاف النحاسية التى يستخدم بعضها للقرع بدلا من الأجراس ، و بعضها لحمل الأوانى ؛ وفى قوارير العطر والزهريات الخزفية ، ثم فى كثير من الأدوات الجلدية . ولا عجب فهو اللون الأصيل للون الذهبى الممثّل للروح العربية السحرية خير تمثيل . و إنك لتعجب من هـذا الخليط العجيب من السجاد الشرقى الإيرانى وقد كشف عن صبر الفنان الشرقى على التفاصيل والجزئيات حتى ضلت الوَحْدة الفنية وسط هذا العماء الرهيب من الخطوط . و إن شئت بعد هذا أن تظفر بتلك الوحدة ، فلن تجدها إلا فى ذلك التكرار المتواصل لوحدة زخرفية واحدة ، لو أن فى التكرار وحدة !

و إنك لتعلم مقدار حرصى على العطور الشرقية بحسبانها خير ممثل لتلك الروح ، حتى ليكفينى أن أستروح شذاها الفاغم كيما أحيط نفسى بجو شرقى كامل أُحِسُّ بنفسى تحلق فى أرجائه الناصعة و بدنى يتقلب بين طنافسه وحشاياه الوثيرة الشهوانية . فى هذا الزُّقاق تعثر على ضالتك من العطور بمجرد دخولك فيه ، أعنى أن جَوّه كله يعبَق برائحتها المخدِّرة التى

تلعب بالرأس فيدور كما تدور رؤوس الدراويش المولوية . والحق أنه لا شيء أدعى إلى إثارة الجذبة أو النشوة عندى من العطور الشرقية الفاغمة . فلغيرى أن يلجأ إلى المطعومات من المخدّرات أو المشروبات من الخمور لإحداث تلك النشوة أو الجذبة ، أما أنا فيكفينى المشموم من تلك العطور .

لكن لم يكن فى الوسع الاستمرار على تعاطى هذا المخدْر لمدة أطول ، وإلا أصابنا دُوار يهوِى بنا إلى قاع الرخاوة الشهوانية والصوفية الرطبة المعتمة ، فصِحت بأعلى صوتى : النجاء النجاء والفرار الفرار قبل أن ننحدر إلى هذا القرار ! وحمدت الله على أن مدينتنا هذه قد جمعت بين الجانبين : الشرق والغربى ، وإن أصبحتْ بهذا لا شرقية ولا غربية . والتمسنا الخلاص فى مقهاى الأليف . وما استقر بنا المجلس حتى سألتها أن تخرج كنزها الثمين.

فأجابت : أنا آسفة كل الأسف على أننى لم أستطع إحضارها ، وأخشى أن أكون قد فقدتها فى السيارة التى عُدْت بها من المرقص مساء الأمس أو بالأحرى بعد منتصف الليل . لكن لدى الأمل فى أن أستعيدها ، إذ كانت تجلس معى فى السيارة إحدى زميلاتى من بنات الهوى ، فلعلها أن تكون قد وجدتها واحتفظت بها حتى تعيدها إلىّ فى مساء اليوم بالمرقص . فأرجو أن تكون فعلا قد عثرت عليها ، كما أرجو منك أن تغفر لى هذه الغفلة .

— لكن كيف يمكن أن يحدث هذا وقد كانت الكراسة فى حقيبتك ، فماذا أخرجها؟

— أنت تعلم أننا معشر بنات الهوى نحب أن يباهى بعضُنا بعضاً بما نظفر به من هدايا يأتينا بها الأصدقاء . وفى عشية الأمس أحضر لى أحد أصدقائى وشاحاً من الحرير الفاخر وبضع أدوات للزينة ، أودعتها الحقيبة حينما أخذتها منه ، وفى أثناء عودتى مع زميلتى أخرجتها منها ، وقد كانت تشغل منها فراغاً كبيراً حتى ضاقت بما فيها — ومنها « كراستى » — حتى اضطررت إلى أن أخرج كل ما فى الحقيبة وعلى رأسه كراسة « اليوميات » التى أريتك بالأمس — أليس كذلك ؟ أنت رأيتها بعينيك ؟ — ، فيبدو لى أننى حينما أرجعت هذه الأشياء إلى مكانها فى الحقيبة نسيتُ أن أضعها فيها ، أعنى « كراسة اليوميات » ، ولم أنتبه إلى هذا إلا اليوم وأنا قادمة إليك حينما فتّشْتُ عنها : وقد رأيت كيف أننى لم أجبك فى الحال حينما سألتنى عنها لما أتيتُ إليك ، وما هذا إلا لأننى كنت حزينة كل الحزن عليها ، ولم أشأ أن أفسد علينا يومنا هذا بإنهاء هذا الخبر الأليم إليك منذ اللحظة الأولى .

أليس هذا هو الأصوب ؟ أوه ؟ لو تعلم أية كارثة ستصيبنى لو فقدتها ، لا قدّر الله ! إنها حياتى كلها تضيع من بين يدى بسبب طيشى أيها الصديق العزيز . وهذه الفتاة — زميلتى — أما تعلم قيمتها حتى لا تحضرها لى تواً منذ الصباح الباكر ، بل كان عليها أن تعود إلى منزلى بها فى الليلة عينها ؟ لشد ما أخشاه ألا تكون هى الأخرى قد تنبهت إليها . واحسرتاه إذاً ويا ويلتاه ! لكنها ربما — بل من المؤكد — أنها لا تدرى ما قيمتها ، ولهذا فإنها لا تعلم مبلغ تحسّرى عليها وقلقى من أجلها — أعنى « اليوميات » — وكيف تعلم هذا وأنّى لها به وهى فتاة جاهلة عَلِمَ الله فيما ذا كانت تشتغل قبل هذا : خادمة ، غسّالة ... أوه ! لست أدرى على وجه التحديد ، لكنها صارت اليوم شيئاً آخر تماماً ، وقد أُنسيت أو تناست كل هذا الماضى المشرق . هِنّه ! فاصبر إذاً ياعزيزى ، و بعد الصبر الفرج إن شاء الله . أو تكون أشد قلقاً على هذه « اليوميات » منى أنا ، أنا صاحبتها ؟

— لقد رأيتِ بالأمس مقدار حرصى على قراءتها وتلهفى على الحصول عليها ؛ أما كان هذا كافياً لزيادة تنبهك إلى صيانتها والسهر عليها ؟ ولماذا لا تُفقد إلا أمس بالذات بعد أن أريتنى شكلها — وإن لم أنظر فيها ولم أدر ما فيها على وجه التحقيق ، بل لم أعلم إن كانت تلك الكراسة تحتوى « يوميات » أو تحتوى غيرها أو لا تحتوى شيئاً إطلاقاً ، لأنكِ بقيت ممسكة بها وأكتفيتِ بأن جعلت أناملى تمس ذلك الحجر الأسود برفق وتهيُّب ؟

— ما هذا ؟ أتعود إلى السخرية والتشكك فى صدقى ؟ إذاً وأنت على هذه الحال من إساءة الظن لِمَ لم تطلب إلىّ أن أقرأ لك منها شيئاً حتى تستيقن من أنها « يوميات » حقا ؟ لكنتُ إذاً قد قرأت عليك بعض فقراتها ، حتى لا أتهم هذه التهمة الشنعاء التى أردت إلصاقها بى الآن . أما تقلع إذاً عن هذا التشكك الذى أخشى على صلاتنا منه كل الخشيان ؟ أو تحسبنى من هذا الضرب من بنات الهوى اللائى يحدثك عنهن الناس ويذكرون عنهن الأعاجيب ؟ فلتعلم إذاً أننى أشرف من كل الفتيات اللائى تزعمون أنهن من أُسَر — ماذا ؟ — كريمة أو عالية ، وما هُنّ إلا ...

— الواقع ، يا آنستى — الكريمة العنصر الصافية المعدن ، لا شك فى هذا ، لا ! لا ! — أننى لم أقصد إلى اتهامك ، حاشا ، أوه ! حاشا ! إنما أردت أن أقرر واقعة فحسب هى أننى لم أدر بالدقة ماذا فى تلك الكراسة التى لوحت بها بيدك ، بل وجعلتنى ... ماذا ؟

أتشرف بلمسها وأحظى بقربها وأنعم بحضرتها . وليس فى هذا التقرير ما يجنح بك إلى مَظِنة اتهامى إياك بشىء .

— لكن عباراتك ، حتى فى هذا الاعتذار ، لا تخلو من رائحة التهكم والسخرية ، أفما يدعو هذا إلى تلك المظِنة ؟

— كلا ! إنما أنا ألجأ إلى مثل هذه التعبيرات — التى قد تبدو أحياناً على هذا المظهر الساخر لو أنها صدرت عن غيرى ، أو عنى بالنسبة إلى غيرك فى ظروف مماثلة أو مغايرة — من أجل تلطيف حرارة جو الغضب والانفعال الذى تثيرينه دائماً حينما يقوم بيننا نزاع خفيف . فلا تأخذى كلامى إخْذة الجِدّ ، ولا تفسريه بمظهره ، بل خذيه على أنه نوع من الدعابة والتفكهة ؛ أو على أنه لوثة تصيبنا أحياناً معشر المولعين بالألفاظ الطنانة واللهجات الفنية غير المألوفة ، هى لوثة فنية من غير شك ، أرجو ألا تحمّليها فوق طاقتها المسكينة . وما كان لمثل هذا أن يندّ عن فهمك وأنت فنانة — أليس كذلك ، على الأقل لأنهم يطلقون عليك لقب « أرتيست » ، أى فنانة ، بالفرنسية ، وإن بخلوا عليك بها بالعربية ؟

— أوه ! قاتلك الله ! إنك لداهية لا تكاد تعدَم حيلة فى الاعتذار عن أقوالك بما لديك من سَعَة فى التصرف فى القول . وهذا ، وإن كان أحياناً من عيوبك ، فهو أيضاً من مزاياك التى تحبّب فيك وترغّب إليك . لهذا فإنك أحرى بالشفقة والرثاء منك باللوم والتأنيب . هِئّه ! مسكين !

— إذاً فاغفرى لهذا المسكين مكره فيما تزعمين . والآن ما العمل ؟

— فيمَ ؟ فيما يتصل بدفتر « اليوميات » ؟ انتظر حتى آتيك بنبأه بعد غدٍ أو أُحْدِث لك منه أمراً .

— أىُّ أمر ؟ كلا ، كلا ، بل فتشى عنه جيداً وأنا مستعد أن أطلق الباحثين والعيون فى كل مكان ، وأن أبذل أى شىء فى سبيل الحصول عليه . ولكن لماذا بعد غد ؟

— أرجو من الله ألا نحتاج إلى هذا كله وأن يعفينا من تكاليفه . أما السر فى إرجائه إلى بعد غد فهو أننى لا أعلم على وجه التحقيق أن الفتاة ستحضر إلى المرقص اليوم ، فهى كثيراً ما تتغيَّب ، لا لسبب أو فيما يقولون بسبب رجل تحبه وتتعلق به ، بل وتبكى دائماً لانصرافه عنها . مسكينة هذه الفتاة ! إن الرجل لا يستحق قطرة واحدة من تلك الدموع .

ولـكنها مجنونة ، إى والله مجنونة ، ساذجة ، لم تفهم شيئاً بعد من الحياة .

— لمـاذا هذه النعوت كلها ؟ أبسبب تعلقها وحبها لرجل ، أم لأنها تتعلق بهذا الرجل بالذات ؟

— بل بالرجل أيا كان . فلو خبرتَ ما خبرتُ من أحوال الرجال إذاً لما انساقت وراء هذا الوهم الـكاذب .

— يبدو إذاً أن تجاربك معهم بلغت غاية المرارة . وليت شعرى من المسئول عن هذا الإخفاق : أهم المسئولون أم أنت ؟ لـكنى أرجو ألا تـكون تجربتى و إياك من هذا النوع .

— أما عن تساؤلك عمن تقع عليه التبعة ، فستعرف هذا من دفتر « اليوميات » — أواه ! مَنْ لى به الآن ؟ ليت شعرى أين ترقد أيها الدفتر الحبيب ؟ ألا بورك كل مكان حللت به ، أوه ! — وترى حقاً معادنكم معاشر الرجال . هيه ! هيه !

— لماذا كل هذه الزفرات ؟ فلعل هـذه وجهة نظرك أنت ، وأنتن معاشر النساء لا تستطعن أن ترين الأشياء إلا من زاويتـكن الخاصة ، ولا تقدرن على تقدير وجهة نظر الغير ، لأنـكن لا تعرفن التعاطف والمشاركة الوجدانية ، بل تنطوُنَّ على أنفسكن فى قلعة أثرتـكن الحصينة .

— أوه ! لا داعى لـكل تلك الفلسفة التى لا قِبَل لأمثالى بها . وسأكتفى بأن أدع أمامك الوقائع كما دوّنتها فى «يومياتى» وعليك أنت أن تحكم ، ويعلم الله كم كنتُ صادقة فى روايتها لأنها لم تـكن غير حديث النفس إلى نفسها، وما كنت أقدّر أن سيطلع عليها أحدٌ يوما ما.

— لـكن كلمة الوقائع كلمة خداعة ؛ فما هى إلا الصور التى كونتِها أنت لنفسك ووفقاً لهواك ووجهة نظرك . وهذا لا يخلو من الغرر والتغرير ، حتى من دون أن تعلمى وتقصدى .

— ماذا على إذاً ؟ سأترك لذكائك الخارق — أليس كذلك ؟ — أن يتوسم الحقيقة من خلال هذا كله .

— لـكنك تتحدثين هكذا وكأنك لا بد واجدة « يومياتك » المفقودة ، فما السر فى كل هذه الثقة ؟

— لا سرّ مطلقاً ! كلا ! لا شىء ! إنما هو التفاؤل يحملنى على هذا . ومع هذا فقد أردفت قولى هذا بأن قلت : أو أُحْدث لك منه أمراً .

— وأى أمر ستحدثينه أيتها الشيطانة ؟ كلا ! بل أنا لا أعدل بهذه « اليوميات » أى شيء كان .

— فصبرٌ جميل إذاً !

وهنا لا بد أن أقرر لك أيها الصديق أننى كنت لا أزال أثق بأنها لا تغرِّر بى عن هذه « اليوميات » ، وكان لدىّ من الثقة بها ما يحملنى على تصديق كلامها واعتذاراتها . لكننى لم أفهم بعدُ السرّ فى كل هذا التأخير فى تسليمها إلى ، حتى تبينته بعد حين . فقد كنا نلتقى من بعد ، فأحياناً تعتذر بأن الفتاة لم تحضر بعد ، لأنها سافرت ، وأحيانا أخرى كنا نصمت خوفاً من إرهاقها بهذا الإلحاح . ثم أنبأتنى بأنها استطاعت بعد جهد جهيد أن تعرف عنوان تلك الفتاة الضالَّة ، وأنها أرسلت إليها كتاباً تسألها فيه عن حال تلك الكراسة . وأنا لم أحاول من جانبى أن أسعى إلى المرقص وأنظر حقاً جلية الأمر فيما يتصل بغياب تلك الفتاة ، بل كنت قد تحاشيت ارتياده منذ أن عرفت صاحبتى هذه فضلاً عن أنِّى لم أشأ تكذيبها فتعزيت قليلا ، ولم أعد أتحدث عن « اليوميات » إلا لماماً . وخلال هذا كله كنت أرسل إليها الهدية تلو الهدية كيما أتملق رضاها وتسمح « باليوميات » ، خصوصاً والشك قد بلغ من نفسى فى صدقها ؛ وأخيراً تبينت لنفسى أنها إنما تؤخر وتماطل لأنها تريد أن تظفر بأكبر قدر من الهدايا ، ولم أشأ أنا أن أخيِّب رجاءها فى هذا المكر ، بل تحملته صابراً راضياً طمعاً فى غنيمتى الكبرى هاتيك . وما كنت أنْحى عليها بالملام الشديد لموقفها هذا ، فهذا جزء من عملها اليومى ، وتلك مهنتها الرئيسية فى الحياة . فإن لم تلجأ إلى هذه الشصوص الذهبية تريد أن تنتشل بها أكبر قدر من الغنائم ، فكيف تعيش وفيم تشتغل ولماذا إذاً قد سلكت ما سلكت من سبيل ؟ لهذا طويتُ حِيَلَها على غَرِّها وتابعتها على الانحدار مع نياتها .

لكن ، كان لا بد لهذا كله من نهاية ، ولصبرى من حدٍّ وغاية ؛ فبدأت أنصرف عن طلبى وسؤالى عن « اليوميات » حتى أغفلت ذكرها تماماً من أحاديثنا ولم أعد أظهر بعدُ أى اهتمام بها ولا شوق إلى الظفر بها . فلما أبصرَتْ هذا منى خشيت أن يكون الطُّعم نَفِدَ من الشصوص ، ولن يعود فى وسعها بعد أن تغرينى حتى تنتشل منّى ما تهوى . روّت فى الأمر وقدرت أن إظهار « اليوميات » الآن سيعيد التشويق والاهتمام ، فضلا عن أنه

سيدعو إلى الثقة من جديد فيما تبذل من وعود لى ، فأحكمُ خطة لاستعادة الثقة أن تعلن أنها وجدتها عند فتاتها المزعومة — هذا على أن تحتفظ بجانب من التشويق ليستمر فى إحداث أثره فى نفسى فأحقق ما تُرَجّى منى من مال وهدايا .

فنى ذات مساء أقبلت علىّ فى وكر لقائنا المعتاد متهللة الوجه باسمة الثغر مزهوة القسمات . فاستقبلتها مدهوشاً ، لأن صلتنا وجلساتنا كانت قد بدأت منذ حين يصيبها شىء من الفتور غير قليل ، وصحتُ : ماذا وراءكِ ؟ هل من جديد ؟

فأجابت : وأىّ جديد ! لقد عثرتُ على ضالتك المنشودة .

— أية ضالة تقصدين ؟

— إيه ! أنسيت سريعاً ؟ يا لك من ماكر خبيث .

— أقسم لك بأننى لا أمكر ولا أتخابث ، بل أقول جِدّا ؟

— ألا تعرف ضالتك التى كنت ستُضيع عمرك من أجلها ؟

— أوه ! لعلك تقصدين تلك اللوحة التى تحرقتُ على ضياعها فى ذلك المزاد اللعين وتأسفت على أنى لم أحصل عليها ؟ أوجدتِها عند واحد من تجار العاديات ؟

— إيه ؟ بجدِّك هذا ؟ يا لك من ماكر شيطان ! لكنى لستُ أقل منك مكراً فسأدعك تحدِس وإلا لم أعطك إياها ، وإنها معى .

— آه ! لا بد أنك تشيرين إلى تلك « اليوميات » التى كنت قد سألتك إياها ولكنك زعمتِ أنها فُقِدت أو لم تعثرى عليها ؟

— وهى كانت قد فُقِدَت حقاً أو كادت لولا أن أرسلت إلىّ فتاتُنا — لعنها الله — بها بالأمس عن طريق البريد . ويظهر أن رسالتى لم تبلغها إلا متأخرة جداً ، كما يبدو من رسالتها إلىّ المرفقة بكراسة « اليوميات » . لكن أحقاً نسيتَها إلى هذا الحد أم هو داؤك القديم ، داء المكر والخبث الذى توسمته فيك منذ عهد غير قريب ؟

— إن شئتِ الصدق قلتُ إنى لم أنسها ، لكنى ما تخيلت أنك تقصدينها ، لأنك كدت تؤكدين لى منذ حين بعيد أنها فقدت ، أو على الأقل أن الأمل فى العثور عليها صار أوهى من خيط العنكبوت ، وأنت تعلمين أنى أصدقك فى كل شىء تقولينه ، لهذا عزيت

نفسى فى مصابى هذا ، واعتصمت بالتسليم والصبر الكظيم .

— وأنا بدورى لا أريد أن أكذبك فى اعتذارك هذا ، وها هى ذى أدفع بها إليك ، لا كاملة ، بل ينقصها قسم — وإن يكن الأهم — فإنه لم يكن فى وسعى حينما راجعته أن أدفع به إليك هكذا بكل بساطة ، إذ يتضمن صفحات دامية هى أشد صفحات حياتى هولا وترويعاً ، حتى إن جراحها لا تزال كما هى فى قلبى ، فخشيت إن مسها أحد الآن أن تغِذَّ وتَضرُوَ فأنْزِف أو أُترَكَ ساهفة ، ولن يكون لى بعد هذا حيلة فى أى بُرْء . ثم إن هذا القسم فى حاجة إلى مراجعة وتنقيح لأننى كتبته وأنا فى حالة تشبه الحُمَّى إن لم تزد عنها ، فجاء الخط عسير القراءة ، وجاءت الكتابة عصبية غير مرتَّبة ولا مفهومة أحيانا .

— ألا يزال البخلُ ديدنك ، والتعذيب بالتشويق وسيلتك ؟ قاتلك الله !

— صَدِّقْنى ما قلت إفْكا . وعلى كل حال فإنى أرجو أن أكونَ قد فرغتُ من مراجعته وتنقيحه ، حينما تكونُ أنتَ قد فرغت من قراءة هذه الأقسام الباقية . بل ستكون اللذة بهذا التأخير أكبر ، والفهم أيسر وأوفر .

— اللهم إنك تعلم أنه لا فائدة من محاجَّتها ، فلك الأمر ! هكذا دعوت وأخذت منها دفترها .

ثم عدت فى تلك الليلة إلى منزلى وأنا لا تسعنى الدنيا كلها فرحة بهذه الغنيمة الكبرى ، ولم يغمض لى جفن حتى أتيت على قراءتها كلها خلال ثلاثة أيام متوالية ذقت فيها طرفاً من الراحة غراراً أو مَضْمَضة . وعلى الرغم من صغر المدة التى جرت فيها أحداث هذه اليوميات فقد كانت من التشويق والسعة والقدرة على التحليل بحيث ملأت قرابة ألفى صفحة من الحجم الأنيق على الورق الرشيق ، ذى اللون البنفسجى والرائحة النديّة العاطرة بأفخر أنواع الياسمين والأرِيج والقَرَنْفُل .

لكن الكثير من هذه الصفحات إنما يدور حول شئونها الخاصة من ملبس ومأكل ، أو حول صلاتها بزميلاتها فى المرقص ؛ والصفحات الرائعة حقاً هى تلك التى تحدثت فيها عن مغامراتها مع الرجال وما كان بينها وبينهم من معارك حافلة بالدماء ، وعن مشاعرها نحو الأحداث التى تمر بها ، وعن نظراتها فى الناس ، ثم تلك التى وصفت فيها عصارة خبرتها

بالأحياء من كل الأنواع . وقد اختلط هـذا كله بطريقة عجيبة بحيث يصعب على المرء أن يستخرج الجواهر الحقيقية من هذه الحمأة المستوحلة التى لا يكاد المرء أن يعرف لها قراراً ولا ساحلاً . وهأنذا أحاول أن أستخرج بعضاً من هذه الجواهر ، بعد أن أرتبها وأوفّق بين أجزائها وأهَبها الصيغة الفنية المقبولة . وليغفر لى الربُّ سوء اختيارى إن قصّرْتُ فى هذا الأمر . ولا جُناح علىّ فى إذاعتها ، الآنَ وقد فعلت بى ما فَعَلتْ فانبَتّ ما كان موصولا بيننا من عهود .

يوميات احدى بنات الهوى

٢ فبراير سنة ١٩٣٩ — اليومَ بدأ عملي بمرقص « رجينا » ، وهو بناء خفيف من طابقين : يستخدم أعلاهما في الشتاء والآخر في الصيف ؛ والأول بهو فسيح في وسطه موطىء الرقص وفي مواجهة بابه الرئيسي مدرَّج خشبي تجلس عليه فرقة الموسيقى ، وحول الموطىء قد استدارت الموائد الخشبية الصغيرة والكبيرة ، في ممرات فسيحة ، لا تلبث أن ترتفع مرة أخرى على هيئة مدرج جانبي متصل بالجدران . و إلى جانب هذا البهو يشاهد الداخل عن يمين صَفَّين من الغرف الصغيرة ذات الأرقام ؛ وعن يسارٍ غرفتين غير مرقومتين عرفتُ من بعد أن إحداهما للرجال من الراقصين المحترفين والأخرى للراقصات المحترفات ، وتلحق بهذه الأخيرة حجرة صغيرة يخلع فيها من بنات الهوى من لا يرقصن — مثلي أنا — ثيابهن المعتادة ليستبدلن بها ثياب السهرة . وليس ثمت ما يسترعى النظر في البهو غير أدوات الإضاءة وقد تعددت وتنوعت ، ثم الصور المرسومة على الجدران ، وكلها تمثل نسوة عاريات يغازلن نفراً من الشيوخ ، أو كيوبيد وهو يطلق سهامه إلى القلوب الجريحة المترامية أمامه ، أو مناظر رقص وموسيقى . واللوحات كلها قد رسمت بطريقة أولية ، خالية من التأنق الفنيّ ، مثل تلك الصور التي كنا نراها مرسومة في بعض طبعات « ألف ليلة وليلة » .

وقد اتخذت مجلسي مع صديقتيَّ إلى مائدة تبعد قليلا عن الحانة (البار) ، وجلست أتفرّس الوجوه الوافدة فرأيت شبابا مختلف الأنواع ، وشيوخا تقرأ في وجوههم كؤوس الشراب وقد مُزِجت بألوان المجون ، وترتسم على سيماهم أخاديد السهر المُضْنِي والانفعال التافه . ورأينا إلى جوارنا زميلاتنا من بنات الهوى يتضاحكن مشيرات إلينا ، والخبث والاستخفاف ولون من التأنيب تتبادل الارتسام على وجوههن ونظراتهن ، وكنّ يتهامسن بعبارات لم يكن ثمت شك في أنها تعنينا . وأخيراً تقدمت إحداهن منا وقالت : أحديثاتٌ أنتن ها هنا ؟ فقلنا : نعم ! فقالت : وأين كنتن قبلُ ؟ فأجبنا : هذه أول مرة نزاول فيها هـــذه المهنة . فقالت : مسكينات ! وماذا حملكن على هذا ؟ إنها مهنة ويلٌ لمزوالاتها منها : تقتل النفس ولا تفيد كسباً ، فكل ما يأتي منها يضيع فيها ؛ وما من فتاة استطاعت أن تخرج منها سليمة

فى أية ناحية من نواحيها ، فإن سلمت بالمال ، لم تسلم بالصحة ؛ وإن سلمت بالصحة ، خرجتْ صِفراً من المال . أواه ! إنها استهلاك دائم لا إنتاج فيه . ومع هذا فلا مناص من مزاولتها . فهذه ضربة قدر يصيبنا بها الله .

فقلت : لكنكنّ تستولين على جيوب الرجال ، فأين يذهب كل هذا المال ؟

فأجابت : نستولى على جيوبهم ؟ آه من الرجال ! ستعرفين بعدُ كيف يتم هذا الاستيلاء وما نبذله نحن من نفقات على أنفسنا حتى نظفر بشىء ، ويا ويحنا مما نظفر به : لا يلبث أن يضيع عبثاً فى أدوات الزينة — وما التزين إلا لهؤلاء الرجال — ، وفى العلاج — وما أفسد صحّتنا إلا هؤلاء الرجال — ، فهم إن أنفقوا فإنما ينفقون على أنفسهم ، ولا تصدق أننا معاشر الفتيات نستفيد شيئاً . لهذا أنصح لكنّ ، إن كنتن عاقلات ، أن تتفقدن مهنة أخرى : فأية مهنة مهما يكن ما تدرّه على المرء ، خيرٌ من هذه المهنة البغيضة . أو إن شئتُنّ جرّبن وسترين مصداق قولى بأعينكنّ .

فقالت إحدى صديقتىّ : وماذا يحملك إذاً على مزاولتها ما دمت تصوّرينها بهذه الصورة الكريهة الأليمة ؟

— إنه البختُ قد قضى علىّ بهذاب العذاب .

— أى بخت تقصدين ؟

— أوه ! لا داعى لذكر شىء من ماضىّ الأسيف . لعن الله الحظ ! ولعن الله من تسبب لى فى هذا الشقاء ! يا لها من دنيا غادرة . وهل تظنون أن هذه حالى وحدى ؟ أوه ! هيهات ! هيهات ! فما من فتاة ترينها أمامكن الآن — على الرغم مما تسمعن الآن من ضحكاتهن ، وترين من بسماتهن ، وتلمسن من حركاتهن — إلا وفى قلبها مأساة رهيبة . لكنه العمل يدعوهن إلى هذا الضحك المغتصَب والانتعاش المصطنع : حياتنا كلها نفاق وتكلف واصطناع . أوه ! ليت الله لا يحكم عليكن بها ! آه ! ولكن ماذا أقول ! لقد دخلتن فعلا فى هذا الميدان ، وأمامكن أن تجرّبن .

فقلت : كل إنسان ساخط على مهنته ويحسَب أن مهنة غيره — أيّا كانت — أفضل من مهنته وأشرف : من أعلى المهن حتى أدناها . فالأمر إذاً لا يتصل بهذه المهنة وحدها . بل الشكوى عامة فى كل فن ومكان .

وهنا أقبلت فتاة أخرى كانت تنظر إلى حديثنا من بعيد ، واستندت إلى كتف الفتاة التى حدثتنا ، وتدخلت تجيب عن قولى :

— لها الحق يا تينا ؛ إنما أنت تظنين أننا وحدنا البائسات فى مهنتنا . لقد بلوْتُ عديد الرجال ، وما منهم إلا تحدث عن مهنته ساخطاً ، شاكياً ما يلقاه فيها من عنت وإهانة أحياناً . أجل ! بل احمدى الله ! فنحن نعيش حُرّات : لا زوج يسومنا العسف ويقضى الليالى البيض هاجراً إيانا ، دون أن نستطيع التمرد أو اللوم ، ودون أن نرفّه عن أنفسنا كما يرفه هو عن نفسه ، وهذه لونا ، وأنت تعرفين قصتها مع زوجها ، سليها تخبرك الآن أنها فى مهنتها هذه أسعد حالا مما كانت أثناء الزواج ، هيه ! ماذا كسبت المسكينة من زوجها ذاك ؟ لا شىء إلا المتاعب والشقاء والحرمان ، وفضلا عن هذا فإن مهنتنا هذه هواية لذيذة ، لعب فى لعب : لعب بعقول الرجال ، ولعب بالأموال ، ولعب بكل ما نلقاه من أحوال ؛ وهكذا نمضى العمر فى سرور مقيم دون أن نحمل هماً ، إنما ينشأ الخطأ فى المهنة إذا ما أُخِذت على سبيل الجد ، فنظن أن هناك شيئا يسمى الثقة أو الصدق أو الإخلاص فى الحب أو الأمانة فى المعاملة أو العطف ، إلى آخر كل هذه الكلمات الزائفة فى سوقنا هذه ، فبها لا يمكن التداول والتعامل ، وإلا حلت الخسارة الكبرى وكسدت السوق . لأصحاب الحياة الجادة أن يتداولوا بتلك العملة ، أما حياتنا اللاهية فنسخر منها ونحتقرها ، ومن يدرى أجدٌ تريد بنا الحياة أم لهواً ! فعليكن بهذه الحكمة ، يا بنات :

اغتصِبْن من الرجل كلّ ما يمكن اغتصابه وبأقل ثمن تستطعن دفعه .

لا تعرفن الحب وانبذْن كل عاطفة ، والويل لكنّ إن جَنَحْتُن إلى الرحمة أو سمحتن للقلب بالتدخل فى أعمالكن .

لا تصْدقْن فى قول أبداً ، بل اتخذن الكذب عصاكن السحرية تفتحن بها كل باب ؛ فالرجال من السذاجة — حتى أعقلهم — بحيث يميلون دائماً إلى التصديق .

إن آنستن فى الرجل أنه لم يعد نافعاً — ونافعا نفعاً وفيرا — فاطّرِحْنه فى الحال ؛ فما الفائدة بعدُ فى ليمونة أخذتن كل عصارتها ؟ !

لا تأْتُنَّ حركة إلا إذا جرّت إلى منفعة محققة ، وفاضِلن بين أنفع الحركات ، والويل لكنّ إن سخوتن بحركة أو بوقتٍ — أيا كان — لم يدفع ثمنهما مقدما أو مؤجلا بفائدة باهظة .

اتجِرن بالثقة و بعنها من الرجال ، لـكن لا تبتعنها منهم أبداً .

هذا دستور بنات الهوى ، فحذار أن تخالفن عن أوامره ، و إلا هلـكتن ، وهنالك لن يتقدم أحد لإنقاذ كن . إن مهمتنا أليمة قاسية ، لـكنّ ثمارها شائقة غالية ، فـكن جديرات بهذه الثمار ، تظفرن منها بالخِيار .

صادفت هـذه الـكلمات هوى عميقا فى نفوسنا نحن الفتيات الثلاث لأنها تحقق حلمنا القديم بالانتقام ، وتقوّى إيماننابأننا سنصيب الأغراض التى رسمنا لأنفسنا ، فصفقنا لفتاتنا المحنكة الحـكيمة هذه فى أعماق قلوبنا ، وأمضينا الليلة نراجعها فى عقولنا ، بينا نحن نتطلع إلى برنامج الرقص والغناء .

ولقد انقضت هذه الليلة بيضاء ، على حد تعبير بنات الهوى فى لغتهن الخاصة ؛ أى لم يجلس إلينا فيها أحد ، لأننا كنا من السذاجة وعدم الفهم للمهنة بحيث لم نصب بسهامنا أحداً ، لا لشىء إلا لأننا لم نعرف كيف نستخدم هذه السهام : فـكانت النظرات تترامى إلينا ، فنخجل ولا ندرى بماذا نجيب عنها ؛ وكان الفتيان يمرون إلى جوارنا باسمين ، فلا ندرى كيف يمكن أن نبدأ معهم الحديث ، وأصحاب الجرأة والقحة منهم ، ممن كانوا يسخرون منا بعبارات لاذعة هى الوسيلة إلى الحديث ، كنا نحمر خجلا من التطلع إليهم ، ولا نحير جوابا ؛ فإن ازداد قولهم فحشا وهُجْرا ، اكتفينا بالانطواء على أنفسنا وصب اللعنات على الحظ العاثر الذى ألقى بنا فى هذا المـكان .

٩ فبراير — بدأنا نتقن شيئا من فنون المغازلة : فإن بسم لنا أحد بسمنا له ، بل كنا نغاضن بعض الشباب الذى نتوسم فيه رقة الطبع والحاشية ، غير أن الأمر لم يكن ليتجاوز هذا ، فلا زلت فى حيرة من أمرى . كيف أبدأ رجلاً بالحديث المغرى المتلائم مع الغاية التى أنشدها من جلوسى و إياه ؟ لهذا لا أستطيع بعـد أن أغادر الزاوية التى أنتحيها كل ليلة مع صديقتى كأننا نقوم إذاً بالتمرين فى الهواء — إن صح هـذا التعبير — ، بدلا من محاولة الغوص فى الماء والمران بين أحضان الأمواج .

أما الرواد فهم هم تقريبا ، خصوصا من يجالسون بنات الهوى ؛ والتغير لا يتناول إلا الذين يحضرون لمشاهدة البرنامج ، وهؤلاء إما أسر متحررة أو فتيان صغار ، أو شيوخ معهم خليلاتهم .

١٧ فبراير — صارت عيون الشباب تلتهمنا من كل جانب ؛ ثم نراهم يشكون إلى النُّدُل هؤلاء « العفيفات » المضحكات ويسألونهم عن الفائدة فى وجودنا ما دمنا لا نجالس أحداً ، فيكتفى النُّدُل بإنغاض رؤوسهم ساخرين ناظرين إلينا قائلين : « إنهن لا زلن أفراخا لم ينبت بعدُ فى أجنحتها الريش . لكن اصبروا عليهن قليلا ، وأنا زعيم لكم بأنهن عما قليل سيشيعنكم إلى منازلكم كل ليلة أصفار الجيوب . صبراً ! صبراً ! وحذار من هذا النوع خاصة ! لقد قضينا العمر فى مهنتنا هذه ومرت علينا من أمثالهن آلاف وآلاف » .

٢٠ فبراير — بالأمس حين العودة فى منتصف الليل أرسل إلينا صاحب المرقص فَمَثَلْنا أمامه ، وإذا به يفهمنا بلهجة لا تحتمل المقاطعة أنه لن يستطيع قَبولنا بعد فى مرقصه ، إن بقينا على خجلنا المضحك هذا ، وراح يلقى علينا دروساً فى كيفية النجاح فى الحياة بالنسبة إلينا ، منذراً بقسوة الحياة وعدم رحمتها لأحد من الناس . فوعدناه أن نكون عند أمره منذ الغد .

ولأول مرة أفقت إلى مطالب هذه المهنة ، وقد كنت حتى ذلك الحين لا أرى منها إلا وجهاً مشرقاً ساذجاً : وجه مشاهدة الرقص والألعاب ، والتمتع بنغمات الموسيقى ، والتلهى بمناظر الوافدين والخارجين .

وفى أثناء الطريق اشتورنا سوياً فيما يجب عمله ، فقلنا لنستعِنْ بفتاتنا الكبرى ، نينا ، هذه الفتاة المحنكة الحكيمة ، فهى التى ستخطو بنا الخطوة الأولى فى هذا السبيل . ويالها من معلمة ماهرة !

٢٢ فبراير — اليوم كانت تجربتنا الأولى . فقد اقتادت نينا إلينا شابين من معارفها القدماء ، قدمتهما إلينا ، وجلس أحدهما إلى جوارى ، وأوصتهما بنا خيراً ، وكاسرت عينها علامةَ أن هذا صيد جميل لهما فلينعما بهذه الهدية ، وجلست معنا بضع دقائق ، ثم نهضت لفرائسها الجديدة ، وخَلَّفتنا مع هذين الشابين .

بدآ بأن تضاحكا فلم يكن بُدٌّ من أن نبادلهما هذا الضحك ، وإن كان فى شىء من الخجل والاستحياء ؛ ثم جرى الحديث حول أسمائنا ، وانثنى إلى الراقصات اللاعبات أمامنا ثم عرّج إلى السينما وما فيها من روايات جديدة ، وأى الممثلين والممثلات أحب إلينا . وكانت الأسئلة كلها ترد منهما ونحن نكتفى بالإجابة الخجول البسيطة . وطلبا لنا شيئاً من

الشراب ، فاعتذرنا ، فألحّا ، فأحضر ولكنا لم نكد نحتسى منه شيئاً . و بعد ساعة مرت بنا فتاتنا الرائدة ، نينا ، ونظرت إلينا بابتسامة ما كرة ثم قالت للشابين : ألا تزالان جالسين معهن ؟ وأنتن ، ألا يزالان معكن ؟ أوه ! ولكنكن حديثات .

لم أفهم قصدها من هذه العبارة إلا حينما أوشك المرقص أن ينفض وودّعنا الشابان ، فمالت إلينا هذه الفتاة وقالت : لا ! ما هكذا تورَد يا سعدُ الإبِل ! إن المهنة تقتضى منكن ألا تُطِلن المكوث مع أحد ، بل بدّلن كثيراً ولتتبادلكن أكبر أيدٍ ممكنة فى الليلة الواحدة ، حتى لا يفلت أحد من بينها ؛ والمثل الأعلى فى هذه الحالة أن تتقلبن على كل الحاضرين فى كل ليلة . هكذا يقضى العمل . ماذا ! أنسيتن سريعاً ذلك الدستور الذى ألقيتُ موادّه عليكن ، مع أنى لم أذكر إلا البنود العامة ؟ لا ! لا !

فى تلك الليلة نبا بى الفراش ، فما حاولت النوم إلا مَذِلنى وتجافانى ، فبتُّ أكابد الهمّ وأدامر الليل وأنا أفَكِر فى هذه الكلمات التى ألقتها علىّ الفتاة ، وفى هذه التجربة التى مررت بها الليلة . وها أنذا أفزع إليك — أيها الدفتر الحبيب — لعلى أن أجد فى الإفضاء إليك ببلابل صدرى ما يخفف من عذابى .

كيف أدنّس شفتى بابتسامة منافقة أغتصبها من هاتين الشفتين المسكينتين اللتين لم تعرفا من قبل غير الصدق أو ثغر الأهل أو قُبلة الحب الصافى الطهور ؟ وكيف أمزّق لسانى بكلمات كاذبة تدور حول الحب — ألا غفرانك أيها الإله الأقدس ، فقد وَطِئتُ بأقدامى الآثمة قدُسَ أقداسك فى هذا اليوم الرهيب فى تاريخ حياتى — ؛ وحول العواطف ، وقد كنت منها خالية صافرة ؟ وكيف أكون غير هذا ولم تكن بينى و بين الفتى الذى جالسنى أية مودة سابقة ولا شعور متبادل ولم نكد نعرف بعضنا بعضاً ، ومع هذا فقد تلفظنا بهذه الكلمات المقدسة : الحب ، العاطفة ، الإخلاص ؟ وكنت أشعر بجفاف ريقى وتلعثم لسانى وأنا أتفوه بها ، ومع هذا فلم يكن فى وسعى إلا أن أفعل هذا . وكيف أسمح لجسمى أن يُمَسّ على هذا النحو الوضيع وهو يجلس إلى جوارى ، وما كانت مَسّاته إلا وخز الإبر ولدغات العقارب ؟ وعبثاً كنت أحاول دفعه عنى ، فقد كان سَرْعان ما يهيب بصديقته القديمة ، فيتبادلان نظرات سخرية منى ، فأضطرّ إلى التغاضى عن حركاته الأليمة هذه .

وكل هذا لقاء دراهم معدودات ! فيا و يلتاه ! ألا ليتنى مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً !

ثم تلك الكلمات الرهيبة التى أنبأتنى بها تلك الشيطانة الفاجرة ، وهى تريد أن تهدينى سبيلى وتعظنى فى مهنتى ! لو اقتصر الأمر على شاب أتعرّفه ويتعرفنى وأقتصر عليه ، إذاً لهان الأمر قليلا ، إذ يمكن أن نتظاهر بأنه حب صادق غير مأجور . لكن المهنة فيما تقول هذه اللعينة تقضى أن أقلّب بين كفّى أكبر قدر من الحاضرين ، فهل يمكن النفسَ الإنسانية أن تنزل إلى هاوية من الفساد أبعد غوراً من هاتيك ؟ كم يتطاير فؤادى هَيْعَةً وترتعد فرائصى فرَقاً وأنا أتمثل فى ذهنى معنى هذه الكلمات الفظيعة ! يتهاوى الفتيان بين يَدَيَّ ولا أشعر بأية صلة أو رابطة أو عاطفة تجمع بينى و بينهم ! ثم ما بالك إذا كانوا شيوخاً ، لتلك إذاً الطامة الكبرى ! فقد يغرينى أن يجمع بينى و بين الفتيان وصفُ الشباب ، أما هؤلاء الشيوخ الذين شابت نواصيهم وتخدّدت وجوههم وتهدمت قاماتهم وامّحت أضواء قلوبهم ونفوسهم حتى صاروا كالجيف الحية أو أضلّ سبيلا وأسوأ حالا ، فماذا سيكون أمرى معهم ؟ ومع هذا فإن أستاذتى الواعظة تنصحنى بتجنب الشباب قدر الإمكان — لأنهم غالباً قليلو المال رقيقو الحال ، وفيهم مكر كما أن فيهم مغريات على الحب والعاطفة ، وهما فى دستورها المذكور آنفاً محرمان كل التحريم — ، والاتجاه بالأحابيل نحو الشيوخ فهم فى الغالب سِمان الجيوب ، وفيرو الموارد ، سهلو المقادة ، يبذلون ولا يشعرون ، ويدفعون الأثمان الباهظة دون أن ينالوا إلا النَّذْر اليسير ، بينما الشباب يتقاضون البضاعة كاملة وأحياناً مضاعفة . عليكِ بالشيوخ ! عليك بالشيوخ ! هكذا تنصحنى دائماً . فياحسرتاه ! وبُؤْساً لنفسى إن قبلتُ هذا ، بهذا كنت أجيبها ، فتبتسم مؤكدة أنى سأقبله راضية مندفعة ، بل سيأتى علىّ حين لن أنشد غيره . وعبثاً كنت أحوقل وأستغفر ، أيها الدفتر العزيز ؛ فقد كانت نظرتها من اليقين والثقة بما تعنى بحيث أيقنت أن هذا لا بد واقعٌ وكأنه قدرى ومصيرى . فلا أكاد أتعلق بشىء من الأمل حتى تردنى نظراتها القاتلة — نظرات المصير الجبار — بعنف وقسوة إلى حيث ينتظرنى السقوط الإنسانى بكل معانيه . وكانت هى تهون من أمر هذا كله بتذكيرى بأنى لا زلت فى البدء ، والبداية صعبة كما يقولون ، والشعور لا يزال حينئذ غضاً ، لكن عما قليل سيزول كل تأثر ويصبح كل ما آتيه عادياً ، بل سيتبدى كأنه هو وحده المألوف .

٧ مارس — صدقت الفتاة ! فقد بدأت أشعر بعذاب التأنيب يخف قليلا قليلا ،

والسحب التى تجمعت فى سماء الضمير بدأت تنقشع شيئاً فشيئاً ، وهى لا بد ستصفو عما قليل ، أو بالأحرى سيزول هذا الضمير نهائياً بعد حين : فما صفاؤه إلا خلو نفسى منه ، أى ذهابه وفناؤه .

وآية ذلك أننى صرت أدير الحديث ، مع من يلقى به الحظ إلىَّ من فتيان وشيوخ ، فى يُسْر وبراعة ؛ ولم أعد أجد حَرَجاً فى أن أبسم لبعض الحاضرين المجاورين ، بينا أنا أتحدث إلى هؤلاء ؛ وأنى لا أطيلُ المكْث مع واحد منهم ، فلا بد لى على الأقل من أن أقلِّب بين كفىَّ اثنين أو ثلاثة فى الليلة الواحدة ؛ وأنى إذا أطلقت ضحكة أو عبارة ملاطفة لم أجد لها فى داخل نفسى صدى واضحاً ؛ وأنى أصبحتُ أحرصَ ما أكون على مزاولة عملى هذا ، بعد أن أوشكت مراراً على تركه ، حين كنت أتغيب عنه اليومين أو الثلاثة أفكر فيهما فى أمر نفسى وهل أوغل فيما بدأت أو أكُفُّ حيث أنا وكفانى ما نالنى من ذلَّة ومهانة .

ولِداتى من بنات الهوى قد لاحظن على وجهى اطمئناناً ، وفى حركاتى مرونة ونشاطاً ، وفى عباراتى استخفافاً وثباتاً وزيادة فى القِحَة ، فأقبلن يزْفُفْن إلىَّ أحر التهانى على هذا التطور السريع البديع الذى بلغته . وجاءت الشيطانة ، أستاذتى الكبرى ، تُرَبِّت على كتفى وهى تقول : هنيئاً مريئاً يا صغيرتى ! أما أخبرتك بهذا منذ اللحظة الأولى ؟ على بركة الله !

وحتى هذا أيضاً « على بركة الله » ؟! هكذا صِحْتُ فى داخل نفسى ، وقلت : غفرانك يا ربى ، أى شىء بقى لا يستعينونك أنت وبركتك فيه ! ويل لى ولنينا اللعينة من عذابك الغليظ .

٢٨ أبريل — يا لها من لذة رائعة تلك التى أشعر بها وأنا أزاول هذه المهنة ! وأية لذة أجمل من أن نعبث بعقول العديد من الفتيان والشيوخ ، ونلهو بجيوبهم كأنها كُرات خفيفة فى ملعب الشهوات الزائفة ! كبار الناس يتحدثون عن هواية الصيد والقنص للطيور والحيوان الأعجم وما فيها من متعة كبرى لا تكاد تعدلها أيةُ متعة أخرى ؛ لكنهم لم يعرفوا بعدُ أعظم المُتع وأعنف العواطف والانفعالات ، تلك التى يحققها الصيد والقنص لذوى العقول من الأحياء . فبقدر ما يَفْضُلُ العاقلُ الحيوانَ الأعجم ، تفوق متعةُ صيد الرجال

من بنى الإنسان متعةَ صيد هذا الحيوان . إى والله ! إنها لمهنة مثيرة حقاً صرت أشعر بكيانى يهتز كله طربا منها .

لهذا بدأت أفكر فى تدبير المناورات وحياكة المؤمرات ووضع الخطط المحكمة للكر والفرّ كيما أضمن الظفر فى هذا الميدان الشائق . وبالأمس بدأت أول تجاربى فى شاب غِرّ كله براءة وسذاجة ، وعلى الرغم من هذا ، أو — إن شئت أن أصارحك بالحق ، أيها الدفتر العزيز الذى لا أريد ، عَلِمَ اللهُ ، أن أخفى عليك شيئا — أقول : أو بسبب هذا فضلت اختياره ميدانا حتى أكون موقنة من الانتصار الحاسم السريع . وإذا كان ضميرى — ولا تزال فيه بقية من حياة وذَماء : تتردد بين الحين والحين — قد انثنى علىّ بشىء من الملام لأننى على الأقل قد استضعفتُ فهجمتُ ، فإننى سرعان ما لاطفته ببضع عبارات حتى سكت عنى . أواه ! رَحِمَ الله ضميرى القديم ! فلقد كان والله صُلْباً لا تلين له قناة !

رأيته فى جماعة من أصحابه يكبرونه سنا وتجربة فى الحياة العاصفة المضطربة ؛ وكان خجولاً حَيِيا يبدو عليه أنه من أصل ممتاز ، كما كان يظهر على هندامه آثار النَّعمة الوفيرة والثراء الواسع ؛ وكنتُ قد رأيته من قبل مرةً أخرى فى تلك الزُّمْرة نفسها ، لكنه لم يكن يشاركهم فى مُضْطَرَبهم وتلاعبهم بيننا معشر بنات الهوى ؛ ومع هذا فقد لاحظت أنه دفع للنُّدُل الحساب كلَّه ؛ فأثار هذا انتباهى ، كما أثاره ما بدا عليه من سذاجة وطيب نفس ، فعزمت لئن عاد لأُلْقين عليه حِبالتى . فلما عاد بالأمس أثأَرتُ نَظَرِى إليه منذ أن أبصرته ، ولم أفارقه بعيونى على الرغم من أنى كنت أُجالس فتى آخر ينفق هو أيضا عن سَعَة ، حتى لاحظ هذا إخوانه معه وبدأوا يتهامسون ويتضاحكون . فسألهم السر فى هذا الضحك ، فأجابوه ، فيما يبدو من إشاراتهم ، أن هنالك فتاةً (وأشاروا إلىّ) مولعة به ، فهى دائبة النظر إليه لا يكاد بصرها يفارق شخصه ، فلعلها أن تكون قد وقعت فى غرامه . وبعد إنكار من جانبه وتوكيد من جانبهم بدأ يرنو إلىّ فأجبته بابتسامتين شهيتين ، فأدرك شيئا ؛ فعدت أنا أضحك بصوت عالٍ وأرنو إليه ، فازداد يقينا وتبين لى من حركاته أنه قابلٌ لأن يؤخذ أسيراً . فأنشأت أنا أتدلل وأتكلف عدم النظر إليه ، مع إقبالى على فتاى الذى يجالسنى (ولعله قد لحظ أن فى الأمر شيئا ، لأنه بدأ يستنكر هذا الإقبال المفاجئ بعد إعراض) ، فأغَرْتُه بهذه الحركة الأخيرة ، وبقينا على هذه الحال قرابة ساعة نتردد بين

كر وفر وإقبال وإدبار من جانبي وجانبه حتى كللنا معا من هذه المناورات ، ففكر هو فى طريقة للاتصال . هنالك عاد يسأل إخوانه صحة ما أكدوه مرة أخرى وطالبهم بالدليل المادى عن طريق التجربة بأن يأخذوه إلىَّ ويعرفوه بى . ونهض خجلانَ قد لفَّ الحياء رأسه متعثراً بين الموائد والأقدام الممتدة حواليها ، مع اثنين من خلانه . وفهمتُ من اتجاههم أنهم يقصدوننى . فاستأذنت فتاى الذى أجالسه فى مفارقته برهةً ، وانتحيت ناحية حاجز الحانة (البار) وتلبثت عنده ملياً ؛ فأقبل ثلاثتهم إلىَّ وقال الآخران إن صاحبهما معجب بى ، بل مُولَّه تَبَّله حبى (إلى آخر تلك الألفاظ الرخيصة التى لا ثمن لها مطلقا فى هذه الأماكن) . هنالك تباهلتُ بالعرفان وأنكرت أنى لاحظته قبل الآن أو نظرت إليه ، وحاولا هما أن يراجعانى فى هذا ، فأصررت على الإنكار ، ثم بدأت أتعرف بالحديث إليه هو ، فسألته هل يريد الجلوس فأجاب بالإيجاب ؛ ثم بدأنا نتحدث ، البدء الثقيل الذى تعودته مع كل من يأتى إلى هذا المكان ؛ ولما سألنى هل أطلب مشروبا اعتذرتُ ، وألححت فى الاعتذار وأصرَّ هو فلم أجد بُدًا من القبول وتواضعت فى نوع المشروب (ولا تنسَ ، أيها الدفتر الحبيب ، أن هذا كله نفاق ومناورة) . ثم تحدثنا ملياً ، وكان هدفى من أسئلتى معه أن أعرف مركزه الاجتماعى والمادى ، دون أن أشعِره بشىء من هذا المقصد . أوه ! لقد برعت فى توجيه الحديث إلى حد أن أذكى الفتيان لم يكن ليتوسم مقصودى إلا بأشد العناء بل لايبلغه إلا وهو مُسلِّم بما أرمى إليه ، فلا ينفعه بعدُ إدراكه غرضى . ولات ساعة تدارُك !

ثم افترقنا على أن يكثر هو من التردد على المرقص .

٩ مايو — لم يُسْعِد الحظُّ إحدى صديقتىَّ ، فاضطرت إلى مغادرة المرقص الذى نعمل فيه ، بل المدينة كلها . فقد كشف أمرَها أحد ضباط الشرطة ممن يترددون على مرقصنا ، وكان صديقاً لوالدها بحكم المهنة ، فخافت الفتاة أن يَفْتَضِح أمرها ؛ لهذا عجلت بالفرار من هذا المرقص أولاً ثم من المدينة نفسها لأن الضابط قد تتبع تنقلاتها وتردد على المرقص الجديد الذى ذهبت للعمل فيه . لهذا فارقتنا وسافرت إلى إحدى المدن الداخلية .

مسكينة هذه الفتاة ! لقد ترددت الشائعات حولها فى الأيام الأخيرة لإقامتها بين ظهرانينا ؛ وازدادت سوءاً ونكالاً بعد أن سافرت . إن نفسى لتحدثنى بسوء مصير هذه الفتاة .

لقد أطلت التفكير فى أمرنا و بدأت أراجع نفسى ، وحاولت أن أتبين شيئا من المستقبل بعد أن تصدّع ركن من أركان هذا الثلاث الذى ظلّ مخلصا بعضُه لبعض وتابع حياته معاً ، فكان كلٌّ يعين الآخر على بلواه أو يشاركه فى ملهاه أو يقاسمه فيما غنمه واقتناه .

و إلى جانب هذا كله ، فإنى لأندبُ حظ الفتاة كلَّه وأشعر بشىء من الندم العنيف لأننى ساهمت فى إلقائها فى هذه المأساة ، على الأقل بالقول و إعطاء المثَل السىء . إلهى ! تُرى ماذا سيكون مصيرها فى مدينتها الجديدة ، وهل لن تطاردها العيون الفضولية والشائعات السريعات فى الانتقال ، حتى يَفتَضح أمرها مرة أخرى ؟ غفرانك اللهم ! إنك تعلم أنى لم أضمر لها شراً ولم أقصد إليها إساءة ؛ وكلتانا فى الهمّ سَواء : اللهمّ وفقّها فى عملها الجديد ، وجنّبها عيون الفضوليين !

دموع ؛ وزفرات ؛ وسهاد ثقيل .

٢٣ مايو — نصحنى لِداتى أن اتخذ اسماً مستعاراً ، شأن كل بنات الهوى المشهورات والفنانات الممتازات ، وقد كنت حتى ذلك الحين لا أصرح باسمى إلا للقليلات ، والقلائل ، وكان الآخرون يكتفون بإطلاق ما يحلو لهم من أسماء وألقاب ، بيد أنه تبين لى أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو طويلاً ، فضلاً عن أنه سيعوق طريقى إلى الشهرة . لهذا نزلت عند نصيحة هؤلاء الزميلات . لكن الصعوبة كلها كانت فى اختيار الاسم ، أيكون اسم تدليل من مقطعين متكررين مثل نينى وفيفى وزيزى ؟ حقاً إنه خفيف ، لكنه سيثير الفضول و كثرة السؤال عن الاسم الأصلى الذى اشتق منه هذا التدليل ، وأنا أريد التخلص من هذه المضايقات التى قد تفيد أحياناً فى بدء الحديث بين الرواد و بينى ؛ لكنه فيما عدا هذا يثير من المتاعب أكثر مما يفيد ، وأخيراً اهتديت إلى الكشف عن اسم جميل هو اسم جدتى لأبى ، وأعنى به سِرْفناز ؛ وكان يعجبنى وأنا أسمعه فى مهد الطفولة حينما كان أبى يثير بعض ذكرياته معها ، ورأيت أنها قد ماتت منذ عهد طويل جداً ، فأبى نفسه لم يرها لأنها توفيت وهى تضعه ؛ وهذا وقتٌ كاف لنسيانها . وللاسم مزايا عدة ، أهمها أنه يتناسب مع قَسِماتى التركية ؛ وأن هذه النسبة التركية خليقة بأن تزيد من تعلق الناس بى ، لأنهم أَلِفوا القول بأن التركيات جميلات ، وخليقة أيضاً بأن تجعل الناس يغتفرون عُنْجُهِيَّتى

وحماقتى فى بعض المواقف ، وكلتاهما من غير شك نافعة فى زجر الثقلاء أو الدلال على الغافلين .

أما الفتى الساذج — ص — فيزداد بى كلَّ يوم تعلقاً ؛ وهو دائب التردد على المرقص منذ يوم تعارفنا ، وقد علمتُ من أمره أنه من أسرة مُنَعَّمة باليسار والجاه ، لكن والده قد توفى عنه وعن إخوة آخرين منذ عام فصار ينفق عن سَعَةٍ وإن لم يكن بعد قد اندمج تماماً فى أوساط اللهو والمجون . أما أمّه فلا تكاد تُحس بشيء مما يفعل ، وهى فى شُغُل عنه بابنتها الكبرى وزوجها الجديد ، ويبدو أن الفتى كان قد نُشِّيء تنشئة قاسية تحت سلطان أبيه ، فلما انزاح عنه هذا النير انطلق فى غير تأثُّم ولا وقار ، فلم يعد يرجو لأسرته العريقة وقاراً ، ولم يكد خلان اللهو يتوسّمون ثراءه وانطلاق ذات يده حتى أسرعوا باختطافه واحتضانه ؛ وها هو ذا اليوم ينفق عليهم من سَعَته ، وهم مع هذا لا يحملون له عاطفة ودٍ ولا يمحضونه نصيحة ؛ وكل ما يفعلونه أنهم يجعلون تصرفاته مُضْغة فى كل الأفواه ويتندرون بأفعاله فى كل المجالس ، وما منهم له ناصح ولا شفيق . أستغفر الله ! بل هم أكثر الناس تحريضاً له وتشجيعاً على الإيغال فى هذا المسلك ؛ فتراهم يُطرون كل ما يفعل ويتملقونه فى هذه التصرفات الخرقاء .

حقاً إنه لطفل متلاف ؛ حتى إنى أنا — أنا التى أفرغتُ قلبى من كل شفقة — قد بدأتُ أشعر بالعطف عليه .

٢٩ مايو — لأول مرة أجلس مع ضابط أجنبى من البحارة الذى يمرون فى سفنهم بثغرنا هذا . وكان قد أسرف فى شراب الخمر إلى أبعد حد ، وهنالك تغلبت على نفسه شراسة فى الطبع ، وركب عُرُعُرَه ، وأصبح يميل إلى المشاجرة مع الحاضرين ، وهذه ظاهرة نبهتنى إلى المقارنة بين طبائع الأوربيين والشرقيين ، ولم أجد مَعْرِضاً للمقارنة خيراً من تجلِّى الطبيعة الأصلية إبان نشوة السُّكْر ، ولقد صدق مُسلم بن الوليد حين قال : (وهو بيت لا زال أذكره جيداً من بين محفوظاتنا فى المدرسة) :

كأنك بى قد أظهرَت مَضْمر الحشا ... لك الكأسُ حتى أطْلَعَتْك على سِرِّى

فالمصرىُّ والشرقى عامة ، لا يتجاوز فى سُكره حدَّ المجون والمزاح الخفيف ، وإذا زاد لم يتجاوز حد الترنح والقذف الرقيق فى مقصده ؛ وعلى العكس من هذا تجد الأوربى فى الدرجات العادية للسُّكْر يكشف عن ضِراس وغِلاظة وشدة شكيمة ، وتراه يثور ويجأر

محطِّما كل ما تمسه يده من أشياء وأحياء ، وبالجملة تُبعث فيه غريزة المقاتلة بكل ضَراوتها وفطرتها الأولى . أفما يدل هذا على دماثة الخُلق عند الأول ورقة حاشيته وتسامحه ، وعلى وعورة خلق الآخر وعَرَامة مزاجه ؟

لكن من يدرى أين وجه الخير : أفى الأول أم فى الثانى ؟ لو حكمنا بالإنتاج العقلى والمادى ، لكانت كِفة الأوربى هى الراجحة . فهل الخير فى الصلابة والقساوة ، والشرّ فى الدماثة والليونة ؟ يخيل إلى أن هذا هو منطق الحياة ، خصوصاً كما علمتنى تجربتى مع الناس منذ أن اطلعت على نفوسهم فى مهنتى هذه ، حتى إنى لما اطلعت عليها للمرة الأولى كدت أُولِّى منها فراراً وكدت أُمْلَأ رعبا .

وفى اليوم التالى قضينا معاً بضع ساعات . وقد أدهشنى فيه احتفالُه بى — كامرأة — فعجبت من هذه العبادة التى يقيمها الأوربيون للمرأة ، بينما هم لا يهتمون كثيراً بالتمتع بها بينما نحن الشرقيين الذين نقضى معظم عمرنا — أقصد الرجال منا — فى التفكير فى المرأة وما يتصل بها ونستنفد أحاديثنا كلها من حولها ، لانحتفل للمرأة كل هذا الاحتفال ، فقد كان يعاملنى كسيدة نبيلة — « سيدة » بالمعنى الذى كان لهذا اللفظ فى العصور الوسطى ، عصور الفروسية والنبالة ، مع أنه يعلم أننى لست إلا بنت هوى مأجورة ، أتُرانى أذمُّه على هذا أم أمدحه ؟! لست أدرى.

١٥ يونيو — بدأت أفواج المصطافين تتوافد على الثغر ، وتقبل منهم جماعات على المرقص ؛ لهذا بدأ رواده يختلفون عن ذى قبل . فبينما كان رواده خلال الشتاء من الفتيان والشيوخ المدمنين على الملاهى والمواخير ، وكانوا ذوى سخاء فى الإنفاق علينا نحن بنات الهوى ، صار رواد الصيف ممن ينشدون برنامج الرقص والموسيقى والألعاب أكثر من أن يحفلوا بنا نحن ، حتى كادت سوقنا تكسُد بعد أن كنا ننعَـم بالمال الوفير طوال الشتاء ؛ وفى مقابل هذا ازداد الرواد فاكتظ بهم المكان . على أن هناك نفراً من الفتيان المصطافين يغافل أسرته أحياناً ليجلس معنا . والعلة الكبرى فى هذا الكساد هى وجود هذه الأسر مما يحمل الفتيان والشيوخ على تجنبنا قدر المستطاع . ولست أدرى ماذا يجعل هذه الأسر ، « المحترمة الكريمة » كما يقولون ، تَغشى هذه الأماكن فى المصايف ولا تجد فى هذا حرجاً ولا تشعر بغضاضة ولا تأثم ، بينما هى نفسها تعدّ ارتياد هذه الأماكن (المراقص وما إليها) فى المدن التى يقطنون بها عاراً وجريمة كبرى لا تغتفر . فما هذا المنطق الغريب !

ألا شيئاً من المنطق إذاً أيتها «الأسر المحترمة الكريمة» حتى نستطيع نحن أن نعيش، وإلا فاسمحوا لأبنائكم بالجلوس إلينا!

٣٠ يونيو — وصلتني اليومَ رسالة من صديقتي التي سافرت، تخبرني فيه بسوء حالها من كل ناحية: فالمكان مُرْهق بحَرّه الثقيل، خصوصاً وهي من بنات الثغور؛ وزميلاتها من الفتيات يتجهّمن في وجهها ويتندّرن بها ويَحِكْن لها الدسائس عند الجميع: عند صاحب المرقص وعند الرواد، ويأخذن عليها منافستها إياهن ويحسدنها لجمالها الفائق بينا هنّ من طبقة الخادمات والغسّالات ومن في مستواهن، ولا تستطيع في أية معركة بين هؤلاء وبينها أن تقف على قدميها؛ ومَنْ لها بأمثال هؤلاء وهي الطيبة الأصل والعنصر! ولا يغريها قليلاً إلاّ سماحة أخلاق رواد المكان من أهل هذه المدينة الكبرى، فهم أرق حاشيةً من أبناء الثغور، وأكثر منهم براءة وسذاجة، فيمكن الصيدُ فيهم بسهولة أكبر. وقد وعدها أحد الشبان بالزواج، لكن الأمر لا يزال غامضاً كل الغموض. وبالجملة، فإن رسالتها تفيض يأساً وأسى. كان الله في عون المسكينة!

١١ يوليو — توثقت عرى الصلة بين فتاي الساذج — ص — وبيني، حتى كنا نتلاقى كل يوم تقريباً. وهو يُغْدق علىّ الهدايا من كل الأنواع: ملبس ومأكل ومشرب وجواهر ثمينة وأدوات للزينة، وأنا أيضا قد غاليتُ في استغلال هذه الناحية فيه. فلا نكاد نسير في مكان إلا أدخل وهو في صحبتي حانوتاً أبتاع منه ما أشاء، وبأي ثمن مهما غلا وأفرط في الغلاء. وهو يحتمل هذا كلّه صابراً مستسلماً لم أجده مرة يشكو. ومع هذا كله فأنا بخيلة عليه بكل شيء — حتى بالقُبَل. تُرى ماذا يحمله على هذا ويجعله يقنع بأقل القليل بينا يبذل لي الوَفْرَ الجزيل؟ أهي سذاجة وحماقة منه أم لحاجة في نفس يعقوب؟ لكن ما عسى هذه الحاجة أن تكون، والفتى يبدو في غاية السذاجة والبراءة؟ ليت شعري!

ولقد بدأت أتبذّخ على زميلاتي بهذه الهدايا الثمينة التي تنهال علىّ، بينا هن لا يكدن يظفرن إلا بالتافه القليل، حتى صار حديثهن يدور كثيراً حول هذه الصلة التي بيني وبين عاشقي الأبله هذا.

١٧ يوليو — يا للحماقة! كم أنا مغفّلة! لقد أثرت بهذا التفاخر مَوْجِدة هؤلاء الزميلات، ولم أكن أعلم أنه لا شيء يثير حفيظةَ بنت الهوى وغيظها أكثر من رؤيتها زميلتها تظفر

بغنم كثير . وإذا كان مثل هذا التفاخر مفيداً أحياناً بالنسبة إلى بنات الهوى المشهورات المحنّكات ، فليس هكذا بالنسبة إلىّ وأمثالى من المبتدئات . لقد كُنَّ يحتملننى حينما كن يرو ننى رقيقة المركز غير مرموقة الموضع ، أما اليوم فهنّ الحسد كلّ الحسد والحقد كلّ الحقد . وأنّى لى بمناضلة هؤلاء المعتّقات ؟ هيهات ! هيهات !

بدأت الدسائس تُحاك حولى ، والشائعات القبيحات تتجاوب بها أرجاء المرقص ، ولا ناصر ولا معين فى هذا الجو اللعين إلا صديقتى الوحيدة الباقية ، وهى لاحول لها ولا طَوْل أكثر منى : نحن إذاً صِفْران إن ضُما لاينتجان شيئاً . لكن هذا كله لم يفد مع هذا شيئاً : لأن جمالى كان أقوى من كل أراجيفهن ، إذ الجمال فى مثل هـذه الأماكن هو وحده السلطان والفَيْصل . لهذا رُحْن يفكرن فى طريقة أنجع ، فبدلا من الاكتفاء بالغارات الجوية التى قد تصيب وقد لاتصيب ، هجمن بكل أسلحتهن على موضع الشكوى ومثار الداء كله : داء الحقد الأزرق والحسد الرهيب ، وهـذا الموضع هو صديقى ص . فأقبلن عليه يحاولن اجتذابه إليهن أو صرفه — على الأقل — عنى بشتى وسائل الإغراء ؛ ودفعن إليه أجمل الفتيات بينهن — ولا تنس أنهن جميعاً حِلْف واحد — كيما تكون القادرة على اغتصابه منى . وفعلا بدأت هذه الفتاة مناوراتها معه ، وأخشى من المغبة وسوء النتيجة ، لأن لهذه الفتاة ميزات خاصة تعوزنى : فهى فارعة القوام ، رقيقة الحديث ، سهلة المقادة ، وهى صفات كثيراً ما تزيد فى إغراء المرأة ، خصوصاً بنات الهوى . فاللهم كن عونى فى محنتى هـذه وانصرنى على القوم الظالمين !

٢٥ يوليو — أصبحتُ أتتبع حركات صديقى ص بكل عناية حتى أعرف طبيعة صلته بهذه الفتاة ومدى تطوّرها . ومن ناحية أخرى وجدت أن خير وسيلة لصرف هذه الفتاة ، غريمتى ، عن هدفها ، أن أتودد إليها وأداورها ؛ فخير وسيلة لقهر الخصم أن تقتحم بالود قلبَه عساه أن يرعوى عنك . إذ من شأن هـذا الود أن يخفف من حِدّة الحماسة التى يناضل بها الخصمُ ، فتفلّ بهذا من شوكته ، لأن أقوى سلاح معنوى فى الخصومة هو الكراهية ، فكلما ازدادت وتغوّرت ازدادت حماسة من يقاتل ويناضل وهو يحملها فى قلبه . لهذا كانت الكراهية سلاحاً معنوياً من أمضى الأسلحة التى يستعين بها السياسيون .

وقد بدأتُ فعلاً فى تنفيذ هذه الخطة الحكيمة . فدَدكم يا أهل البيت !

٢٧ يوليو — يبدو أن الخطة تسير بنجاح : فإن الفتى قد ازداد بى تعلقاً — أو هذا هو ما يبدو على الأقل من أقواله .

وغريمتى تجلس معنا فى هذه الأيام كثيراً وتبدى اغتباطها بما بيننا من صلة ، بل وتلح فى توكيد هذا الاغتباط . إلهى ! أأصدّق ما تراه عيناى وتسمعه أذناى ؟

٣١ يوليو — اليوم عرض علىّ صديقى الزواجَ بطريقة أوضح كثيراً مما كان يفعل من قبل : فقد كان يدور دورات طويلة ملتوية ويشير بإشارات كلها طلاسم ومُعَمّيات وهو يريد أن يلقى فى ذهنى هذا المعنى ، لدرجة أنى لم أحفل بتسجيله فيك والإفضاء به إليك ، أيها الدفتر الحبيب . فما كنت لأصدق شيئاً من هذا ، فضلاً عن أنى كنت أتردد كثيراً فى الخوض فى مثل هذه المسائل أولاً لأنى كنت أراه فى مستوى عسير المنال ، وثانياً لأن بقية من كرم النفس والشفقة كانت تحملنى على صرف شاب كهذا عن التفكير فى ارتباط لا شك أنه سيجرُّ عليه كثيراً من الويل والثبور أولاً بالنسبة إلى صلته بأسرته ، وثانياً بالنسبة إلى مستقبله فى الحياة . ومع هذا كله فقد كانت تجول بنفسى رغبة دفينة ، لكنها قوية عميقة ، فى أن أرتبط بشاب كهذا يحقق لى كل آمالى فى الحياة : من توبة عن حياة آثمة وعَوْد إلى حياة كريمة إنسانية ؛ ومن استعانة بثرائه فى عيالة أهلى . ولا أكتمك ، أيها الدفتر العزيز ، أن هذه الرغبة كانت مستقرّة فى عمائق اللاشعور : توجّه كل تصرفاتى وحركاتى ، دون أن أستطيع إظهارها لأحد .

لم أشأ طبعاً فى أول الأمر أن أصدّق كلام الفتى ، خصوصاً أنه كان يلقيه بنبرة تنمُّ عن شىء من الاستخفاف وعدم الإخلاص ، بعكس الحال فى المرات السابقة ، مع أن هذه أكثر غموضاً . وبعد أخذ ورد كنتُ أظهر فيه بمظهر من ترده عن هذه الغاية وتصوِّر له عطفها عليه بحيث لا تريد أن تفسد ما بينه وبين أهله ولا أن تفسد عليه مركزه فى الحياة العامة ، وكان هو يجيب مؤمّناً على كلامى فى الغالب ، محاولاً أحياناً قليلة أن يرد عليه بما يناقض ما أقول ، لكنّ اللهجة كانت تنطوى على عدم صفاء النية فيما صدر عنه من اقتراح ؛ — أقول بعد أخذ ورد انصرفنا على أن يُفكر كلانا ويروّى فى الأمر مليا .

ولما انصرف عنه بدأتُ أراجع أقوال الفتى وأَزِنُ كلماته وأتذكر حركاته ونبراته وهو يفوه بها حتى استيقنت أنه لا بد أن يكون الأمر أعمق مما يبدو فى الظاهر .

هنالك تذكرت ملاحظة عميقة لست أدرى الآن أين قرأتها، تقول إن المحب الخائن يحاول دائماً تبرير خيانته بالإسراف فى توكيدُ حبه . فحينما تشاهد عاشقاً قد بدأ يغالى فى توكيد حبه و يرسل سيلا من العبارات الغرامية الملتهبة، فاعلم أن هذا دليل على ابتداء انصرافه عن معشوقه . فهو هنا يحاول أن يستعيض بالخارج ، أى بالألفاظ التى يتفوّه بها ، عن الباطن الذى بدأ يَفْرُغ . أما الحب الحقيقى فهو الحب الصامت الراقد فى وُحْدته الهائلة بين طوايا النفس الباطنة ، الذى لا يعلن عن نفسه إلا بإشارات غامضة مبهمة ، بحركات بسيطة لكنها على بساطتها فى غاية العمق ؛ إنه الحب الذى يعمل فى الأعماق و يكره التظاهر على السطح ، فتكفيه الهمسة أو الالتفاتة ، لا ليؤكد — فالتأكيد إنما يأتى بعد شك ، وليس ها هنا شك ، كما هى الحال تماماً فى حالة الإيمان الصافى الذى لا يشو به أثر من تشكك أو وسواس — ولكن ليتنفس قليلا دون صوت ولا حركة بادية ، شأن التنفس الإنسانى تماماً : لا صوت له ولا لون ولا حركة .

تذكرتها فخشيت أن يكون الأمر على هذا النحو فيما يتصل بعبارة صديقى وقلت : لعل هذا أول إعلان الهجران أو الانفصال . ومع هذا فإن أملى لم يمت .

و يشهد الله أنى ما كنت أشعر بحب صادق أو بحب إطلاقاً نحو الفتى فى أول الأمر ، إنما كنت أتخذه فى البدء وسيلة لابتزاز ماله واستغلاله إلى أقصى حد مستطاع . وآية هذا أنى لم أشعر بالشفقة عليه من هذه الناحية ، خصوصاً وقد رأيته لا يرفض لى مطلباً ولا يخالف عن أمر ألقيه عليه ؛ فكان أحرى بى — لو أنى أشعر بحب نحوه فعلا — أن أعفيه من هذه النفقات الباهظة حتى لا تبدو الصلة صلة تبادل منفعة وعملية اقتصادية آثمة . لكنك تعلم يا إلٰهى أنى قد بدأت فعلا ، منذ اللحظة التى أثارت فيها زميلاتى غيرتى عليه ، أشعر نحوه بشىء يسمى الحب ، حتى قَلّت مطالبى منه ، بل صارت صفراً فى الأيام الأخيرة . تُرانى لجأت إليه بسبب المنافسة حتى لا أُثقل عليه ؟ لا أظن . فقد كان قلبى يضطرب حقاً حينما أتفقده فلا أجده ، وكنت أُحَرِّق الأُرَّم ، وأنا جالسة معه و إلى جوارنا غريمتى هاتيك . لكن أتراه الاستئثار وخوف الضياع — بالمعنى المادى لهذا اللفظ — هو الذى كان يدفع بى إلى هذا ، ولو خفية ؟ لا أظن ، مرة أخرى . و إلا فما بالى أرتعد فرَقاً من مجرد تصور هجرانه لى وانفصاله عنى ؟ وما بالى أنتفض بهجة حينما أراه راضياً عنى مقبلا على ؟ بل ما

بالى أبكى وأنوح مخافة فقدان هذا الصديق ؟ لو كانت المسألة كلها مسألة مورد من الثراء أخشى نفاده ، فماذا كان يدعونى إلى هذا الاضطراب ، وأنا أعلم أن ثمت كثيرين غيره أكثر منه ثراء وأوفر نعمة ؟ وهل يمكن أن تنبض هذه العواطف الروحية السامية من أجل تلك الأغراض الوضيعة ؟ هيهات ! هيهات ! إليك عنى أيها الطائف الشيطانى الذى لاينى يصورٌ مسلكى كله على أنه نفعى مادى مبتذل وضيع ! إليك عنى أنت وترّهاتك الكاذبة الآثمة ، فأنا لا زلت — على الرغم من كل شىء — أحمل قلباً من الجوهر الكريم وإن علاه خَبَث لئيم وران عليه صدأ زنيم !

هو الحب إذاً ؛ لكن يا حسرتاه ! أخشى أن يكون قد جاء بعد فوات الأوان . اللهم إنى أعوذ بك من كل هذا .

١٣ أغسطس — قُضى الأمر ! وأفلحت اللعينة فى اغتصاب الفتى منى ، إن سذاجته نفسها هى التى ألقت به فى أحضانى ، وهى بعينها التى انتشلته من بين ذراعى ، لست ممن يتشاءمون من الأرقام ومع هذا فماذا أقول فيك ، أى يوم ١٣ ، وأنا أراك الفاصل الأكبر بين حُلم مضى ، وإن لم أشعر به إبان مروره بى وطوْفه ؟ فى أى برج ولدت أيها اليوم المشئوم ؟

قضى الأمر ! ولكن من الملوم ؟ أنا أم هو ؟

لو صارحت نفسى لقلت لها أولا : ألم يكن لى مخلصاً كل الإخلاص ، يبذل عن سعة ويترضانى فى كل شىء ، بينما كنت أبخل أنا عليه بكل شىء ؟ ألم أكن أغلظ له المقال ، وأكثر الدلال ، وأتعمد الإثقال ، وأجلب له من ناحيتى البلبال ، وهو مع هذا كان رفيقاً إلى درجة الرخاوة ، ذَلولا حتى الخنوع ، كثير التلطف والملاطفة إلى حد التملق الذليل ، لا أكاد أزعجه حتى يرضى ، أو أنفر عنه حتى يقطع الآماد الطويلة للقرب منى ، أو أظهر له أدنى سخط (وغالباً بلا أى مبرر) فيضرب الدنيا كلها من أجل إرضائى ؟ أجل ، لقد كان كذلك . فما الذى غرّنى بحبيبى الكريم فأفعل به كل هذا ؟ أطمعٌ فى غير مطمع ، وسوء تقدير لما ينفع ؟ ماذا عليك لو كنتِ بذلت له شيئاً من نفسك أيتها الجاحدة الناكرة ؟ ولماذا كنت تبذلين الكثير لمن كانوا دونه مكانة وحرصاً على رضاك ، لمن كانوا — ماذا أقول ! — يسومونك الذل والهوان ، ويقتِّرون عليك فلم تكادى تستفيدين منهم شيئاً ، بل أنت بالحرى خسرت معهم كل شىء حتى الشرف ، أصحيح أن المرأة لا تحب إلا من

يستذلها ؟ ألأنها كانت مستعبدة حيناً من الدهر طويلا ، قد تخلقت بأخلاق العبيد ، فيجب ألا تُشتَرى إلا والعصا معها ، لأنها نجس منكودة ؟

إلهى ! لماذا أتهم نفسى كل هذه الاتهامات ؟ لنسلِّم جدلا بأنها صحيحة ، فهل كان هذا مبرراً كافياً لهجرانه إياى كأننا لم نَبِتْ والوصل ثالثُنا ، وما كان لم يكن ؟ ولماذا تسرَّع هو بالفراق وقد رأى منى الإقبال عليه والحرص على إرضائه فى آخر أيامى معه ، أفلم يكن هذا دليلا على توبتى واعتذارى ؟ لقد كان حليما ولم أشاهد عليه الغضب يوماً ما — اللهم إلا فى الحِفاظ عنى والحرص على كل ما أبتغى — ؛ فلماذا أَسْرَعَ هنا ولم يتحلم ؟ أم صحيح ما يقولون : احذروا صولة الحليم إذا غضب ؟ والغريب من أمره أنه لم يحاول التفاهم معى قبل وقوع هذا الانفصال ، بل انسحب بكل هدوء ، دون أدنى ضجة . ما ذا أقول ! بل دون أدنى إعلان ؛ أم ترى هذه هى الطريقة السائدة اليوم فى الحروب الجديدة ، تتم كلها بدون إعلان سابق ولا إنذار ، فلعله قد قلد الدول فى هذا النحو الجديد من السياسة الدولية ، وهو الرجل العصرى المشايع للتطور باستمرار ؟

شُكوك تتلوها شكوك ؛ وحيرة تنقضّ على حيرة ؛ وكل ما حولى قاتم .

دموع غزار تبلِّل الفراش ؛ واعتكاف يستمر عدة أيام .

١ سبتمبر — اليوم بدأت الحرب العالمية الثانية ؛ والناس جميعاً فى قلق ينتظرون من سيدخل ومن سيتخلف . ولقد بقيت حتى اليوم طريحة الفراش من هول الجراح التى أصابتنى من تلك التجربة الأليمة . بيد أن هذه الأحداث العالمية الكبرى قد أنستنى قليلا من آلامى الخاصة فقررت الذهاب إلى المرقص بعد تلك الغيبة الطويلة التى دامت تسعة عشر يوماً : قضيتها أتلوى على فراشى من الشكوك والقلق : لقد فقدت الثقة بكل شىء و بكل إنسان ، وهذا ما خفف عنى هول الكارثة التى حلت بى .

فلما دخلتُ المرقص سألَتْ الزميلات عن حالى وسر غيابى ، وكانت تبدو على أكثرهن نظرات ماكرة خبيثة وكأنهن قد فهمن السر فى هذه الغيبة ، وشعرن بشىء من التشفِّى . فصرفتهن عنى بإحسان ، راجية منهن أن يتركننى وشأنى فلا تزال علتى تسبب لى ألماً شديداً . ثم رأيتهن يتحدثن عن قيام الحرب ، ورأيت العجائز منهن مغتبطات مستبشرات بهذا النبأ ، قائلات إنهن شاركن فى هذه المهنة إبان الحرب الماضية وربحن منها الكثير عن طريق

المجنَّدين الأجانب الذين يبعثرون نقودهم على بنات الهوى ؛ فعلى الفتيات أن يستعدِدْنَ للفرصة الذهبية السانحة .

وأقبلت على أستاذتنا الكبرى ، نينا ، وقد كان موقفها خلال هذه المحنة لا يدعو إلى الملام ، فى الظاهر على الأقل : فقد تبدّت أنها أرفع شأناً من أن تنزل إلى مستوى هذه الدسائس الصغيرة والمؤامرات الصبيانية ، وهى الفنانة الهرمة ، وإن كنت أنا لم أنخدع كثيراً بهذا المظهر ، إذ تطايرت إلىَّ أنباء تؤكد أنها اشتركت بل حرَّضت ، لكن بلباقة ومهارة تتفقان مع كياستها وحُنْكتها بفضل إعراقها فى هذا الفن . وما كان لمثلها أن تدع هذه المؤامرة تمرّ دون أن تساهم فيها ، وهى ترانى قد بلغتُ شأواً بعيداً فى النجاح . ومع هذا فلم أحمل لها موجدة ، لأن الأدلة الصريحة كانت تعوزنى . وقالت : ما هذا يا فتاة ؟ ليس هذا من شأن بنات الهوى . فهذه أحوال وأطوار تعرو الفتيات الشريفات الساذجات ، أما نحن فقد تجاوزنا ذلك الطور الصبيانى ولم تعد تؤثر فينا الفقاقيع التى يسميها الناس فى الخارج عواطف صادقة ووجدانات مشبوبة ، ولا نسميها نحن إلا رصاصات نغتال بها جيوب الرجال ، ولا نفهم منها إلا أن تكون طُعْماً نضعه فى شصوصنا . ماذا ! أنسيت دروسك مرة أخرى ؟ أعيديها علىّ حتى أستيقن من حفظك إياها .

— أرجوك ألا تهزلى معى ، فجراحى قد أقاحت وأصدّت ، فلا تجعليها ترفض .

— بجِدِّك هذا ؟ عجيبٌ أمرُك والله ! أو لم تخلعى بعدُ ثياب الطفولة ، ولا زلتِ تحنّين إلى حياة الخارج ! إيه ! إيه ! ثم ماذا أيضاً يا ... يا ... ؟ وكم سنرى بعدُ أيضاً ! ! وإذا كنت كذلك ولا يزال لديك هذا الشعور الرقيق ، فكيف تطورت كل هذا التطور السريع الذى لم أشهد مثله إلا عند النادرات جداً من بنات الهوى ، وكم مرَّ علىَّ منهن ! ولماذا نجحت كل هذا النجاح الحاسم الذى أثار موجدة زميلاتك وحسدهن ، إن كنت رقيقة إلى هذا الحد ؟ أبكاء ونَوح ومرض ولما يَمضِ لك غيرُ عهد قصير ، فكيف إذا خبّت بك المطىُّ عشراً ، كما قال شاعرك المحبوب ، أنتِ التى صدّعت رءوسنا بشعر حفظتِه فى المدرسة وجئت إلينا لتستذكريه مرة أخرى ؟ أم ترى هى مناورة أخرى وحيلة من حِيَلك التى أتقنتِها هذه الأيام ؟ لكنها مناورة مكشوفة ولا يليق بك أن تخدعينا بها .

— اذهبى عنى أيتها اللبؤة الهرمة : فلقد تحجر قلبك ، وغاض ماء الحياة من وجهك ،

ونضب معين العواطف من كل بدنك . إنك جيفة تسعى على قدمين ، لا تصلح إلا للالقاء بها إلى الـكلاب . انظرى إلى وجهك وقد عبث به محراث الزمن ، و إلى بدنك وقد حطمته مكابس الفجور وما توالى عليك من محن ، و إلى يديك وقد جفّتا من فرط ما امتدتا ظلماً واغتيالا إلى جيوب الرجال فصارتا كغصنى صَفصاف عتيق أُلقى بهما فى ماء آسن .

— على من تتطاولين بهذه العبارات أيتها ... ! تعالوا يا بناتُ (وأشارت إلى بقية الفتيات) وانظرن إلى هـذه العاقّة ... التى خلقتها ولم تك شيئاً ، وها هى ذى اليوم تندب حظها وتلومنى ، وأكثر من هذا : تسبنى بفظاعة ، ولولا أنى كأم لها سناً ومكانة ، لأريتها كيف تجرؤ على أن ترفع عينيها فى عينى . لـكنها لا تزال طفلة ... مسكينة ! أتودين أن أهدهدك وأخيفك بقصص خيالية شائقة حتى تنامى و يرقد وجدانك المشبوب ، و يسكن دمك الفائر ! هيّه ! إذن فاسمعى حكاية المرأة التى ...

— قلتُ اغرُبى عنى يا دُمْية الطين و مِسْخَ السنين و يا محنة على العالمين . أتتهميننى بالمناورة فى مثل هذا الموقف الجاد الصادق ؟

— نَفسى الفِداءُ إن كنتُ كذبت فى هذا الظن . أتنطلى علىّ حِيَلـكُنّ يا خبيثات يا ... ؟ أنت تتظاهرين بهذا كيما تستدرى عطفه فيعودَ إليك ؛ أليس كذلك ؟ ولماذا تخفين هـذا عنى أنا وقد رأيتِ موقفى من المناورة كلها ، ورأيت من قبل كيف أخذت بيدك فى هذه الغابة المجهولة ، غابة الفجور والعهارة ؟ كان الأحرى بك أن تسألينى الهداية ، وحينئذ لن أبخل عليك بها ، علم الله .

— دعى نصائحك لنفسك ، فـكفانى ما جرّته علىّ من عذاب وهمٍّ وشقاء إلى الأبد .

— لا عذاب ولا شقاء ، فـكل هذا إلى زوال وانجلاء .

— بالنسبة إلى أمثالك من متحجرات القلوب فحسب .

— و بالنسبة إليك أيضا ، صدّقينى هذه المرة كما رأيت مصداق أقوالى فى المرات السابقة .

— أوه ! كفى هذا ، بحق جاه النبى وشفاعته ! أرجوك إلا تركتنى .

وهنا انصرفت عنى ، ولم أستطع أنا البقاء فى المرقص بعد هذا . فعدت إلى منزلى ، وهأنذا ماثلة بين يديك الآن ، أيها الدفتر الحبيب ، أحاول أن أراجع نفسى وأتأمل فيما قالته هذه الهرمة الشيطانة ، فإنى أخشى أن يكون تعليلها لحالى صحيحا ، دون أن أتبين هذا بجلاء ،

لأنى عهدتها حتى اليوم صادقة الفِراسة من طول تجاربها وخبرتها بأحوال بنات الهوى ، بل والناس أجمعين . ومَنْ أقدر على تعرف نفوس الرجال من بنات الهوى ! إنهن يستعرضن كل أنواع الرجال ، ويدخلن إلى خفاياهم بما لا يستطيعه غيرهن ، وذلك بحكم طبيعة مهنتهن التى تسمح لهن بتعرية نفوس من يتصل بهن . ولولا أنهن فى الغالب جاهلات ومن أدنى الطبقات ، لـكُنَّ قد كتبن للناس صفحات ثمينة هى خير ما يكشف عن طوايا النفس البشرية الغامضة ؛ لـكنهن عديمات المواهب ، ما منهن كاتبة ولا فنانة حتى تسجل ماتشاهد وتختبر . وأنا نفسى — على الرغم من قصر المدة التى أمضيتها فى هذه المهنة ، وترفعى عن الخوض فى أعماقها الرهيبة — قد أفدت معرفة بالـكثير من طباع الناس .

٣ سبتمبر — لا حديث لرواد المرقص اليوم إلا عن نتائج هذه الحرب و بلاياها وما عسانا ننتظره منها ، الآن وقد أعلنت كل من إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا ، وبهـذا انتقلت من دورها المحلى الذى بدا فى اليوم الأول ، إلى الدور العالمى الرهيب . والنـاس يختصمون حول هذا الموقف والدواعى التى دفعت بهاتين الدولتين إلى إعلان الحرب ، وهل هى كافية لتبرير تدمير البشرية كلها مرة أخرى ، بل و بطريقة أشد هولا وفتـكا مما كانت الحال عليه فى الحرب السابقة . و بدأت الفنانات الهرمات تصوِّر لنا معشر الفتيات الصغيرات ما ينتظر الناس من أهوال ، و ينفضن الغبار عن ذكرياتهن التى تكدست عليها أكوام من تراب التبلد الفاجر ، و يغالين فى رسم لوحة الحرب حتى كنا نفزع ونجزع ونتهزَّع ، لولا أنهن صوّرن لنا أيضاً الجانب المشرق منها بالنسبة إلى بنات الهوى ، وأوصيننا بالانتفاع بها إلى أبعد حدٍّ مستطاع . وكن يقلن بلهجة مطمئنة واثقة فيها استعلاء من حَنَّـكته السنون والتجارب : حذارِ أن تفلت منـكن هذه الفرصة الرائعة ! الحرب خلقت محنة للناس ونعمة لبنات الهوى ،حتى ليخالجنى الظن بأنهن لا بد من المحرِّضات عليها الدافعات إلى إثارتها بما لهن من نفوذ ضخم عند كبار الساسة ، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون عن هذا شيئاً ولا يدرون ! ! مصائب قوم عند قوم فوائد : صدقت أيها الشاعر — أليس كذلك يا سرڤنار ؟ — فى هذا القول ، على الأقل بالنسبة إلى شأننا هذا : فالحرب مصيبة الأقوام كلها ، ولـكنها فائدتنا الـكبرى ، نحن فتيات الهوى . أوه ! ما أعذب الصيد وأيسره بين هؤلاء الجنود والضباط المساكين ! إنهم ينفقون كل ما بأيديهم ، لأنهم لا يعرفون أى

مُنقلب غداً سينقلبون : موت أم أسْر أم جراح لا رجاوة فى بُرْئها ؟ هم يحيون ليومهم ، ولهذا كان شعارهم المثل اللاتينى المشهور — أليس كذلك ياسوزت ؟ — : تمتعوا بيومكم Carpe diem ! أى لا تفكروا فى الغد ، وأنفقوا فى نهاركم كل ما فى أيديكم ، وما عسى أيضاً أن تمتد إليه أيديكم . فأى شىء يمكن أن يرفه عنهم — ياله‍م من محدودين بائسين ! — غير الخمر والنساء ! لقد صدق من قال : الرجل للحرب ، والمرأة للترفيه عن المحاربين ؛ فعليكن بهذا المثل ، لكن افهمنه بطريقتكن الخاصة ، أى استَغْلِلْنَهُ إلى أبعد حد حتى تستولين على آخر درهم فى جيوبهم . هم حقاً موتى ، والناس يقولون إن الضرب فى الموتى حرام ، لكن هذه حكمة دنيوية ، أعنى لا تتصل بنا نحن بنات الهوى . فلندعها وشأنها يلهو بها طلابُ الشرف الموهوم . أما نحن فنقول : الضرب فى الموتى حلال كل الحلال ! وهم حقاً غرباء ، والناس يقولون : كونوا للغرباء كُرَماء ؛ فلا تصدقن هذا أيضاً ، فهذا من من شأن أولئك ، أما نحن فنقول : كونوا على الغرباء قُساة أشدّاء ! والحكمة فى هذا ظاهرة لا تخفى عليكن : ذلك أن الغريب أمره إلى الارتحال إن عاجلا أو بعد قليل ، فإن أسرفتن فى استغلاله فلن يطالبكنّ من بعدُ بالجزاء ؛ وأنتن تعلمن أن الأيام الأولى لصلاتنا بمن به نتصل هى أخصب الأيام بالإنفاق والمال طمعاً فى شىء وراءه ؛ أما المواطن فلا بد يوماً أن يتقاضى ما بذله فى البدء ، أو على الأقل يطالب به . فخذن عنا هذه الكلمة الغالية وأجدْن تطبيق قواعد دستورنا تبلغن أقصى ما ترجين . هنيئاً لَكُنّ إذاً يا بنات !

١٣ سبتمبر — مضى شهر على اليوم البغيض ، فتحركت البلابل من مكامنها بعد أن توارت حيناً بفضل الأحداث الخارجية العامة ؛ وعادت الجراح تتحلب دماً قانياً بعد أن كنتُ أظن أنها بسبيل الجفاف والاندمال . ترُى هل كانت عاطفتى نحوه قوية إلى هذا الحد العجيب ؟ ولماذا لم أنتبه إلى قوتها هذه حين كان الحبل لا يزال موصولا ، أبسطه له قليلا فيَصِلُه منى ما اتسع ؟ وما السر فى كون الحب على هذا النحو : ألأنه عميق ، فيجب ألا يعمل إلا فى الأعماق ؟

أواه ! أصبح قلبى خاوياً من كل عاطفة ، بعد أن بدأ يبعث من جديد حيًّا ، وأخشى أن يظل صِفراً قفراً إلى أبد الدهر .

يبدو أن اللبؤة اللعينة ، نينا ، قد صدقت فى فِراستها مرة أخرى ؛ لكنى لم آخذ

للأمر أهبته ، فقد علمت من صديقتي الوحيدة أن الفتى قد أنشأ يرثى لحالى . ويعطف على مآلى ؛ ويحاول أن يغتفر لى قسوتى فى سلوكى معه واستغلالى ، لـكن لم تتم بيننا مقابلة . وبقى كلانا فى خيمته منحازاً إلى نفسه ، فلما أحست غريمتى الملعونة بهـذا الاتجاه لديه ، وكانت قد علمت بأمر المشاجرة بينى وبين نينا ، وعرفت أن هناك حيلة أمكر بها لاستعادة الفتى منها ، نهضت تقيم الاستحكامات القوية التى تحول بينى وبين مقابلته ، وراحت تبذل له عن سعة كل ما فى يديها وما تملك — ولا أقصد المال طبعاً ! — ، حتى أفسدت المناورة — وقد كانت مناورة فعـلا على الأقل فى واقع أمرها ، وإن لم يكن فى الباعث عليها — وتركتنى هـكذا أحرق الأرَّم وأقلب كفاً على كف أسفاً وندماً وآلاما .

وهكذا أضاعت فرصة أخرى — وأخيرة ؟ !

فـكرت فى الانتقام ، لـكن ممن سأنتقم : منها أو من كليهما ؟ أما منه فلا سبيلا إليه إلا إذا كنت قد بلغت هذا الحد من فساد الطبيعة ؛ اما منها هى فمن لى بها وهى أوسع منى حيلة وأشد فتـكا وأقدر على تدبير المـكائد ، ولست أدرى ما عسانى ألقى من وراء نضالها وهى ليست وحدها فيه ، بل الـكل معها ، بينما أنا وحدى . لهذا اكتفيت بأن لُمْتُ نفسى على سوء ما صنعت معه فى البداية ؛ ثم تركت أمر عقابه لهذه الفتاة نفسها ، لأنها فيما أعلم عنها ويعرفه الـكل من أمرها قادرة على امتصاص الدماء من الرجال حتى القطرة الأخيرة . وعليه إذاً وزرُ ما فعل . وقنِعْتُ بهذه الفـكرة الجبانة ، لأن غريمى الحقيقى ليس ذلك الفتى الطيب القلب ، فأنا التى عذبته واستثمرته واستغللته ثم بخلت عليه بكل شىء ، وإنما كان تلك الفتاة اللعينة ، فـكان الأحرى بى أن أنتقم منهـا هى . لـكن ماذا أستطيع أن أفعل معها يا إلهى !

٢٠ أكتوبر — بعد أن انقضت فترة طويلة على فشل تجربتى بدأتُ أستنبط منها العبرة . فلقد كنت من قبل متعلقة بخيط من الأمل يصلنى بمن قطعنى ؛ لـكنه قطع فيما يبدو إلى غير اتصال . وكنت إبان هذا لا أدرك من التجربة إلا جانبها الانفعالى العاطفى فـكنت دائبة الاضطراب والتهيج : أغضب لأقل شىء ، وأبكى الليـالى الطوال بدموع غِزار ، وأستنِضُّ حنانه وهو فى مكانه البعيد قليلاً عنى جالساً إلى غريمتى الملعونة ، وأرسل الوسيطات والوسطاء . لـكن هذا كله لم يُجْدِ شيئاً . يبدو لى أن هذا الفتى ممتاز الطبيعة ، نبيل الملـكة ،

فيه خِلال الفتوّة والـكرم ، على الرغم من كل ما فعله معى : فهو قد طاولنى وترك لى الفرصة واسعة كي أقابل معروفه بمعروف ، لـكنى -- آه ! يا لحماقتى ! — كنت أزداد عُتوًا وقسوة ودلالا . أجل ، لقد كان دلالاً ، لـكنى لم أحْسِنه ، لأننى غبية جاهلة بطباع الناس ، لم أستطع أن أميز بين شريفهم ودنيئهم ، بل ضربت كلا بالآخر ، فـكان ما عانيت . أيُلام إذاً على ما فعل ؟ ثم إن الفتاة الأخرى — غريمتى — تبذل له كل شىء ، وإن تقاضت عنه ثمناً باهظاً ؛ لـكنها على كل حالٍ لا تُشعره بأنه أداة استغلال مطلقة ، والفتى بطبعه يرضى بالقليل ، مادام يحسُّ بأن الآخر لا يُشْعِره باستغلاله ، إنما هى سماحة نفسه تجعله يسخو عن طيب خاطر ، وإن عد بعضُ الناس هذا فيه غفلة وتهوراً وإتلافا . والواقع أنه لا ينظر إلى الأمر على هذا النحو البَشِع ، بل يأخذه على أنه نوع من الإحسان على فتيات ضالات بائسات يستحققن الرثاء أكثر من القسوة ، فلم لا يتصدق عليهن بشىء مما عنده ، وهن جديرات بهذا العطف ، ما دام الله قد أفاء عليه الـكثير من النعم ؟ وصحيح أن فتاته تلك — وقد صارت فعلاً فتاته — تنظر إليه بتلك النظرة التى ينظر بها أولئك النفر من الناس ، حتى إنها تتباهى باستغلالها له ، لـكن هذا التباهى لايتجاوز نفراً قليلاً جداً من أخلص خلصائها من الشباب والفتيات الزميلات ، فهى أشد ذكاء منى وأكثر لباقة ، بينا أنا قد انسقت وراء ما عندى من طيش وحماقة ، حتى جلبت على نفسى الويل والفاقة ، فهل لى أن أتهم بعد هذا أخلاقَه ؟

واليوم صرت أدرك من هذه التجربة جانبها العقلى ؛ فاستيقنت أنه لا سبيل لى إلى الثقة بالناس ، وأن هذه التجربة الثانية كفيلة بأن تقضى على كل ما بقى لدىَّ من حسن ظن بالطبيعة البشرية ، إن كان ثمت بقية ، واستيأست بعدُ من أن أجد لى فى حياتى مقاماً آمناً أستطيع أن آوى إليه . أوَ سيقدر لى أن أستريح من عناء تلك الحياة اللامينة التى أحياها : حياة النفاق والشقاق ، والاستغلال والاستغفال ، والاستعباد والاستشهاد ؟

أمّا وهذا مصيرى ومقدورى ، فلأحببْ هذا المصير ولأتقن تحقيق هذا المقدور . لأغامر وأقامر ، ولأتشرّد وأستهلك قوتى وحياتى وأبدّد . لأنتقم لنفسى من الإنسانية كلها ، ومن الرجال خاصة .

الانتقام من بنى الإنسان ! الانتقام من الرجال ! الانتقام ! هكذا صِحْتُ وأنا راقدة

على سريرى أكتب فيك أيها الدفتر الحبيب ؛ ثم جذبت اللحاف وغطيت جميع بدنى ونمت ملء جفونى .

٣٠ نوفمبر — بدأت وفود الجنود تترى على المرقص ، وأغلبهم من الأستراليين والأتراك ، وهم قوم تغلب عليهم شراسة الطبع وعنف الحركات ، خصوصاً بعد ما يسكرون وتلعب الخمر برؤوسهم . فلا تكاد ليلة تمضى حتى تكون لهم مشاجرة ، فى الغالب بين بعضهم بعضاً ، ونادراً ما تقع بينهم و بين المواطنين ، لأن هؤلاء يتجنبونهم قدر المستطاع ، و يغفرون لهم بوادر حدتهم وفظاظة طباعهم . وفضلاً عن هذا فإن هؤلاء العسكريين يأتون دائماً جماعات كبيرة ، فمن الخطر المغامرة معهم ، والرواد المواطنون قلائل متفرقون لا تجمعهم فى الغالب واشجة ولا رابطة خاصة . حقاً إن فيهم الكثير من طباع أجدادهم المهاجرين إلى استراليا . ولا أدرى لهذا سببا ، الآن وقد مرت عليهم أجيال طويلة فى هذا المكان الذى استوطنوه . أترى للإقليم دخلاً فى هذا ؟ لست أدرى .

لا يزال التفكير فى مشروع حياتى الجديدة يسير بخطى حثيثة ؛ ومع هذا فلا تزال متعثرة ؛ فأنا أترجح ، بل أُمَزَّق بين فروض متضاربة واقتراحات متناقضة .

و بالأمس كتبتْ إلىّ أمى تخبرنى عن حالها وحالِ مَنْ قِبلَها ، وتطلب إلىّ أن أزورهم ولو لمدة قصيرة . ولستُ أدرى أأجيبها إلى طلبها أم أتريث قليلاً . لكن يظهر أننى أميل إلى الذهاب إليها حتى أرفه عن نفسى بضعة أيام بين أحضان أهلى ، لعلى أن أنسى تلك التجربة الأليمة وأواريها المقرّ الأخير . ترُانى قادرةً على هذا ؟ أشك كثيراً . وفضلاً عن هذا كله فإن مشروعى الجديد يحتاج إلى فترة استجمام واستراحة ، وإلى هدوء فى التفكير حتى يأتى الرأى محكماً صائباً ، وكفانى ما استهدفت له حتى الآن بسبب حماقاتى .

٢ يناير سنة ١٩٤٠ — عدت من سَفْرتى إلى أهلى منذ يومين كيما أشارك فى حفلات عيد الميلاد . ولقد كانت سَفْرة نافعة حقاً : عاودنى فيها الهدوء بعد الاضطراب ، والأمنُ بعد القلق ، والوضوح بعد الغموض . و إبانها أفكرت فى خطتى الجديدة وأدرت فى رأسى صورتها الإجمالية . ولكنى لم أتبين بعدُ التنفيذ والمدخل الأوفق إليها .

أما ليلة رأس السنة فقد كانت جميلة صاخبة حقاً ، لولا ما عكّر على صفوها من أحداث قليلة أثارها الجنود والضباط الأستراليون . فقد كان المرقص يموج بالأفواج الزاخرة منهم ،

وكانوا مرحين معربدين ، خصوصاً وهم لم يشتركوا بعدُ فى القتال ، وإن كانت الأوامر قد صدرت إلى كبار الضباط للتهيؤ لمغادرة هذه البلاد إلى الميدان الغربى فى أوربا استعداداً لغزو الألمان لفرنسا فى الربيع القادم ، وكان الجنود يتهامسون بهذه الأوامر أو على الأقل يقدرون صدورها يوماً ما ، لأن ميدان الشرق الأوسط لا يزال عُطلاً من الأعمال الحربية ، ما دامت إيطاليا لم تدخل الحرب بعد . وكان المرقص قد زُيّن بزخارف ولُعب من الورق المزركش المتعدد الألوان ، وحبال طويلة من القصاصات البيضاء تتشابك فى جو البهو وتضفى عليه غبطة لا تقدر .

رقصنا وغنينا مع الضباط ما وسعنا الرقص والغناء . وقبل منتصف الليل كان الجميع متأهبين للحظة الكبرى فى الساعة الثانية عشرة تماما : فلما دقت ،أطفئت الأنوار وتلمّس كلٌّ الفتاةَ التى إلى جواره ، ودوّت القبلات الصاخبة فى أرجاء المكان ؛ ثم انتظرنا عودة النور ، لكن طال الانتظار وحدث هرج ومرج ، ثم تبيّن أن أحد الضباط الماكرين كان قد انتحى بفتاته ناحية أزرار النور واستولى عليها كيما يتهيأ له — وبالتالى لغيره من الضباط — أن ينعموا بأطول عناق وأعمق تقبيل ولست أدرى بأى شىء آخر أيضاً !

فلما أوشك المرقص على الإغلاق دعانى وبعضَ زميلاتى زمرةٌ من الضباط لقضاء بقية الليل فى نادٍ خاص ؛ وخرجنا جميعاً وأمضينا ليلة حافلة بالمرح والتهريج إلى أن تنفّس الصبح فعُدْتُ إليك أيها الدفتر الحبيب .

كم أسائل نفسى ما الصلة بين هذه الليالى والنحو الذى تقضى عليه وبين الذكرى التى تُحْيِيها . أهذا احتفال بعيد دينى ، لميلاد ابن الإله ومخلّص البشر فيما يعتقدون ، أم هو احتفال بعيد ميلاد باخوس أو أفروديت فى جزيرة بافوس ، أم طقوس تقام لعبادة فَلّوس ؟ لم يبق من هذا الأصل الدينى إلا مجرد الاسم ، أما ما عداه فوثنى من ألفه إلى يائه . تُرى لم يغير المسيحيون اليونانيون والرومانيون من حفلاتهم إلا اسم اليوم ، بينما بقى كل شىء كما كان فى عهد الوثنية الأولى ؟

ومع هذا فإنى أقارن بين هذه الطريقة فى الاحتفال بالأعياد الدينية عندهم وعندنا فأعود إلى التشكك . إن احتفالاتهم تنبض بالحياة وتجدّد الشباب ، إنها حُقْنَة مقوية يُحقَنون بها كي يستأنفوا بعدها نشاطهم موفوراً ووجودهم زاخراً بالأفعال ؛ وإن فيها لمتعة الكيان

الإنسانى كله : متعة القلب والعقل والبدن معاً . أما احتفالاتنا نحن فلا يربطها بالحياة شىء اللهم إلا هذه البِطنة والتُّخَمة التى نصاب بها فى أيام الأعياد ، لو كان فى هذه حياة : فنحن إما أن نشيح بأوجهنا إلى الموتى الذين فقدناهم ، وإما أن ننصرف إلى أطايب المأكول ندسه فى بطوننا دَسّاً مما يصرفنا عن كل تفكير غير حيوانى .

أفما يخلق بنا إذاً أن نفكر فى إصلاح طريقة احتفالنا بالأعياد ؟

٩ يناير — البرد قارس ، والمطر ينهمر كالسيل ، والريح الصرصر العاتية تتجاوب أصداؤها فى النوافذ تكاد تعصف بها عصفاً . ولقد بدأت أشعر بصَبَارَة القُرّ بدرجة غير عادية ، مع أنى كنت قبل هذا ممن يهوون البرد ويلذ لهم أن يناموا فى الشتاء بلا غطاء ، بل وأن يفتحوا النوافذ على مصاريعها . فياويلتاه ! ماذا أصابنى ؟ منذ أن ابتدأ الشتاء وأنا مختنقة بين قبضات زُكام دائم والتهاب فى اللوزتين ؛ أما السعال فحدث عنه ولا حرج ، فقد صار أجشّ متصلا . ترى ما السر فى هذا ؟ أيكون هذا الرداء المشقوق الذى فُرض علينا فى المرقص لبسه على الرغم من شدة البرد حتى نستطيع أن نكشف للعيون المكدودة النهمة عن هذه الشرائح من اللحم البَضّ ؟ أم السهر الطويل والشراب المستمر مع مرتادى المرقص ، فى غير اتزان ولا تبصُّر ؟ ولكنى لم أكد أقضى سنة كاملة فى هذه المهنة ! أبهذه السرعة يتهدم بدنى على هذا النحو ؟ رباه ! إنى لأخشى سوء العاقبة .

٢ فبراير — اليوم يوم الذكرى : ذكرى دخولى هذه المهنة لأول مرة فى حياتى وليكن هذا التاريخ بدء العام عندى . والواقع أنه يجب أن يكون لكل إنسان بدءٌ للعام خاصٌ به ، يحدده الحدث الأكبرُ فى حياته . أما الأوقات التى حددتها الجماعة ، أيّاً ما كان نوع التقويم الفلكى ، فلا تكاد تعنينا فى شىء لأنها لا ترتبط بأية تجربة خاصة فى نفوسنا . فليكن لكل منا رأسُ سنته الخاص ؛ أما العامّ فلا يصلح إلا للتفاهم الاجتماعى المادى ، بينما الأول روحى ، ولذا كان أعز مقاماً وأغلى .

أعود فأراجع نفسى مستعرضةً لوحة حياتى فى تلك السنة المنصرمة ، فأجدها حافلة حقاً : تجارب متنوعة ، وعبرات وابتسامات ، وصخب مستمر فى مرح أو شجار ، وأحداث بعضها رهيب وبعضها شائق عرفت أمرها من الوسط الذى أعيش فيه ، وأدركت طرفاً منها بأحساسى لأنها وقعت بالقرب منى وتحت بصرى وسمعى ، ومشاهدات عميقة لأحوال الناس

وطرائقهم فى الحياة ومشاربهم فى العيش ، واستكشاف للمجهول فى بعض نواحى النفس البشرية . فلو سألتنى بعد هذا ، أيها الدفتر الحبيب ، أن أسجل فيك خلاصة تجاربى فى العام المنصرم كله لكتبت : الحياة مصنع ضخم رائع كتب على لافتته بالخط العريض : صفقة شائقة خاسرة .

أما السعال فلا يزال آخذاً بتلابيبى فى غير تساهلٍ ولا رحمة .

١١ مارس — وافتنا بشائر الربيع على شجرة مشمش أُطِلّ عليها من شرفة منزلى . فتبدّتْ لى أزهارها البيض المشربة بشىء من الحمرة العذبة كأنها تبسم لى وتحيينى مهنئة إياى بتوديع فصل البرد والزكام والسعال . ولأول مرة أشعر بنعمة الربيع الكبرى : لهذا بقيت نهارى أستضحى للشمس الدافئة عسى أن تتبخر الرطوبة من بدنى ، ويثوب إلىَّ سالفُ نشاطى .

لا جديد عندى أزُفّه إليك أيها الدفتر الحبيب إلا أن أحييك بتحية الربيع ، وأن أبث فيك شيئاً من نشوة السرور التى أُحِسُّ بها اليوم تسرى فى أعضائى ، وأن أَعِدَك بأن أُلقِى بين طياتك زهرات الثالوث (البَنْسيه) العزيزة عندى الأثيرة لدى ، وقد كنت ترانى دائماً أحملها فى عُرْوة فستانى فأرى كأن عينيك ترنُوان إلىّ وتسألانى أن أهبك بعضاً منها ؛ لكنى لم أكن أجيبك إلى طِلْبَتِك هذه لضيق ذات يدى من هذه الأزهار قبل الآن ، أما اليوم فقد صرتُ أملك منها الكثير فى حديقة المنزل ، فضلاً عما سيهديه إلىَّ الخلّان والمعجبون ممن يعرفون إعجابى وحبى لهذا الزَّهر الجميل ، وهو حبٌّ أود أن أفسر السر فيه فلا أهتدى لوجه اليقين : أهذا الكُحْلى الغامق الذى آثرته لنفسى فى أغلب ملبسى ، أم هذه الصُّفْرة ذات الخطوط الدقيقة الكحلية والتى تصور ما ينتابنى من طِيَرة وتشاؤم ويأس من الحياة ؟ أهى هذه الدقة العميقة التى تتمثل فى لطافة تكوينها وبراءة قسماتها وهدوء وريقاتها ، أم سرعة ذبولها مع شدة نَضرتها حين حياتها وكأنها تشير بهذا إلى مصيرى ؟

لا جديد عندى أيها الدفتر الصديق إلا أن أردد شكرى لك على إخلاصك وصدق وفائك وضنّك بأسرارى أن تبتذلها أيدى المدنّسين ؛ وأقول « جديد » على الرغم من إفراطى فى شكرانك ، لأن نِعمك على جديدة دائماً متجددة أبداً .

١ أبريل — انتعشت أنباء الحرب مرة أخرى بعد أن ران عليها جمود ثقيل ، وقد خف

عدد الضباط ممن يرتادون المرقص . وكلهم كانوا يتحدثون متلهفين خائفين عما وراء هـذه الخطوة الحاسمة التى خطتها ألمانيا فى أوروبا بأن احتلت الدانيمرك وغزت بلاد النرويج ، ويعدّونها أول قطر وعما قليل ينهمر المطر فتصبح أوربا كلها حمأة مستوحلة ، ويخوض القوم فى أوحال ليس يعلم إلا الله إن كانوا سيخرجون منها أحياء ، فضلا عن أن يلطخوا جميعاً بالطين . ولقد أذهل الجميع ما رأوا من سرعة الغزو وإحكام الضربات ، وتبين لهم أن الأمر لم يعد مقصوراً على بولنده ، إنما هو النضال الأكبر فى المعترك العالمى كله .

قلت لأحد الضباط : ماذا تظن أنك ملاقيه فى الميدان الغربى الذى أنت بسبيل السفر إليه ؟

فأجاب : إنه الموت أو التشويه أبداً وكلاهما لدى لا يفترق عن الآخر .

— وماذا يحملك إذاً على أن تركب هذا الموت المحقق وتسعى إليه بنفسك ؟

— أوه ! ليت الأمر بيدى ! إذاً لما أتيت من هذا شيئاً . فماذا بينى وبين هذا الألمانى الذى أحاول جهدى أن أُثْكِل أمه وأُيَتِّم بنيه ، وأرمل زوجه وأجلل بالسواد أهليه ؟ لا شىء ؛ لا شىء مطلقاً ! أجل ، يقول المنافقون من السياسيين والسفهاء من الناس ما نحارب أفراداً ، بل أمة كاملة تصدنا عن سبيل المجد أو تلقى بنا فى أحضان الذل أو تحرمنا القوت . لكنى أسائل هؤلاء : أى مجد هذا الذى يسىء إلى إخوانى من بنى الإنسان ، وأية حرية وكرامة تلك التى تقيم عرشها على أشلاء بائسة ودمار رهيب ، وأى قوت ذاك الذى يعجن بدماء زكية بريئة ويكون قوامه أجساماً غضة كم أنفق أصحابها فى سبيل تنشئها ورعايتها ، وكم بذلت أمهاتهم من عناية وحسرة وأرسلت من زفرة لأقل ضرر أو برد يصيبها ، ثم يأتى أولئك الدجالون فيلقون بها لقمة سائغة بين فكى المرّيخ ؟

لقد شاركتُ فى الحرب الماضية وكنا شباباً نهتف بأغاريد الحرية والنعيم لعالم الغد الذى سنبنيه ، وكانت الغايات التى رسمتها لنا الدعاية — أوه ! ويل للناس من هذا التّنين الرهيب والمارد العجيب ! — تُشيع فى نفوسنا حماسة فياضة سخية لا تكترث لشىء ؛ وكان شباب المعسكر الآخر يجيبنا على حماستنا لمثلنا فى الحرية بمثله فى الثقافة الرفيعة والحضارة الممتازة (« الكلتور » المشهورة) ؛ حتى لقد كان يخيل إلينا أن هذه حرب صليبية أخرى ، فكنا نستعذب لذة الجهاد . وكانت الشبيبة فى البلاد الصغيرة ترنو بعيونها الكليلة إلى ألواح موسى

العصر ، ودرو ولسن ، وتظن أن فى جملتها هدى ورحمة لهم من ظلم الغاصبين المستبدين من حُماة ومُنتَدَبين ومستعمِرين ، إلى آخر هذه الكلمات المجرمة التى ندجل بها على الشعوب الصغيرة والمغلوبة على أمرها ، ونحن — معشر الدول الكبرى — لا نضمر لها إلا أبشع أنواع الاستعباد والاغتيال ، حتى إنى لأود من صميم قلبى أن أبعث مرة أخرى ، بعد ألف سنة مثلا ، حتى أنظر فى صفحات التاريخ آنذاك وفيما سيقوله عن هذا الدَّجَل الأكبر الذى لم يكن له من قبل فى التاريخ مثيل : الدجَل بكلمات الحرية وإيجاد عالم أحسن وإشاعة القيم النبيلة وتحرير الشعوب من أسر الخوف والفقر وكذا وكذا من الأشياء .

ثم انتهت الحرب بانتصارنا وانتظرنا عبثاً تحقيق ما لوحوا به لنا من غايات . فماذا رأيت ؟ رأيت الشعوب الصغيرة كلها تُبتلع فى معدة الدول الكبرى باسم كذا وكذا من المبادىء : حماية المواصلات ، تربية الدول الصغيرة ، والوصاية على الشعوب القاصرة ، مناطق النفوذ ، والتوازن الدولى ، صيانة التجارة ، أوه ! لن أفرَغ من هذا الثَّبَت الطويل من الأسماء التى استخرجها الدجالون من سِفر الدجل الأكبر وكتاب النفاق المقدس أعنى المدنَّس . ورأيت الشباب — إن كان قد بقى منهم عدد يذكر — قد عاد إلى وطنه يفتش عن صناعة أو عمل يقتات منه ، فتوصد دونه الأبواب لأنه ليست لديه المؤهلات الكافية فلم يظفر بكذا وكذا من الإجازات الدراسية . لكن ماذنب هذا الشباب وقد أُنتزع بقسوة من أحضان التعليم والتحصيل ، وزُجَّ به فى ميدان السفك والتقتيل ، حتى صار جاهلا يسير اليوم بغير دليل ؟ وأنتم أيها الشيوخ المتربعون على كراسى المناصب العليا ، مجللين بلحى التيوس تنتزى نفاقاً على العوارض ، منكِّسى الرؤوس الصلعاء الكالحة من فرط ما أبهظتها الآثام والذنوب التى اقترفتها ضد الشباب المسكين ، ضد بنى الإنسان أجمعين ، وضد كل شعب آمن وأمين — ماذا بقى لكم فى الحياة حتى تنفَسوا كل شىء على الشباب وتتشبثوا بهذه الأفرع الواهية من مطالب الدنيا ، ولن تلبث أن تتكسر وتهوِى بكم إلى أسفل سافلين ، فى قاع حفرة وبناء من طين ؟ ثم رأيت الملايين متعطلين ؛ أهذا ما وعِدوا من قوت وغذاء كثير؟ ورأيت الأزمات الاقتصادية تعَضّ بنواجذها الحادة كل الناس فى أنحاء المعمورة ؛ فهل هذا ما وُعد الناس من عالم ملىء بالنعيم والفيض العميم ؟ ثم رُحْتُ أفتش عن الحرية فى كل مكان ، ولأياً ما عثرت عليها منزوية فى عزلة نائية فسألتها ما بها فأجابت : لقد يئست من البشر فقررت

هجرتهم إلى الأبد ، وكفانى ما عانيت منهم ؛ فباسمى قد اقترفت أبشع أنواع الاستبداد التى لم يسمع بها أحد ولا فى أساطير الأولين . فلما حاولت أن أكفكف عبرتها وأهدئ روعها صاحت فى وجهى تزجرنى : دعنى وشأنى فلن أعود إليكم أبداً طالما كان يهيمن عليكم هذا النوع من السياسيين والعسكريين الدّجالين ؛ ولما كنتم لا تستطيعون أبداً أن تتخلصوا منهم ، فلن أعود إليكم عوضُ ! لا ، لن أعود إليكم !

وها نحن أولاء قد ساقنا هذا النوع من البشر ، أو بالأحرى من قاتلى البشر — فهذا هو النعت الوحيد الجدير بكل السياسيين والعسكريين ، لا أستثنى منهم أحداً فى أى مكان أو زمان — إلى ساحة تقديم القرابين البريئة للمرِّيخ مرة أخرى ، أشد هولا ونكالا من المرة السابقة . وهم على عادتهم دائماً — قاتلهم الله وقاتل كذبهم الدائم ونفاقهم المستمر ! — قد لوحوا لنا بالوعود الجميلة للظفر بعالم تنال فيه حريتنا وأمننا ورفاهية لنا ولأبنائنا ، عالم كبيت الربِّ ذى طبقات لا تنتهى ، حيث يجد كلٌّ له مكاناً يأوى إليه فيه ، كما قال الإنجيل . أوه ! كم سيُصِمُّون آذاننا ويصدعون رؤوسنا بآلاف من الوعود والعهود وبتوكيد للظفر بالمنشود والأمل المقصود . أما أنا — ويشاركنى فى هذا فيما أظن كل من مروا بتجربة الحرب الماضية — فلا أقابل هـذا كله ولن أقابله إلا بابتسامة عريضة أوجهها إلى هؤلاء الدجالين فى وجوههم الكالحة أقذفها فيها علّهم يرعوون ويستحيون ، وبنظرة عطوف متحسرة مشفقة على هـذا الشباب المسكين الذى ينساق وراء حماسة جوفاء كاذبة ينفخها أولئك العرافون فى نفوسهم ، وبدمعة مُرّة أليمة أذرفها مع الثكالى والأرامل ، وبتربيت خفيف على خدود الأطفال اليتامى .

إيه أبالحرب !

فقلتُ : ما دام الأمر على هذا النحو ، فما السر فى هذه الحماسة كلها تفيض بها نفوس الشعوب المشاركة فى الحرب ؟ ولماذا تلقون قيادكم هكذا مستسلمين إلى من نعتهم باسم الدجالين ؟

فأجاب : يخيّل إلىّ أن الحرب نوع من المرض يصيب الأمم ، فلا تستطيع من آثاره وأعراضه خلاصاً . فكما أن الأفراد تنتابهم العلل المختلفة من حُمّى وطاعون وسرطان ، كذلك تنتاب الدول علل تسمى الحروب ، ولها أنواع هى الأخرى تناظر أنواع العلل التى

تلحق الأفراد : فالحمى مثلا يناظرها عند الشعوب ما يطلقون عليه اسم حرب الأعصاب ، إذ الأعراض متشابهة فى كلتا الحالتين : هذيان وتهديد وارتفاع فى درجة الحرارة والحماسة ، وهذا قد يأتى فى فترات متقطعة سواء بسواء ، أو يستمر كما فى الحميات المستمرة ؛ ويتفاوت درجةً فقد يكون خفيفاً كالانفلونزا والملاريا كما يحدث فى التوتر الدبلوماسى ، وقد يكون شديداً غير قتّال أو يوشك بالقتل ثم لا يلبث أن يجتنبه أو يؤدى إليه كما تفعل حمى التيفوئيد وحمى التيفوس ، وهذا يشاهد فى قطع العلاقات السياسية والتجارية . والسرطان يناظره نماء الروح العسكرية وتقوية غريزة المقاتلة و إفساح المجال أمامها ، وكل هذا يتم فى الخفاء على هيئة تسليح سرى وتجنيد إجبارى تعضدهما تهيئة الروح العامة للكراهية ؛ ثم لا يلبث هذا كله أن يتطور إلى حد لا يمكن عنده إيقاف المرض : فمهما حاولت الشعوب أن تفعل من أجل إنقاذ السلام ، فإنه يذهب سدى ، وما هى إلا كالمحاولات اليائسة التى يبذلها الأطباء لعلاج السرطان حينما يكتشف أمره بعد أن ظل مستتراً حيناً طويلا ، وليت ساعة علاج ! فقد قضى على المريض ولن يفلح فى إنقاذه شىء ، إنما هى محاولات كاذبة لا تجدى نفعاً . ولعل هذا هو ما حدث بالنسبة إلى هذه الحرب العالمية الثانية : فقد كانت العلة تسرى فى بدن أوربا المريضة ، علة السرطان الدولى ، منذ أن عقدت تلك المعاهدة المشئومة . ولكن آثارها الواضحة لم تظهر إلا حوالى سنة ١٩٣٥ ، فبدأت محاولات العلاج وهُرِع الأطباء السُذّج للإسعاف ، وخيل إليهم فى البدء أنهم بالغون شيئاً . لكنهم وجدوا الداء على العكس من هذا قد استفحل والثؤلول قد اتسع ، فضاعفوا العناية ونوعوا أساليب العلاج وماطلوا الداء وراوغوه ، ثم قاموا بمحاولتهم الأخيرة اليائسة فى مُنشِن سنة ١٩٣٨ ، فلم ينجحوا إلا فى إطالة عمر المريض بضع دقائق مع علمهم بأنهم إنما حاولوا محالا و إيقانهم بأن البلوى واقعة لا ريب فيها .

ويخدع نفسه خداعاً أليماً من يظن أنه يستطيع أن يتفادى هذه الأمراض بأيه وسيلة من وسائل الوقاية . ومَن مِن الأفراد استطاع أن يقى نفسه شر مرض ما مهما بذل من محاولات لحماية نفسه من الإصابة به ! كذلك الحال بالنسبة إلى الأمم . أجل ، إن الحروب أمراض ضرورية يستحيل على كائن من كان أن يتوقاها . ومن هنا كانت ابتسامتى العريضة لهذه الوعود المضحكة والعهود الباهتة المهزولة التى يحاول الساسة أن يخدعوا الشعوب بها ،

كما يحاول الأطباء أن يستغلوا المرضى بواسطة وصفاتهم . وما أقرب الشبه بين كلا الفريقين في هذا الصدد ! كلاهما لا يبغى من وراء هذا كله إلا النفع لنفسه ؛ وإلى أكبر حد مستطاع ؛ فيلفق الأمانى المعسولة والآمال الحلوة كيما يحقق مقصوده الأنانى بأيسر طريق وأقربه إلى نفوس الناس .

وللناس المساكين ينساقون وراء هؤلاء وهؤلاء ظناً منهم أنهم سيجدون عندهم الشفاء مما بهم من أدواء ؛ ولو علموا لانصرفوا عنهم وأنكروهم ونبذوهم ، بل وساقوهم إلى المشانق وأوردوهم موارد الحتوف التى يلقون هم بهم إليها وليسبقوهم قبل أن يتمكنوا منهم ؛ ولو علموا لأدركوا أن من مصلحة هؤلاء أن تأكل فى جسومهم ، أى فى الشعوب ، كلُّ ألوان العلل والأمراض حتى تكون هذه الجسوم فى حاجة إليهم باستمرار ، ويكونوا هم أقدر على الفتك بها والسيطرة عليها . هؤلاء المتطببون الدجالون هم إذاً مصدر من مصادر إهاجة الداء واستفحاله . نعم ، إنهم ليسوا خالقى هذه العلل وموجديها ، لكنهم من غير شك عوامل مساعدة على استشرائها وزيادة قوة تدميرها والتعجيل بها أحياناً .

ولقد كان على الشعوب أن تفهم هذه الحقيقة منذ عهد طويل . لكنها لم تفعل — شأن الإنسان دائماً فى أكثر أحواله — فكان جزاؤها ما رأته وتراه دائماً من خراب ودمار . ولو تبصرت لاستطاعت أن تباعد بين هؤلاء و بين العلل التى تصيبها ، حتى تأخذ دورها الطبيعى فى الجسوم دون إهاجة ولا استثارة ، فلعل هذا أن يخفف من آلام تلك العلل ، وإن كان حدوثها ضرورياً . لهذا فأنا أدعو الشعوب إلى الكشف عن هذا الخداع الذى يوقعهم فيه السياسيون تحقيقاً لمطامعهم فى السيادة والسلطان ، ويحرقهم بناره العسكريون كيما يلصقوا بأكتافهم وصدورهم أكبر قدر من النجوم والأوسمة والأنواط .

إيه أيتها الشعوب التعسة ! لقد تنبهتِ إلى الذين يغتالونك فى ميدان الاقتصاد وحاولت أن تقضى عليهم وتنتزعى لنفسك السلطان من بين أيديهم الأثيمة ، أفما آن لك إذاً أن تتنبهى إلى عصبة السفاكين الذين يغتالونك فى ميدان السياسة فتطرديهم خارجه وتشبعى فيهم انتقاماً وتنكيلا جزاء وفاقا بما فعلوا بك حتى اليوم ؟ عليك بهم ! اقتليهم حيث ثقفتِهم ولا تدعيهم يقربوا حرم سلطانك بعد محنتك هذه ولا تأخذْك بهم رحمة فى سبيل أن تظفرى بحياة حرة كريمة أبوها عليك حتى اليوم !

فى هذه الحرب تلك عِبْرة العِبَر فهل من مُدّكر ! » .

وكان الضابط وهو يتحدث بعباراته الأخيرة منتفخ الأوداج ، يضغط ما بين فكّيه ، ويضرب المائدة بقبضة يده ؛ و بين الحين والحين يلقى بنظرات حسرة إلى بزّته العسكرية والنجوم التى تتألق على كتفيه ، ثم يرتد عنها زافراً آسفاً . وكان الضباط الآخرون على مقربة منا ينظرون إلى هذا الخطيب المفوّه وهو يلقى هذه الدروس الغالية ، بيد أنهم لم يكونوا يسمعون كلامه بوضوح لأن الخانة التى انتحيناها كانت متباعدة شيئاً ، تحجزها الفواصل الخشبية الشبكية . بيد أن الحماسة قد بلغت منه مبلغها حينما تفوه بالفقرة الأخيرة حتى ضرب المائدة بيده وقدميه ضربة قوية أطاحت بما كان عليها من أوانى الشراب ، فهوت على الأرض المبلّطة مُحْدِثة دوياً كبيراً تنبه له كل الحاضرين فى البهو . فشغلنا بهذه الحادثة عن حديثه ، وكانت كافية لتهدئة ثورة أعصابه .

وعلى الرغم من أننى لم أفهم الكثير من عباراته ولم أوافق على بعض ما فهمت من حديثه ، فقد أعجبتنى منه هذه الحماسة الفياضة فى عرض ما يعتقد أنه الحق ، وهذه النبرة الإنسانية الكريمة التى كان يتحدث بها عن أهوال الحرب وما تجره على الشعوب من مِحَن و بلايا ، حتى إنى شعرت بشىء من التأثر والشفقة ، أنا التى كنت أعتقد أن قلبى قد صار من ناحية الرحمة أفرغ من فؤاد أم موسى .

١٧ مايو — أنباء أليمة محزنة .

فاليوم وصلتنى رسالة يائسة من صديقتى التى ارتحلت عنا لتشتغل بإحدى المدن الداخلية بعد أن ضاقت بها سبل الحياة عندنا . فقد أنبأتنى أن سوء الحال قد لازمها وألح عليها رويداً رويداً حتى أخذ أخيراً بمخنّقها . طاردتها زميلاتها حتى أرغمتها على الخروج من المرقص الراقى الذى اشتغلت به أولا ؛ فهجرته كارهة إلى مرقص من الدرجة الثانية ، وهنا كابدت الأهوال حقاً : فمعجم القذف الرخيص والشتائم المتناهية فى الوقاحة قد كتب كله تحت إملاء بنات الهوى فى هذا المرقص الجديد . والدسائس والمؤامرات التى تتقنها أكبر العصابات العالمية قد صدرت كلها ممن يعملون أو يعملن فيه ، حتى إن حياتها قد صارت مهددة فى كل لحظة . والروّاد هم الآخرون عصابات من الرجال ومناسير من قطاع الطرق الذين يتخذون من بنات الهوى أبقاراً حلوباً تدر عليهم أخلاف الشهوات الرخيصة والرزق . وبالجملة فإن

دانته لو قدر له أن يضع هذا المكان فى قسم من أقسام « جحيمه » لجاء هذا القسم أشدها هولا وأعظمها ترويعاً وإرهاباً . وبعد أن كانت تسكن فى حى محترم ينأى بها عن العيون الفضولية والألسن المتطاولة ، دفع بها ضيق الحال إلى حى بلدى من الأحياء العتيقة التى باض فيها البؤس وأفرخ ، وكم من مرة اعتُدِى عليها وهى فى طريقها آخر الليل إلى هذا الحى ! وإنها لتتسامع من بعيد أن هنالك نفراً من المجرمين — وهذا الحىّ وكرهم — يأتمر بها ويضمر لها أفظع الشر .

« ... لبَّيكِ يا عزيزتى — هكذا تقول فى رسالتها المكلومة — فقد عيَّت نفسى بإمساك الرمق الباقى من الحياة الرهيبة التى أحملها فوق كاهلى المتهدم ، فليت شعرى ما ذا أنا فاعلة بنفسى . آه لو رأيتنى أى صديقة الصبا ورفيقة الدراسة — والضلال أيضاً ، أليس كذلك ؟ — إذاً لرأيت شبحاً نحيلا يحاول فى غير طائل أن يخفى هزاله وشحوبه بهذه المساحيق الصارخة التى أبلت بَشَرتى وفتَّتَتْ نضرة وجهى ؛ وإذاً لشاهدت كرة من العهارة يتقاذفها لاعبون قساة أشداء يرْكلونها بأقدامهم دون رحمة ، أستغفر الله ! بل يتنافسون فى إحكام ضربها وعنف قذفها — كما يفعل تماماً اللاعبون بكرة المطاط ، اللهم إلا أن هؤلاء يقصدون هدفاً يصوبون الكرة إليه ، أما أنا فأى هدف يقصدونه من رمي وقذفى غير التعذيب والإشقاء وتحطيم كل حياتى ؟ !

أهكذا أستذلُّ نفسى ، أنا التى عشتُ فى كنف العزّ بين أحضان أسرة كريمة موفورة الثراء عزيزة الجانب ! أهكذا يُنتَقم منى ، وأنا التى أملت من وراء مهنتى هذه — أفلا تذكرين ؟ — أن أنتقم لنفسى من الرجال بعد أن خدعنى أحدهم فأضاع مستقبل حياتى ! أهكذا تذبل هذه الزهرة الفاتنة التى خلبت ألباب الرجال حيناً من الزمان ، فصارت اليوم هشيماً تذروه أيدٍ ما امتدت يوماً لإحسان ، وتطؤه أقدام ما سعت مرةً للخير ، وتفركه أنامل ما استُخدِمت إلا لإطلاق النار على الأبرياء واقتلاع العيون ؟

رباه ! أنت أعلم بالسر فى محنتى ، لكن عقلى يصوِّر لى أن شقائى لا يتكافأ مطلقاً مع خطيئتى الأولى . فهل بسبب زَلّة أنت أدرى بنصيبى فى ارتكابها أقاسى كل هذا العذاب الغليظ ؟ أم الخطأ الأول كالخطيئة الأولى لا يمكن التكفير عنه ولا الفداء منه ، وستظل تتوارثها كلُّ لحظات حياتى إلى أن أغادر الدنيا ، ومن يدرى لعلها أيضا أن تلحق بى فى

رمسى ؟ إن مغفرتك أوسع من أن تضيق عن هفوة أتيتها قسراً عنى ، فهل لى أن أطمع فى صفحك ورضوانك ، فتنقذنى من هذه الوهدة الأليمة والهاوية الحزينة ؟

لا زلت أطمع فى هذا الغفران ، فاسكت أيها العقل عسى أن يهدينى ربى من أمرى رَشَدا . . . » .

ما قرأت هذه الرسالة حتى انهلت المدامع على خدى وسالت على نحرى ، وعدتُ أندب حظى مرة أخرى ، لعل هذا أن يكون عبرة لى . وفكرت فيما يجب علىَّ فعله نحو هذه الصديقة الوفية التى لم يُخْلنى ضميرى من المسئولية نحوها . فكتبت إليها لتوافينى فى مقامى هذا عسى أن أخفف عنها لوعتها .

٢٥ مايو — انتابتنى العلة التى لازمتنى طوال الشتاء : فكان زكام وسعال حاد يصاحبه أحياناً بلغم ثقيل . فعرضت نفسى على طبيب مختص بالأنف والأذن والحنجرة ؛ فطمأننى ، لكنه ، وقد سألنى عن حالى وعملى ، نصحنى بعدم إنهاك بدنى فى السهر الطويل والشراب الكثير ، و بالتزام الراحة أياماً . ترى ما السر فى هذه النصيحة ما دام الأمر كما قال لايتجاوز سعالا والتهاباً فى اللوزتين ؟ أخشى أن يكون هناك شىء يخشاه فأخفاه عنى .

أما صديقتى المسكينة فلم تكتب إلىّ بعد . أتُرى أفاء الله عليها رَوْحاً من لدنه ؟ لم ينبتَّ بعدُ حبل رجائى .

١٠ يونيو — الوجوم والبلبال يسيطران على كل رواد المرقص و بخاصة العسكريين من الأجانب والمصريين . فقد دخلت إيطاليا الحرب بعد أن ظلت بعيدة عنها تلك المدة الطويلة . دخلتها وفرنسا فى النزع الأخير ، فكان لهذا أثره فى تقدير فعلتها هذه فاتهموها بالغدر والنذالة ، حتى إن أشد الناس عطفاً على ألمانيا وحماسة لها ، لم يستطع إلا أن يظهر كل سخطه واشمئزازه من هذه الفعلة الوضيعة .

و بهذا النبأ ازداد شعور الناس بخطر الحرب بعد أن كانوا عنها غافلين ، وكأنها فى مكان سحيق . أما اليوم فقد صرنا هدفاً لغارات الطائرات ، ومن يدرى لعلنا أن نكون قريبا ميدان حرب عنيفة . لكنا فى انتظار لهيف لقرار الحكومة عن موقف مصر بعد أن تطور الموقف إلى هذا الوضع الحرج ، وكان أشد الناس ترصداً لهذا القرار هم الضباط المصريون ، لأنهم يخشون أن يمتحنوا لأول مرة فى حرب لا تكاد تعنى بلادهم فى شىء ، فضلا عما

يعوزهم من عتاد وسلاح ؛ أضف إلى هـذا كله عوامل نفسية أخرى لم يكونوا يتوقعون معها أن يدخلوا حربا يوما ما . لهـذا يغلب عليهم الفتور ، وتنقصهم الروح الفدائية التى تنشد الخطر وتجدّ فى طلبه ، لا لشىء إلا لبذل ما فى الباطن من نشاط وقوى زاخرة ؛ وإلا فإن لم يندفعوا من تلقاء أنفسهم لركوب الأخطار أينما كانت ، حتى بغض النظر عن كل نتيجة أو فائدة ، فما لهم أن يدخلوا الحياة العسكرية . إن الروح العسكرية الحقيقية هى تلك التى تجعل شعارها كلمة نيتشه الرائعة : « عِش فى خطر » ، وهى كلمة لست أدرى أين قرأتها ، لكننى لا أزال أذكرها ، بل أراها حية تتحرك أمام عينىّ الباطنتين ، ولعلها أن تكون من الدوافع الخفية التى حملتنى على الدخول فى هذه المهنة ، فأية مهنة أخطر وأشد استثارة للغَرَر من مهنة بنات الهوى ! الروح العسكرية هى التى تمثلت حقاً فى روح الفروسية فى العصور الوسطى الأوربية ، يوم أن كان الفارس يجعل النضال ، أياً كان الغرض منه — ولكن لا بد أن يكون غرضاً نبيلا على أية حال — ، هدفه فى الحياة ؛ فكانت المخاطرة هى جوهر غرائزه وملكاته ، وكان الخطر أقصى أمنياته ، وكان الجهاد النبيل محور حياته . وأنى لأذكر كيف كُنّا نهتز طرباً ونشوةً وإعجاباً ونحن نقرأ « أناشيد الفعال » ، خصوصاً « أنشودة رولان » ، وكنا نطوف بخيالنا فى وادى رونسڤو ونطيح برؤوس الباسك بسيفنا البتار « دوريندانا » ؛ وكم كنا نفخر بموقف رولان وهو لا يصيخ إلى نصح أوليڤيِن ، وإن كنا فى شوق شديد إلى سماع صوته الرائع وهو ينفخ فى بوقه « أوليڤان » . وأذكر كذلك كيف كنا نختصم — مع شدة حماستنا — حول نهاية پرتسيڤال ، ونتنازع أيُّنا يظفر بكأس « جرال » .

إن الروح التى تعوز هؤلاء حقاً ، بل وتعوز عصرنا كله ، هى روح الفروسية : روح بذل الذات لا لشىء إلا للبذل ، روح الجهاد الدائم فى سبيل غاية مثالية قد لا تفيد أدنى فائدة مادية ، روح فيضان القوى الزاخرة لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا الفيض .

أوه ! ماذا ؟ لعلك تسخر منى أيها الدفتر العزيز وأنا أرقم فيك هذه الكلمات الحارة ، وأرى على شفتيك ابتسامة ماكرة وأنت تسمع هذه الألفاظ منى ، بينما ترانى فى حال هى أبعد ما تكون عن روح الفروسية ، وروح النبالة ؟ ولعلك تعجب من هذه الفتاة المنافقة التى توهم نفسها (ولعلك تقول فى نفسك : أتريد أيضاً أن توهمنى ؟ يالها من ساذجة غافلة !) بأنه لا تزال بينها وبين حياة الشرف أية صلة مهما تكن واهية . لكن اغفر لى هذا كله

فما هو إلا ذكرى ماضٍ عزيز لدىّ ليس فى وسعى نسيانه ، أو صدى — بعيدٍ جداً — لقرع ناقوس يثوى فى أخفى خفايا نفسى ولا شعورى ، لا يزال يهيب بى أن أرتد إلى حياة الشرف ، وإن كان النداء همساً خافتاً لا أستطيع مجرد سماعه إلا إذا مزقت آلافاً وآلافاً من أغلفة الرذيلة والشر والآثام التى رانت على تلك الذرة من الجوهر الكريم فى نفسى الماضية ، رحمها الله .

٧ يوليو — عدت إلى مشروعى الذى بقيت أفكر فيه أكثر من سبعة أشهر عساى أن أهتدى إلى الأسلحة السرية الرهيبة التى أستطيع أن أنفذ بها عزيمتى التى ترغب فى الانتقام من الرجال . فرأيت أن فى يد بنات الهوى سلاحين ماضيين هما الأمراض السرية والإيقاع بين رجال متنافسين على خليلة واحدة . والسلاح الأول يقتضى منى أن أكون هلوكا وأن أكون بدورى مريضة دائماً معذبة بهذه الأوبئة نفسها التى أريد أن أفتك بغيرى عن طريقها ، فهل أنا مستعدة الآن كيما أكون مريضة باستمرار ؟ وهل أستطيع احتمال هذه التضحية الضخمة من جانبى ، وكل هذا لا لشئ إلا للانتقام من فتى خبيث قد خدعنى وشاب غِرّ قد هجرنى وما يقع عليه اللوم كلّه ؟ ثم ماذا جنى غيره حتى أصيبه بهذا السلاح القاتل ، وقد كان علىّ أن أصيب الفاعل الحقيقى لو كانت عندى أمانة ونزاهة ؟ وهل فسدت نفسى إلى هــذا الحدّ الذى تطلب معه أن تنتقم لنفسها بأى ثمن وبأية تضحية تبذلها ؟

أوه ! إليك عنى أيتها الأفكار السود الآثمة ، فلا زالت فى نفسى بقية من خير قديم ؛ وإن فرائصى لترتعد ومفاصلى تزلزل ، وأنا أتمثلك أمامى ، فكيف لو أقدمتُ عليها !

إلهى ! أنا الآن فى حُمّى دائمة لا أعلم كيف الخلاص منها . فهل تتداركنى برحمة منك وإن كنت قد لفظتنى من سعة رضوانك أنا وأمثالى ممن حلت بهن لعنتُك وتخطفتهنّ الشياطين ؟

١١ أغسطس — لم تردُدْ علىّ صديقتى المسكينة إلا اليوم ، على الرغم من أنّى تعجلتها برسالتين أخريين ، وهى فى ردها هذا قد كشفت لى عن حال تهوى إلى الدرْك الأسفل بسرعة جنونية ، حتى إنها يئست من الخلاص ، فهى تقول فى رسالتها :

« تداعت حصونُ صبرى وما عاد لى بعد اليوم فى الحياة مأرب . جحيم فى الخارج

وجحيم فى الباطن ، فماذا بقى لى من مكان أستطيع أن أتنفس فيه ؟ أين هذه الحياة العامرة بالإيمان بالدنيا ، وأين هذا القلب الذى كان يتمنى أن يسع الكونَ كله ، وكان فى استطاعته أن يظفر ببعض من هذه الأمنية ، لولا تلك الزلة الكبرى التى ما كنا نعلم شيئاً عن مداها ، ولا كنا نحسَب الرب جباراً منتقماً منّا بسببها إلى هذا الحدّ الرهيب ؟ أما الحياة فقد صارت نَسْمة تفوح من جيفة مُنْتِنة ، تنهشها الكلاب البشرية من كل الأنواع : وكلٌ مستمتع بِقِدْرته من اللحم ، وأنا وحدى الضحية البائسة على مذبح شهواتهم . ولا شىء فى الدنيا أشد ألماً من أن يُضطر المرء إلى بذل اللذات للناس وهو محروم من كل نعمة وكرامة . أما القلب فقد صار رماداً أوشِكُ أن أضعه فى إجّابة الاستشهاد حتى يحيا مع الخالدين ، لأنه على الرغم من كل ماحدث لى حتى اليوم ، فقد ظل طاهر العنصر كريم الجوهر ؛ لكنه من فرط ما أبهظته الحياة قد خبا نوره وخَمَد لهيبُه .

« فليس لى إذاً إلا أن أتخلص من هذه الحياة الرهيبة وأقضى عليها بعد أن قضت علىّ . ولقد حاولت عبثاً أن أستغيث بأهلى ، لكنهم لم يستمعوا لشىء من نداءاتى الحارّة الباكية ، ولم يحفلوا بتضميد جراحى النجلاء ، بل ظلوا فى صَمَمٍ عن كل توسلاتى واستغاثاتى ؛ وبعد رسالتين بعثتهما ولم تعودا ، أصبحت رسائلى إليهم ترتدّ كلها إلىّ ثانيةً ، فاستيأست منهم نهائياً ؛ وما كان لهم فى الواقع أن يفعلوا غير هذا . لقد كانوا على حق حينما نبذونى بعد أن نصحونى ؛ أفليسوا اليوم على ألف حق إن تنكروا حتى لمجرد وجودى ؟

« آهٍ لو عرفَتْ كلُّ فتاة ما ذا سيؤول إليه أمرها حينما تغريها الحياة باقتطاف الثمرة المحرّمة وهى فى مطلع الشباب الغافل ، إذاً لما بذلت نفسها لكائن من كان ، ومهما يكن الثمن . أتذكرين تلك الآمال العجيبة التى كنا نحملها حينما عزمنا على الخوض فى معترك الحياة وأردنا أن نقلد الشباب فى شق الطريق بأنفسنا إلى مستقبلنا ؟ أتذكرين الإيمان الراسخ بنجاحنا فى مسعانا هذا ، وقد كنا فتيات عَبث بها طموحُ الشباب فاندفعن وراء الأحلام الزاهية والأمانى العريضة ووَثِقْن كل الثقة بالقيم التى وَضَعْنها لأنفسهن دون أن يحسبن لواقع الحياة ولا لسلطان المجتمع أىّ حساب ؟ أكنّا إذاً واهمات إلى هذا الحد العجيب أم هو المجتمع لا يزال فاسد الدعائم منحطّ القيم ، فلم نكن نحن ولا مبادؤنا تصلح له ولم يكن هو صالحاً لها ، فاختلفنا وكان — بلسطانه المادىّ على الأقل — أقوى منا فصرعنا

وكنتُ أنا أولى الصَّريعات ، أما أنتما فلا لا تزالان تحمدان على الأقل عيشتكما الراهنة ، لأنى لم أسمع منكما بَرَماً ظاهراً بالحياة ، اللهم إلا إن كنتما تخفيان علىّ من مكنون أمركما شيئاً . وما أدرى بعد هذا مَنْ ألوم : أألوم نفسى على أننى لم أحسب للواقع حساباً ، فسعيت وراء آمال أقمتها على أساس قِيَمٍ أنا التى وضعتها دون أن أستشير واقع الحياة فيها ، أو على الأقل أراجعه ؟ أم ألوم المجتمع والحياة على أنهما لم يستمعا لى ولم يحفلا بمبادئى وقد كانا خليقين بأن يجدا فيهما شيئاً مما عساه أن يصلح من أمرهما ؟ أنا حائرة فى الحكم ، لأن الحياة فى المجتمع ليست من الصلاح بحيث لا أتردد فى اتهام نفسى ، بل الكلُّ يشكون منها ، وكل من يحاول أن يقترح علاجاً يضطرّ إما إلى الإخفاق أو إلى مسايرة أهواء الحياة الواقعية ؛ وكلاهما شر لا يؤدى إلى مقصود يمكن الاطمئنان إليه ؛ فنحن إذاً ندور فى عجلةٍ أبداً ، وما لنا من خلاص .

« حقاً لقد امتلأت نفسى تجارب حية فظفرت منها فى عام واحد بما لم يكن لى أن أظفر به فى عشرات الأعوام ؛ لكن ما قيمتها ما دامت لم تؤد إلى السموّ بنفسى والارتفاع بكيانى الروحى ؟ أتُنْشد التجارب للتجارب دون ما تهدف إليه أو تُفضى ؟ لست أدرى ! لكن تعَست تجربة لا تؤدى إلى علاء بالنفس وسموّ بالقلب ! ولقد صدق من قال : من الأشياء ما يفضلُ عدمُ رؤيتها رؤيتها .

« امتلأ الكأس ، فما عليه بعدُ إلا أن يفيض ؛ واحترق الحطب كله بنار الحياة الحامية فلا مناص إذاً من أن يستحيل كله إلى رماد . وأنت ، أيها القمر ، الذى طالما ناجيتك فى الليالى الحزينة الدامية وأنا عائدة من مقبرتى فى الماخور إلى بيتى الخشن المهاد ، يا من كنت أجد عنده العزاء عما ألقاه من أذى الدنيا وعذاب الحياة وهوان الناس ، هل لك أن تهدينى سبيلى وتشير علىّ بما بقى لى فعله فى الحياة ؟ وإنك لتعلم ما بينى و بينك من مودة وصلة : لم أكن أتفقد وجهى فى المرآة وأنا عائدة من أعمالى الشاقة الرهيبة حتى أُهْرَع إلى رؤيتك من شرفتى الخشبية الواهية كى أجد فى شحوبك عَزاء عما فى وجهى من إسهاب وصُفْرة ؛ ولم أكن أشعر بوطأة الوحدة حينما أخلو إلى نفسى فى الهزيع الأخير من الليل بعد أن أوهمتها بصحبة زائفة ما كانت إلا سباعاً ضارية تنهش لحمى وتعرُق عظامى — حتى أفزع إليك

فتؤنسني بنورك الرقيق الرخو أسبح فيه بكل كياني وأرقد بين أحضانه فأستنشي نسيم الراحة عليلاً مائعا .

« إن لم تنصفني الأيام وشيكا فأنا بسبيلي أن أتخذ حيال الحياة موقفاً حاسماً » .

كم أرتاعت نفسي وأنا أقرأ هذه العبارة الأخيرة فقلت لنفسي : إنه الانتحار إذاً ! يالله ! لقد بلغ اليأسُ بهـذه الصديقة الحبيبة حداً جعلها لا تقيم وزناً للحلول الجزئية : فما ذا يجديها أن أضيفها أياماً أو أسابيع بل وأشهراً ؟ هذا فرار من المشكلة وليس حلاً لها ، خصوصاً وهي تعلم من خبرتهـا بأحوال بنات الهوى أنهن أعجز من أن يقمن أَوَد أنفسهن ، ناهيك إذاً بأن يقمن أَوَد غيرهن ! لقد كان لها في خيبة أملها ما يكفي لردّها عن وَهْم لحظات .

تُرى سيكون هذا مصيرَنا جميعاً معشر بنات الهوى ؟ ياويلتاه ! ألا رُحماك أيها الرب الغفور الرحمن !

٢١ سبتمبر — بدأت الغارات الجوية تشتدُّ عنفاً وخطرا هـذه الأيام ، والضحايا من المدنيين عديدون فضلاً عن الخسائر في العقار والمنشئات . ترى ، وقد نفذت الحرب ، بفضل سلاح الطيران ، إلى كل بيت وكل إنسان ، تخف شهوة الناس للحرب ؟ إن مدينتنا هذه هدف جيد للغارات العنيفة وأخشى أن تزداد إلى حد يحملني على مغادرة المدينة .

لا زلت أجيـــل في نفسي مشروع انتقامي العظيم ، وفي كل يوم أزداد إيمانا بعزيمتي هاتيك .

وإني لأستقبل مَقدم الخريف بنفس ساجية مشتاقة ، لأن هذا الفصل الشاحب يحمل إلى قلبي الخائر بلسما عذبا . وإذا كنت لم أتعود أن أسجل فيك ، أيها الدفتر العزيز ، شيئا يتصل بالمعدة إلا نادراً ، فلا يسعني هذه المرة إلا أن أسجِّل إعجابي بأكلة سُمانَى أتحفنا بها أحد خلاني من أهل المدينة .

٢٥ أكتوبر — يبدو أن شيئا من الأمل قد عاود صديقتي المسكينة . فرسالتها الأخيرة تتحدث عن شيء من الاطمئنان قد بدأ يأخذ سبيله إلى نفسها ، وعن شيء من الإقبال على الحياة بعد أن أدبرت عنها وظنت هذا الإدبار إلى غير رَجْعة . ولـكنها لم تطلعني على السرفي هـذا الإشراق : أنجمٌ جديد بزغ في سماء حياتها ومنّاها بهدايتها إلى حياة أكرم ؟ أم هي حالة اليوفوريا التي تسبق الموت مباشرة ؟ أملي أن يصدق الفرض الأول .

صرنا الآن ميدان حرب فعلاً من الجانب الغربى : ولهذا شعر الناس ببعضٍ من القلق وتحركت فى نفوس الشباب نزوات فيها من الغموض ما لا يسمح بتسجيلها . إنه اهتزاز وتوثب فى الجميع من غير شك .

ولقد أصبح رواد المرقص اليوم من الضباط الأجانب أكثر رزانة ووقاراً من روّاده السابقين ؛ ويغلب عليهم شىء من الحكمة وإن شئت فقل : المكر .

٢٢ نوفمبر — أرانى قد أتقنت عملى فى مهنتى هذه إلى درجة ممتازة حقاً ، حتى إن الفتيات ليحسدننى جميعاً على مهارتى قائلات عنى إننى سبقتهن جميعاً حتى أذكاهن وأقدمهن لها ممارسة ؛ ولقد اغتبطتُ لهذا الإطراء ثم حاولت أن أعرف مقدار صدقه فى داخل نفسى. فوجدتُنى قد صرت أبرع فى اصطياد الفتيان وأقدر على معالجة الشيوخ ؛ والنفقات قد نزلت إلى أقل مقدارٍ ممكن أبذله من أقوال زائفة تعبث بعقول هؤلاء الأغرار من الفتيان ، ثم نظرات ماكرة لعوب تبعث الطمأنينة فى نفوسهم حينما يقلقون أو يتنبهون إلى استغلالى إياهم وحبائلى التى أنصبها لهم ، ولعل آخر ما أجود به شبه قبلة عابرة أو احتكاكة خفيفة بالكتف أو يدى أعطيها لِلَثم . آه ! ما أشد سذاجة هؤلاء الشبان ! إنهم يدفعون الباهظ الفادح من أموالهم وأنفسهم لقاء تلك الهنات التافهات ، ومع هذا تراهم مغتبطين كأن نظرة زائفة من عيوننا الكليلة تكفى للدخول بهم فى جنة النعيم ، ومثلهم كمثل هذا الصوفى الهائم فى وجده وهو يصيح : نظرةً يا سيدى ... نظرة ! أو كأن ابتسامة باردة كالحة نبصقها من شفاهنا التى أنهكتها المساحيق هى علامة الرضا من جانب ربّ الأرباب ؛ أو كأن كلمة جوفاء نكررها أبداً بكل مناسبة هى كلمة السر الأعظم قد فاض بها الفلكُ المحيط على الأقطاب المختارة والأوتاد الراسخة ، أو هى كلمة الحضرة التى يُخلق بها كل شىء ! ياللّٰه ! إن المرحوم ضميرى يزورنى فى المنام أحياناً فيعاتبنى على شىء من هذا التضليل الأكبر الذى لا أعرف أن فى الدنيا تضليلاً قد بلغ مقداره ، فأرثى أحياناً لهؤلاء الأطفال المساكين الذين نعبث بهم كل هذا العبث المُنكَر ؛ ولو أطال المرحوم زيارته حتى شطرٍ من اليقظة إذاً لأقلعت عن بعض هذا الخداع والاحتيال ، بيد أنه ويا حسرتاه ! قد غادرنى فى اليقظة أبداً ، بل إن زياراته فى النوم قد تضاءلت رويداً رويداً ، ولعل السر فى هذا أنه قد يئس منى نهائياً تقريباً ، ولن يلبث أن يختفى نهائياً عن هذا الملاذ الأخير لنفسٍ كريمة نبذتها ودفنتها فى عمائق

اللاشعور . وهذه المسكينة الدفينة هى التى تصلى الآن تأمتها الواهنة حزينة خافتة لا تكاد تجرؤ على النفوذ حتى قدس أقداس الشر الذى ألوذ به أنا اليوم ، أنا ونفسى الأخرى ، نفسى الأمّارة بالسوء .

أواه ! ما هذا الذى كتبتُ ؟ ما بالى أستخدم ها هنا تعبيرات صوفية يجرى بها قلمى وينطق بها لسانى مُمْلياً ؟ أترى بين حالتى تلك و بين حال الصوفية صِلَة ؟ يساورنى خاطر يحملنى على المقارنة ، يصوِّر لنفسى أن الصوفية معنى مشترك يطلق على مغالاة متعمّقة فى جانب من جوانب الشعور أو العمل المُصاحَب بالشعور . فمن ينشد الاتحاد بالله بقلب مُتّقد فهو صوفى إلهى ؛ ومن يوغل فى النفوذ إلى أعماق ما هو أرضىّ فهو أيضاً صوفى ، ولكنه صوفى أرضى . وأنا من هذا النوع الثانى : فقد غُصْت بكل كيانى إلى أعمق عمائق الشهوة الآثمة فأصبحتُ متصوّفة فى الشهوة .

بيد أنى أخشى إذا اطّلَع الصوفية المتألّهون على هذه الصفحة أن يُحرقوها وصاحبتَها ، فكيف أجرؤ على أن أقارن بين حالى وحالهم ، أنا ... ؟ ! ولهم كل حق ، لكن من يدرى ؟ لعل الشقّة بينهما ، على الرغم من سعتها ، ليست عل النحو المبالغ فيه كما يظنون !

أنا هذه الأيامَ فى نعمة رخية ساجية : فالخريف الناعم يحتضننى بين حشاياه الوثيرة فأغرَقُ فى أحلام شاحبة كألوان الأصيل ، والسماء خارقة الزُّرْقة تملأ النفس روعة مشدوهة ؛ أوه ! ما أجمل الخريف فى بلادنا ! ليتنا عشنا فى خريف دائم ! إنه أقرب ما يكون إلى طبيعتنا نحن المصريين : فيه رقة إحساسنا رقةً تبلغ حد الرخاوة الساجية ، وفيه الحُزن الناعم اللطيف الذى لا يفارق وجوهنا ، وفيه هذا الاستسلام الكريم لحياة اعتصمنا منها بالشاطئ لأننا لم نقو على الدخول فى دوّامة تياراتها العنيفة الصاخبة ، وفيه هذا الصفاء الذاهل الذى قد يجعل غيرنا يتهمنا بالسذاجة إلى درجة الغفلة ؛ ولكن فيه أيضاً ذلك الأنس العميق الذى يجعلنا أقرب إلى أسرار الكون والاتحاد بقواه المستسرّة .

لكنى لا أدرى وجه الخير : أنظل على حالنا هاتيك ، أم نحاول أن نغير ما بأنفسنا ؟

١٥ ديسمبر — أوّاه ! ويلى عليك وويلى منك أيها الشتاء الرهيب ! لم تكد تبدأ بواكيرك حتى هجمت علىّ منقضاً بطائرات قوية من البرد الشديد تمطرنى بوابل من قنابل السعال والزكام والبلغم ، حتى كاد صدرى يتمزق من عنف السعال وقسوته ؛ ولم يكن

نعت مفر من الالتجاء إلى طبيب أمراض صدرية ، فلقد ترددت فى خيالى صُور رهيبة لذلك الداء العُضَال ، خصوصاً منذ أن دخلت المهنة ، لأننى كنت أقرأ فى حياة الكثير من أمثالى أنهن أصبن بالتدرن ، كما أثرت فى نفسى خصوصاً قصة « غادة الكاميليا » وقد قرأتها مراراً وشاهدتها على المسرح والسينما عدة مرات ، فقويت معانيها فى أعماق نفسى ، وكنت أتذكرها وأذكر حال مرجريت جوتييه فى رِعدة مستمرة .

عادنى الطبيب ، لأنى لازمت الفراش أياماً ، فلم يكن سبيل إلى الذهاب إليه بنفسى . وحينما سألته عن النتيجة لفحصه راوغ وداور ولم أظفر منه بجواب قاطع واضح ، وأخيراً قال : لا خوف ، ما دمت ستعملين بما أشير عليك به وتستشفين أياماً فى المكان الذى أرشدك إليه ؛ لكن لا تفزعى ولا تجزعى ! فقلتُ : ويحى ! أهو الداء ياطبيب ؟

— قلتُ لا تُراعى ! فالأمر عادى يحدث كثيراً خصوصاً لمن ينهكن أنفسهن فى السهر والشراب ويعرِّضن أجسامهن دائماً للبرد والتيارات بسبب ثيابهن التى يُضطَرَرْنَ إليها بحكم وظيفتهن .

— إذاً هو الداء بعينه ؟ أرجوك أن تطمئننى ؟

— قلت اطمئنى ، لكن اعملى بكل ما أشير به عليك ؛ و يدعوك إلى الاطمئنان خصوصاً أنه ما من إنسان إلا وفى جسمه هذه الجرثومة ؛ وأحياناً لا تظهر أعراضه وذلك فى النوع المسمى بالسل الساكن ، وأحياناً أخرى تكون ظاهرة ، كما فى النوع الحاد ؛ وقُصَيَّات (بسِلَّات) السل تتخلل كل الهواء الذى نستنشقه فى المدن ، خصوصاً فى الأحياء المختنقة ، فمن مِنَّا إذاً يخلو منه ، وهو المنتشر فى الجسم كله وقد تعيش قُصَيَّاته فى البُصاق الجاف عدة سنوات ! إنما يأتى السل الحقيقى حينما تضعف مقاومة الجسم ، أو حينما تهاجمُ أسرابٌ ضخمة من القصيات الجسمَ ، خصوصاً الرئتين ؛ هنالك تنمو الجراثيم الأولى التى كانت راقدة ساكنة وتحدث آثارها المدمرة فى البدن ؛ بل إن النوع منه الذى يأتى بمعونة الوراثة أو البيئة لا يبلغ حد المرض الفعلى إلا تحت تأثير العاملين السالفين : من ضعف أو مهاجمة . فما علينا إذاً وقد اتضح لك أمر هذا الداء إلا أن نعمل على زيادة مقاومة البدن ، فهذه هى الطريقة المُثلى .

— لكن ماذا أعمل ، ومهنتى تقتضى منى أن أنفق خلايا بدنى فى سُهاد مغتصب وشراب مُنْهِك وملاطفات لعلها أن تكون على بدنى أشد وقعاً من السهاد والشراب ؟

— خذى قسطاً من الراحة بين الحين والحين ؛ ودعى الكسب جانبا حتى تعود إليك صحتك سليمة .

ثم ذرفتُ دموعا غزاراً وودعت الطبيب وانصرفت على أن أقوم بتنفيذ نصائحه بكل دقة وعناية .

والحق أنى لم أكن أتوقع الإصابة بهذا الداء ، وإن كنتُ بعد فى مرحلة الإنقاذ ، لأن بدنى كان من القوة بحيث لا يدع مجالاً لافتراض التأثر به على الرغم مما كنت أسمع عن ضحاياه من بنات مهنتنا ؛ ولم يكن فى أسرتى ما يدعونى إلى افتراض تدخل عامل الوراثة ، لهذا كنتُ أقْبل على عملى بكل حماسة وجِد ، شأنى دائماً فى كل ما آتيه من أعمال ؛ ولم أحسب حسابا لأى داء ساكن مُستَتِر يمكن أن يعمل عمله على غير علم منى . وكانت الفتيات يعجبن من شدة مقاومتى وعدم اكترائى لمتاعبى ويحسدننى على صلابة بنيتى ومتانة أعصابى .

لكن هأنذا أُفاجأُ بتلك الطامة الكبرى التى ستقوّض صَرْح حياتى سريعاً ، وما من حيلة لدفعها أو تجنبها .

إلٰهى ! تلك محنة جديدة ثالثة أصبتَ بها عبدتك المسكينة ، فغفرانك مرة أخرى !

١٩ يناير سنة ١٩٤١ — بعد أن أمضيت أسبوعين فى أقاصى الصعيد أتردد بين الفنادق الشتوية الرائعة وعن يمين وشمال تتراءى آثار أجدادنا العظيمة ، هأنذا أعود إلى عملى وقد تحسنت صحتى كثيراً ، واستشرت الطبيب مرة أخرى فأشاع الطمأنينة الكاملة فى نفسى ، وقال إنه لم يبق علىّ إلا أن أكرر هذه العمليات الرياضية وأن أُعنى بحال بدنى ؛ ولعل من الخير لى أن أغادر ذلك الثغر إلى مدينة داخلية جافة الهواء . وقد كانت الغارات ، من ناحية أخرى ، تزداد عنفاً وهولاً ؛ وكان من أثر هذا المرض الذى ألمّ بى أننى أصبحتُ سريعة التأثر بالضوضاء والقلق من أية استثارة أو إزعاج . لهذا بدأت أفكر فى الانتقال من هذا الثغر إلى مدينة كبرى فى الداخل ، ولكنى لم أستقرّ عند رأى بعد .

ولقد دفعنى هذا الهزال فى بدنى — مما يبدو أثره الواضح على وجهى ويهدّدنى فى عما يصيب به جمالى وفتنتى — دفعنى إلى التفكير فى مستقبلى ومصيرى . فماذا عساى أن أفعل لو ذبل هذا الجمال الرائع ؟ لا أمل إلا فى إجادة فن الرقص . لذا قررت أن أتلقى دروسا فى أشهر الرقصات الكبرى ؛ ولكنى حائرة بين الرقص الشرقى والغربى

والزنجى الأمريكى . وعلى كل حالٍ فلأحاولها جميعاً ، فما أفلحتُ فيه انصرفت إليه .

٢٨ فبراير — انتهى بى التفكير إلى مغادرة الثغر ، واخترت القاهرة مكاناً أستأنف فيه عملى لأن جوها أقرب إلى معاونة صحتى ، ولأنها من السعة بحيث أستطيع أن أتنفَّس فيها بحرية أكبر ، فضلاً عن كونها بمنأى — إلى حد ما — عن الغارات المدمِّرة التى كنا نصلى نارها فى ذلك الثغر البرىء المسكين . والحق أن هذه المدينة لا ينقصها إلا الروح : فبدنها جميل فاتن القَسَمات حسن التكوين ، على الرغم من أن أحشاءه كأحشاء الحيوان ، خصوصاً أجزاؤها الخارجية التى تتبدى بالنسبة إلى الداخل كأنها ثياب فاخرة على بدن مهزول قبيح . أما روحها فلست أدرى أهى مستقرة فيها ، أم فاضت وغادرت بدنها ، أم صارت من الاختلاط والاضطراب بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يتبينها على أى وجه هى ، شأن المزيج المشوه من عناصر متباينة ؛ ثم إن نفسها حزينة تعلوا الكآبة معظم أجزائها ، ولولا هذه الضواحى البديعة التى تكتنفها ، لحسبتها مقبرة فِرْعونية ضخمة ؛ وتخطيط شوارعها وطرقاتها ، خصوصاً فى القسم الحديث منها ، لا يكشف عن غاية ولا ينطوى على أى معنى ، مع أن تخطيط الطرقات فى المدن يكشف عن روحها بكل جلاء ؛ ولا يستثنى من هذا إلا الأحياء القديمة : فتخطيط أزقاتها يمثل الروح السائدة فيها والجو الملمّ بها تمثيلا واضحاً . ولعل هذه الفوضى فى التخطيط أن ترجع إلى عاملين : الأول أن أمر التخطيط غير موكول لأصحاب الذوق الفنى ، والثانى — وهو الأهم — أنه تخطيط مصطنع لم ينشأ عن حاجة طبيعية . والحق أن هذه المدينة — فى هــذا القسم الحديث — لم تَنْمُ بطريقة طبيعية أبداً ، لذا تراها هنا متسمة بالصناعة ، و بأقبح ألوان الصناعة . ومن هنا تبدو لى ثقيلة مصطنعة كالحة الوجه . أوه ! إنى لأخشى على نفسى أن تمقتها وتملها بعد قليل ! ويا ليت القوم قد عالجوا هــذا القبح الصناعى ولو بمباهج صناعية تُشِيع نوعا من الروح فى هذه الجثة — إى والله إنها جثة ، هذه القاهرة الدميمة ، لو قورنت بالثغر الذى كنت فيه — ، لــكنهم لم يفعلوا شيئاً ولم يفكروا إلا فى تلطيخها بمساحيق صارخة زادتها دمامة على دمامة .

أوه ! أين منى الآن ثغرنا الجيل ! لــكن هذا ضربة لازب ؛ فلننزل هذه المقبرة مرغمين .

١١ مارس — ياهول الفاجعة ! انتحرت الفتاة المسكينة !

فقد طالعت اليوم فى صحف الصباح نبأ انتحار فتاة ذكروا اسمها — وكان اسم صديقتى :

وذكروا عنها أنها كانت من بنات الهوى اللاتى دفعهن سوء الحال إلى نشدان الراحة فى الموت . فتوزعتنى الشكوك والهموم لأن لهجة رسائلها الأخيرة — وآخرها كان منذ ثلاثة أسابيع — كانت تحمل شيئاً من التفاؤل ، وكنت أظن من وراء هذا أنها بسبيل أن تظفر بما يهيىء لها من أمرها رَشداً . وإذا بهذا النبأ الأكبر ينصب علىّ فتستكُّ منه مسامعى وينهد ركنى . أواه ! لقد شق فى وجودى صَدْعا لا ينشعب ، وأشاع فى نفسى قلقاً يتجاوز كل وصف ولفظ . فظللت نهارى أتقلب على جمر الألم وأتدافع متذبذبة بين قوى الشك التى تقاسمتنى ، إلى أن وافانى البريد برسالتها الأخيرة ، ففضضتها بقلب لهيف ، ونفس حيرى مولهة ، فوجدت فيها :

« عزيزتى !

هذه آخر رسالة إليك و إلى الدنيا بأسرها . فأنا أكتب إليك الآن وعلى مكتبى زجاجة السم ، هذا الفادى الأكبر المخلِّص للبشر من عذاب حياة لست أفهم بعدُ ماذا يحملهم على الاستمرار فيها ؛ أما أنا فقد أيقنت أنها لم تكن تستحق حتى مجرد النظر إليها ولو من بعيد ، ناهيك بالتعلق بها والحرص عليها . وإنى لأعجب من نفسى كيف لم تمتلىء بهذه الحقيقة إلا متأخراً ، وكيف سوّلتْ لنفسى هذا الأمل الخُلَّب الذى كان يدعونى إلى الصبر ويزوِّر لى المستقبل على أن به خيراً أو ما يشبه الخير . والناس من قديم الزمان ما منهم أحد إلا وهو ساخط عليها ، زارٍ لها ، ومع هذا فإنهم من الجبن بحيث لم يجرؤ واحد منهم على أن يدعو الجميع إلى القضاء عليها ويرافقه الكل على هذا ، فتنتهى تلك المهزلة الوضيعة التى لم يعد أحد يتسلى بها إلا إذا كان من الغفلة والرغبة فى التوهم بحيث ضُرب على قلبه بالأسداد ؛ اللهم إلا نفراً نادراً فريداً متوحّداً دعا القوم إلى الخلاص من هذه المهزلة ، لكنهم رجموه وعَدَوا خلفه حتى أرغموه على التراجع أو تركوه وحده يُنهى مأساته الخاصة بنفسه . إنهم جبناء آثمون هؤلاء الذين لا يزالون يتعلقون بالحياة ، ويجدون فيها أية مدعاة إلى البقاء فيها والاستمرار عليها . إنهم مضللون آثمون هؤلاء الذين يعدون الخلاص من الحياة جبناً وخوراً : إنما الجبن أن تستمر فى عمل أنت موقن بأنه خاسر كله .

« أتعرفين ماذا فعل بى ذلك الفتى الذى ظننته نجم حياتى الجديدة ؟ بعد أن بذل ما بذل من وعود ، حتى بذلت له أنا كلّ ما أملك من روح وبدن ، بدأ يثير الشكوك من حولى ،

وينتحل المعاذير الغريبة لقطع ما بيننا من صلة ، وهى معاذير لا أساس لها ، لأنه كان على علم بأسبابها منذ اللحظة الأولى ، أفلا يُعَدّ هـذا أكبر خداع وأشنع احتيال على فتاة برَّأت نفسها له وأسلمت قيادها إليه ؟ فهل نحن ندور إذاً فى عالم خداع يحاول كلٌ فيه أن يخدع الآخر إلى أقصى حد مستطاع ، والناجح فى الحياة هو أبرع الناس فى التمويه والدجْل والخداع ؟ إن كان الأمر على هذا النحو ، فأين هى النفس الكريمة التى تسمح لنفسها بالبقاء فى هذا النهر النَّجِس المدنَّس ؟ الحشرات الدنيا هى وحدها التى تستطيع أن تعيش فى الأماكن العفنة النتنة ، فإن كانت الحياة دار عفونة ونتانة ، فهل يستطيع أن يقيم فيها إلا الحشرات الدنيا من بنى الإنسان ؟ ماذا أقول ! إنما يمكن أن يحيا فيها جنس نَغَل لا هو إلى الحيوان ينتسب ولا إلى الإنسان .

« أَفَلَستُ إذاً مصيبة فيما قررته ؟ لقد أفضتُ قِداح الرأى فى هذا الأمر وأنا هادئة فى كمال أعصابى وعقلى وشعورى ، ومن هنا هذه اللهجة الهادئة العاقلة التى أتحدث بها فى هذه الرسالة ؛ والحق أن التفكير المنفعل المهتاج هو أبعد أنواع التفكير عن اتخاذ مثل هـذا القرار الحكيم فيما رأيت ، لنفسى على الأقل — ، ولذا فليس للناس أن يُدهشوا حينما يرون أكثر الناس رزانة وهدوءاً وتعقلاً هم أكثرهم إقبالا على اتخاذ هذا القرار النهائى الحاسم ، لأن مثل هذا القرار فى حاجة إلى رجاحة تفكير ووزن دقيق للأمور لا يتيسر إلا للعقل الواضح الذى يستطيع أن يميز ما يأخذ مما يدع فى اطمئنان ونصاعة تفكير . لهذا شاهدت دائماً أن الذين أقدموا على الانتحار كانوا فى غاية الهدوء وضبط النفس والرزانة ، بل المنفعلون منهم كانوا قبل إقدامهم على هـذه الفعلة فى دور رزانة وتعقل يطول و يقصر وفقاً لتشبع نفوسهم بأمثال هـذه القرارات . لهذا يخطئ من يظن أن هذه القرارات لا تصدر إلا عن عقول مفقودة وأعصاب ذاهبة .

« لكن لا تحسبى من هذا أننى أدعوك إلى شىء منه ، هيهات ! هيهات ! بل انعمى ما شئت بالحياة التى أراك تقبلين عليها بكل حماسة وحرارة ، ولم أسمع منك شكاة منها ولا تململا . وما كان لى أن أنصح إنساناً بشىء لا يجد هو فى باطنه دافعاً ذاتياً يدفعه إليه و يحمله عليه حملا . فأنا أبعد الناس عن أولئك الوعاظ الدجالين الذين يزعمون أن الوعظ بالكلم يمكن أن يخلق شيئاً أو يؤثر أثراً ظاهراً دون أن يتجاوب به الباطن ، لأنه كان قابلا له ، بل مستعداً

له ، وما كان ينتظر إلا التنبيه والنداء يأتيه كيا يستيقظ . وما أبغض الوعظ إلى نفسى ! إننى أمقته بكل قلبي وأحتقر كل من يلجأ إليه ، لأنه مهرج دجّال يفترض فى الناس الغفلة أو ضياع الذاتية وانعدام الشخصية .

« فهنيئاً لك حياتك هذه ، أنت وغيرك من الناس الذين يقيمون لها وزناً . أما أنت ، يا حياتى ، فسُحقاً لك وبُعداً ، هأنذا أنبذك وأركلك بقدمى باصقة فى وجهك الكالح الدميم ؛ إنى لأحتقرك بكل نفسى ، وآية ذلك أننى لن أقضى عليكِ إلا بواسطة شىء تافه مهزول هو جرْعة من هذه الزجاجة العزيزة ، أنت يا من تزعمين أنك أقوى من كل قوىّ ، بينما هذه القطرة الضئيلة كافية لإفنائك ؛ وأتحداك أن تقاومى ، ولن تقاومى ! »

هذه الكلمات القوية العنيفة التى فاهت بها الفتاة بلهجة الواثقة الصادقة قد زادتنى حيرة وأشاعت فى نفسى يأساً عميقاً قاتلا ، فاتلا حقاً لو وصلتنى مثل هذه الرسالة قبل اليوم بعامين حينما كان « المرحوم » ضميرى لا يزال على قيد الحياة . لهذا جاءت الرّعدة عندى فى الأعماق وحدها ولم يظهر لها أثر واضح على السطح ولا فى الخارج .

أتُرانى قتلتُ نفسى إلى هذا الحدّ فلم تعد مثل هذه الأحداث الرهيبة تدفعنى إلى تفكير حاسم ؟ !

٢٥ مارس — ربيع حزين تتوزعنى فيه أفكار سود ؛ ولا يعزينى فيه إلا زهرتى المحبوبة ، زهرة الثالوث (البنسيه) وقد غرست منها الكثير هذا العام . وهأنذا آخذ بعض أزهارها إلى مكتبى وأناجيه وأنا مكبّة عليك أيها الدفتر الحبيب ، أو أحملها إلى وسادتى حيث أغرق فى أحلام يقظةٍ رهيبة .

ما زالت حادثة صديقتى المنتحرة تشغل بالى إلى أقصى حد ، لا لأن عاطفة الرثاء والعطف على الآخرين قد بعثت من مرقدها عندى ، ولكن لأنى أخشى على مصير نفسى : بيد أن لى فى موت ضميرى خير ضامن يحمينى من ارتكاب فعلة هذه الفتاة البائسة . أواه ! أشد ما أخافه أن يُبعث هذا الضمير يوماً فيدفع بى إلى تلك الهاوية !

لكنى لو فتشت فى حقيقة نفسى عن الأثر الواضح لهذا الحادث فيها لوجدته فى ازدياد رغبتى فى تحقيق مشروع انتقامى العظيم ، لأن نفسى قد ازدادت مرارة ، وبغضاً للناس ، وصرت أكثر تقبلاً لفكرة الانتقام من البشر .

ولا جديد فى الخارج عندى إلا أننى تعرفت أخيراً إلى ضابط إنجليزى يغلب عليه المكر والدهاء . وهو يحسن العربية لطول اشتغاله فى الشرق العربى ؛ ولا غريب فيه إلا أنه شديد الحرص على السماع أكثر منه على الكلام ، وأنه ينفق عن سَعَة لم نشاهدها من قبل لدى كثيرين غيره منهم ، وهذا الإنفاق لا يتصل بنفسه بل بغيره من الناس . وقد تردد على المرقص مرتين أو ثلاثاً حتى الآن ، يصحبه رجل متوسط العمر يبدو من لهجته أنه لبنانى ، لكنه يقيم فى مصر منذ عهد طويل . إن هذه اللهجة خليط من اللبنانية والمصرية تتردد بينهما رَطانة فرنسية ؛ و بين الحين والحين يتحدث بإنجليزية تترنح من فمه إعياء وجَهْداً وتحطيا ، حتى يضطر كثيراً إلى أن يساندها إلى شىء من العربية والفرنسية المهشمة .

ولقد تواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى ، ورأيته يظهر حرصاً خاصاً على تحقيق هذه اللقيا وتوطيد معرفته بى فاتعدنا مكاناً وانصرف كلٌّ إلى داره .

٧ أبريل — بدأت اليوم تجربة سلاحى الرهيب الأول مع فتى كان يتظاهر بالفطنة وطول الحيلة ؛ وأشهد لقد تحسست قلبى حينما بدأتُ ، فوجدته يرتجف ، فهدهدته قليلا حتى نام ، وأقبلت أنْشب نَصْلى فى بدن الفتى المغرور . أما هو فقد كان فخوراً بالظفر — فخراً زادَ قدرَه فى نظره ما سمعه عنى من إباء وتعفف وشِماس فى هذه الناحية ؛ أجل ، لقد خُيِّل إليه أنه فتح دنيا جديدة استعصت على غيره من الناس ، فتحها بسهولة لو كان فطناً كما يدعى لأثارت فى نفسه الريبة من حقيقة نجاحه ؛ ولم أشأ أن أقلل من نشوته ، بل على العكس ، أظهرت من الشعور ما قوى فيه اعتقاده بعظم ذلك الظفر الأوفق .

تُرى ماذا يشجعنى على سلوك هذا المسلك الوَعْر ، مما دفعنى إلى التنفيذ الحاسم السريع ؟! لعله مصير تلك الفتاة الصديقة المسكينة .

بدأت والدتى تشعر بفداحة الجريمة التى ارتكبتُها وقد أغمضتْ هى جفنيها عليها . فقد زارتنى منذ أيام وقضت لدىّ أسبوعاً ، وأنبأتنى عما يتناقله الناس من أخبار أسرتنا وكلها تتصل بمسلكى هذا . وهى تخشى منه خصوصاً على مستقبل أختى الأصغر منى : فقد ذَرَفتْ على السادسة عشرة ، أى أنها صارت قابلة للزواج . وإنها لفتاة رائعة الجمال كثيرة الإغراء ، لم نبخل عليها بالعلم فحصلت منه شطراً كافياً فى مدارس أجنبية ، وسهرنا على رعايتها من أن تمتد إلى مسامعها أية شائعة تتصل بمسلكى ، فظلت حتى الآن تجهل كل شىء عنه ،

فإن سألتْ عما أفعل بعيداً عن أهلى ومدينتى أجابوها بأننى أحترف التعليم بإحدى مدارس البنات الأولية فى الثغر الآخر ثم فى القاهرة . ولقد زارتنى مراراً فى أماكن عملى هذه لكنها لم تلحظ شيئاً ، وإن كانت تسأل أحياناً أسئلة محرجة عن السر فى تأنقى فى هندامى مع أن « الأخوات » فى المدارس الأجنبية لا يمكن أن يفكرن فى غير التقشف ، فأجيبها بأنهن راهبات ، أما أنا فمعلمة عادية فى ريّق شبابها فلها أن تتأنق وترتدى أفخر الأزياء ؛ وإذا عادت فأكدت لى أنها رأت المعلمات فى المدارس المصرية خَفِرات متواضعات محروم عليهن التبرُّج ، أجبتها قائلة إنهن من طراز قديم ، أما أنا ومثيلاتى من فتيات اليوم فنحن عصريات نساير أحدث الأزياء ، ولا جُناح علينا فى هذا كله : فالعصر يقتضيه إلى أحد أن أولياء الأمر أنفسهم قد غضوا أبصارهم عنه . فكانت هذه الإجابات تقنعها وتردها إلى سذاجتها المطمئنة إلى أن حدث ذات مساء أن استيقظتْ فى الساعة الثانية عشرة من حُلْم مزعج وتفقَّدتنى فلم تجدنى ، وهُرِعت إلى بقية الغرف فلم تَحْلُ بطائل ؛ ثم ظلت ساهرة الطرف حتى عُدْتُ فى الساعة الواحدة ونصف فسألتنى عما حملنى على التأخر خارج المنزل إلى هذه الساعة التى لا يُتوقَّع أن تكون فيها امرأة ، ناهيك بفتاةٍ خارج منزلها ، فأجبتها بأنى كنت فى زفاف إحدى الصديقات . وهكذا كنت أنسج لها القصص الخيالية حول أسباب تأخرى وتبرُّجى حتى ضاقت بى حيلة الاختراع فضقت بها ذرعا وطلبت منها أن تعود إلى مدرستها .

كان هذا شأنى وإياها ، ولم أكن أشعر بثقل المسئولية نحوها ونحو مستقبلها ، إلى أن حدثتنى والدتى فى الأمر هذه الأيام ؛ بيد أننا لم نستطع أن نجد حلاً . وكيف نجد ، ومفارقتى لهذه المهنة معناه الحكم على الأسرة بالفناء جوعا ومتربة ؛ فكان الدخل من المهنة ينفق كله على أسرتى وعلى ملذاتى . ولقد كان دخلا متواضعاً ، لأننى كنتُ مُتعففة أظلف نفسى عن تدنيس عِرْضى إلا فى النادر ، وهذا من شأنه أن يباعد بين الرواد وبينى ، لأنهم جميعاً يهدفون إلى هذه الناحية عند كل بنت هوى .

ولما روَّينا فى الأمر طويلا اهتدينا إلى حل جرىء : هو أن أبذل كل ما فى وسعى حتى أظفر بأكبر قدر من المال مهما تكن الطريقة التى يرد عنها ، على أن أقتطع منه مقداراً وافراً أدّخره لأعيش أنا وأسرتى منه سنوات ينسى فيها الناس سيرتى فيتهيأ الجو لأختىَّ حتى يظفرا بزواج موفق ؛ ولى بعدُ أن أستأنف حياتى الأولى بعيدةً عنهما وعن الأسرة كلها .

ولقد كان قرار اليوم نتيجةً لهذه الخطة الجديدة .

٢١ إبريل — ازدادت صلتى بذلك الضابط الإنجليزى الغريب ، وهو برتبة ميجر واسمه مارتن ولت ، أوهذاهو على الأقل الاسم الذى أعطانيه عن نفسه . إن فيه رزانة تدعو إلى الريبة ، وفيه إصراراً غريباً على تعرف الناس وأحوالهم ؛ ويبدو من عينيه الزرقاوين أنه دائب التنقيب عن أشياء لا يكاد الناظر يتبينها وإن تلمس حركته إليها .

ويلوح أنه قد أحس برغبتى فى مال وفير ، فراح يعدنى بتحقيق هذه الأمنية على يديه ؛ فلما استنبأته عن دوافع هذه الوعود وكيف يمكن أن تنجز وفى مقابل ماذا ، طمأننى على أن الأمر لن يكلفنى شيئاً أبداً ، وسيترامى إلىّ الأصفر الرنان دون أن أسعى إليه بجهد ، إنما هى معلومات بسيطة يود أن يصل إليها عن طريقى وصداقات أعقدها مع بعض الناس سينقدنى عليها أجراً ضخماً .

سمعتُ منه هذا فتجاذبتنى فيه الظنون ، وخامرنى الشك فيما ينوى منى فعله . وكنتُ قد حُدثت مراراً عن وجود بعض الجواسيس المندسين خصوصاً فى أوساط اللهو ؛ لكن هذه الأخبار كانت من الغموض والاضطراب بحيث لم أرْعِ لها سمعى ، على الأقل لأنها لا تعنينى فى شىء .

٢ مايو — يبدو لى أن أسلحتى قد ازدادت سلاحاً جديداً سرياً هو ذلك الذى كشف عنه مارتن ولت . وأشهد أنه سلاح جبّار يُغدق علىّ الثراء الوفير والمال الكثير ؛ لكنه سلاح ذو حدين . فماذا تُرانى فاعلة به ؟ إنه يتقاضانى شيئاً غير قليل من المخاطرة ، ومن العمل ضد المواطنين . لكن حالتى المادية تلح علىّ إلحاحاً شديداً وتدفعنى إلى قبول أى عَرْض مهما انطوى عليه من غَرَر وإساءة إلى الإحساس الوطنى .

أنا الآن فى حيرة بالغة ، وفى لحظة حاسمة من لحظات تقرير المصير فى حياتى . فاهدنى اللهم — أو أنت أيها الشيطان الذى يسخرنى اليوم لرغباته — سواء السبيل .

٥ مايو — بعد تردد طويل وشك قاتل أسلمت أمرى لشيطانى المارد الجبار الذى لم يعد فى وسعى بعد أن أخالف عن أمره .

ريح السموم تهب علينا عنيفة متوعّدة تثير علينا ثائرة رمال الصحارى المحرقة ؛ وإن ما أتنسمه من أنباء الغد لكهذه الريح يحمل إلى نفسى خواطر مزعجة رهيبة . لقد قضت

هذه الريح على أزهار الثالوث فى حديقتى ، فهل قُضى أيضاً على ثالوث حياتى ؟ !

٩ مايو — خُضْتُ غِمار المعركة مدّججة بكل سلاحى ... ...

***

ها هنا وقفت « اليوميات » التى قدمتها إلىّ سِر ڤِناز — ولأذكرها إذاً باسمها ، الآن وقد عرفته من اليوميات ، وإن كانت حين عرفتها قد اتخذت اسماً آخر — وقد قطعت عند هذه النقطة الحاسمة التى بلغت فيها حياتُها العنيفة أوج شدتها ؛ ولا شك فى أن « اليوميات » قد استمرت بعد هذا لأن الصفحة الأخيرة قد قطعت عند الحد الذى توقفتُ هنا عنده ؛ فضلاً عن أن الفترة ما بين ٩ مايو ويونيو فى العام التالى حينما ظفرت منها « باليوميات » لا يمكن أن تكون قد ظلت بغير مذكرات ، خاصة وقد ظهر لى من حديثها أن هذه الفترة حافلة بأعنف المغامرات ذات المغزى الكبير الذى يتجاوز نطاقها الضيق ونطاق الهوى واللذات إلى أفق عام يتجاوز نطاق الوطن نفسه ويتصل بالحالة الدولية عامة ؛ فكان طبيعياً — وهى الحريصة على تدوين كل شىء يهمها — أن تسجل تجاربها وخواطرها عن تلك الفترة الخطيرة .

لهذا ذهبتُ — وقد فرغتُ من قراءتها — أضرب الفروض على الفروض عساى أن أصيب بالظن شاكلة اليقين . فرُحتُ أستعيد فى ذاكرتى حوادث تلك الفترة كما عرفتها مما تتناقله الألسن ويتداوله الرواة المتطوعون لنقل الأخبار — صحيحها وكاذبها — ؛ بيد أنّى لم أهتد إلى وجهٍ أستطيع الاطمئنان إليه . أجل ، لقد كانت الشائعات تتردد حول بعض أعمال الجاسوسية الإنجليزية وبعض من ذهبوا ضحيتها من المواطنين ؛ لكنها كانت أخباراً غامضة متضاربة يناقض بعضها بعضاً ، بحيث لم يكن أمام العاقل المتثبت إلا أن يوليها صفحة إعراضه ، ويمضى قُدُماً فيما هو بسبيل العمل له ، دون أن يهاب شيئاً ؛ وكانت الصحف بمعزل عن هذه الأخبار كلها ، لأن الرقابة الجبارة قد حرمتها من كل شىء غير ما يُمْلَى عليها من أناس لا تربطهم بالوطن أدنى صلة . وكانت الشائعات تحوّم حول فلانٍ وفلانٍ وهيَّان بن بَيَّان دون أن تستطيع الانقضاض على شخص معين بالذات مما كان يزيد فى بلبلة الخواطر وفى اتهام صدق هذه الشائعات ؛ وكان من بينهم من يذكر على أنه من أهل

الفن وبنات الهوى ، بيد أن التحديد كان يُعوز فى كلتا الحالتين . لهذا مَلَّ الناس هذه الأنباء وعَدّوها أنواعاً من وسائل التهديد أو طرائق الإغراء بالطريف الجديد . وكنتُ أنا أبعد الناس عن تصديقها والاكتراث لما يروى منها مهما يكن مصدره .

لهذا لم أستطع أن أقف عند وجهٍ من أوجه الفرض ؛ فلما أرهقتنى الحيرة وعذبنى الشك استلقيت على وسادة الاطمئنان ورُحْت أَغُط فى ثقة عميقة .

نحن جيل من الشباب ألقى بنا المجهولُ فى عالم غريب . أما الشباب الأوربى فقد ولدتهم أمهاتهم تحت قصف المدافع و بين أنقاض متناثرة تداولتها الأيدى مرة بعد مرة ، وقد أحسوا بأنفسهم هول الحرب مما عانوه من حرمان مادى وروحى : فالجوع يَعَضّ بناجذيه القاتلين على ما فى الكون من نِعم وخيرات تقدم كلها فداء للفناء على مذبح المرّيخ ؛ والعطف الأبوى قد غاض ماؤه ، إما لذهاب الآباء ضحايا بريئة لتنين آلة الدمار ، أو لبعدهم عن بيوتهم وأوكار حنانهم ، أو لما بَثَّته الحرب فى نفوسهم من قسوة وخشونة ؛ ومعاهد العرفان قد غَلَّقت أبوابها المحطمة دون هؤلاء الفتيان المساكين ، مما دفع بهم إلى اتجاهات شاذة تصرفهم عن السبل السليمة للحياة القويمة ، فأشاعوا اليأس فى نفوس من دونهم سناً من الأطفال والصبية ، وامتد هذا الوباء فاغتال نفوسهم البريئة الغضة فى فجر طفولتها ؛ والمراهقون ممن كانوا يتلمسون فى خارج المعاهد غذاء روحياً لعقولهم الظِّماء لم يجدوا إلا أكاذيب ودعايات زائفة مثيرة للكراهية والحقد يثها أناس بينهم و بين الكرامة والمعانى الإنسانية مراحل طويلة ، وكلها فى النهاية إنما تردّد نداء واحداً هو : الويل للأعداء ! و بين الحين والحين كانت تتردد هتافات إنسانية عِبْر الأطلنطى تارة ، ومن المفكرين الأحرار تارة أخرى ، لكنها لم تكن تثير غير حماسة ظاهرة عند شباب الأمم ، ولا تنفذ إلى كل الطبقات ؛ لهذا لم يمتلئ بها الناس إيماناً جازماً حتى يحرصوا على تحقيقها من بعد ؛ بل إن هؤلاء المفكرين الأحرار أنفسهم كانوا من الندرة والضعف بحيث لم يستجب لندائهم إنسان ، وفضلا عن هذا كله — وتلك هى الطامة الكبرى — لم يكونوا فى الواقع يصدرون عن أغراض نبيلة ، بل كانت تدفعهم غالباً دوافع آثمة : إما عصبية قومية ، أو شخصية . فهذا يصيح من « فوق النضال » صيحة خائرة ترمى إلى بث روح الانحلال بالتخدير فى معسكر الأعداء أكثر مما ترمى إلى الإنقاذ الإجماعى للكل ؛ وهذا يتباكى على الدمار كما ناح « أرمياء » ، لكن ليمجد قومه ويدعو إلى سيادتهم فى العالم حتى يحققوا ما وعدهم إياه ربهم لأنهم « الشعب المختار » ؛ وهؤلاء « ٩٣ مفكراً » يصدرون « بياناً » على الرأى العالمى يؤكدون

فيه دفاع وطنهم عن القيم الحضارية « الـكلتور » العليا ، وأن هذا الوطن هو وحده الـكفيل ببقاء الحضارة سليمة لن تؤثر فيها غارات المتبربرين . فلم يكن الإخلاص هو رائد هؤلاء المفـكرين « الأحرار » ، كما يدعون ؛ لهذا ضاعت صيحاتهم أدراج الرياح . وجاء « ما بعد الحرب » فكان من أشد الفترات هولا فى تاريخ الإنسانية : انحلال ودمار وتعطل وجوع وانهيار روحى كامل فى الدول المهزومة ؛ وجشع ودسائس وتعطّل واستغلال للضعفاء فى الدول الظافرة ؛ وغليان فـكرى واضطراب مادى وزلزلة سياسية فى الدول المتوسـطة بين هؤلاء وهؤلاء .

نشدوا الحرية فلم يجدوا إلا أبشع صور الطغيان فى جميع البلدان و إن اتخذ أسماء تنكرية متعددة : من شيوعية وفاشية وجمهورية وملـكية دستورية وديمقراطية برلمانية ؛

وطلبوا القوت فلم يظفروا إلا بالفتات يُلقى إليهم من موائد السادة الجشعين ، لا كرما منهم ، بل ليزيدوا فى استغلالهم وليستمروا على استعبادهم كالقوت من الزيت يوضع فى الآلات حتى تستمر دائرة الحركة ؛

وسـعوا إلى المجد فتلقفتهم الأزمات الاقتصادية من كل جانب ، وتخطّفهم التعطّل والرشوة والنذالة وامتهان الـكرامة الإنسانية حتى من أجل أتفه المراكز والأوضاع ؛

وثارت فيهم النخوة والحمية نحو الإنسانية ، ففتحوا عيونهم الذاهلة على أروع المآسى الإنسانية التى انعدمت فيها كل فروسية وشهامة ، وتلفتوا من حولهم فوجدوا الـكلّ صرعى ولم يتبينوا من الذى صرعهم : فالقوى الظافر قد صرع الضعيف أو المقهور ، وقد صرعه هو نفسه جشعُه وطغيانه ، فـكان كلاهما صريعاً يتخبط فى دمائه الفائرة ؛

وأملوا فى السلام المقيم فلم يبصروا عن يمين وشمال غير الثورات الدامية وأعمال التخريب الداخلى وضياع هيبة كل ما هو ثابت راسخ ، فتداعت دعائم الحياة الآمنة فى كل مكان ، وابتُكِرت بدع عجيبة للتنـكيل : من معسكرات اعتقال وحمامات دموية ومحاكمات بالجملة واعتقالات زائفة باسم الديمقراطية ورغبات الشعب ؛

ورأى فيها المتدينون عقاباً من الله ستتحقق بعده مملـكة الله على الأرض بعد هذه الـكفّارة الـكبرى ، فلم يعاينوا إلا شباباً متشكـكا فى كل شىء ، ورجالا يئسوا من كل أمل ، وشـيوخاً ازداد حرصهم على الدنيا ، ولم يجدوا ما يخفف عنهم خيبة أملهم إلا

فى الوجوه المتخددة الشاحبة لثكالى وأرامل تكفى رؤيتهم لطرد الإيمان من كل قلب ؛ وهكذا ... وهكذا تداعى كل أمل فى النفوس ؛ وانبتَّ حبل الرجاء عند الجميع .

أما نحن الشباب المصرى العربى فقد كنا أسوأ حالا . لم يشارك آباؤنا فى الحرب فلم نحظ بما حظى به الشباب الأوربى من سماع أناشيد المجد ورؤية أكاليل الغار تضفَر على رؤوس آبائنا و إخواننا المواطنين ؛ ولم يبهر عيوننا الساذجة الطفولية لمعان النجوم فى الأكتاف وهى تزداد كل يوم قداسة من فرط ما تطهرت به من دماء ؛ ولم ننفعل لأحد أو لمذهب انفعالا صادقاً صادراً عن أعماق تجاربنا الحية ، فلم يتجاوز إعجابنا حد ذلك الإعجاب الهين الرخيص الذى يصدر عن حب الاستطلاع أكثر مما يصدر عن إيمان وجد و إخلاص فى التعلق بالأشياء ؛ ولم نسمع لبلادنا رأياً فى شىء بينما كان الشباب فى كل مكان يفاخر بما لبلاده من نصيب وافر فى تشكيل العالم و إقامة البناء الجديد ؛ أستغفر الله ! بل كنا عبيداً مسخرين لحمل الأحجار والملاط نأتمر بأمر هؤلاء المهندسين العالميين ، وكنا أدوات بائسة تتلاعب بها أيدى الدول الكبرى ، وكنا فرائس سهلة طيّعة للمطامع الفاغرة الأفواه ، وكنا قِطَماً مهلهلة لا تصلح إلا لحشو الوسائد الدولية التى ستتربع عليها الدول الكبرى . أجل ؛ عرفنا الحرب ؛ لكننا عرفناها على أنها « حماية » تعلن علينا فنصبح بعدها عبيداً ؛ وعرفنا أهوالها على أنها « سلطة » تسخر آباءنا ظلماً و بلا أجر كيما يكونوا خدَّاماً وفَعَلة يمهدون الطرق و يطهرون القاذورات ليسير عليها السادة العظام ؛ وعرفنا مرارتها فى ذلك الحرمان المادى والروحى الذى ضُرِبَ علينا طوالها فكنا مسلوبين من قوت الروح وغذاء البدن ، لا نفكر ولا نعيش إلا لنزداد ذُلاً وهواناً تحت نير الغاصبين من كل ملة وأمة .

وكان عند الشباب الأوربى أمل فيما بعد الحرب ، أما نحن فقد كنا يتامى من كل رجاء ، لا نكاد نهتدى لوجه فيما يتصل بمستقبلنا الأسيف : أنبقى فى ظل تلك السلطنة الهرمة المهزولة الغاشمة التى سامتنا كل ألوان الذل والهوان طوال أربعة قرون كانت من أسوأ ما عرفه التاريخ ؟ أم نسلم إلى سيد جديد يذيقنا ألواناً جديدة من الاستعباد بدأ يعرض علينا بضاعتها المُزجاة فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وحاول أن ينفذ بها فى خلايا « الرجل المريض » حتى تملك منها أجزاء كبيرة وأحشاء باسم كذا وكذا من أسماء الظلم والنفاق والغدر والخيانة ؟

وكان لديهم تراث روحى خصب يستطيع أن يَعْمُر نفوسهم الخَرِبة وأرواحهم المنهارة ؛

أما نحن فلم يبق من تراثنا العتيق العريق إلا أشلاء صامتة بعدت الصلة بينها و بين نفوسنا منذ آلاف السنين ، فلم تعُد غير « آثار » رمزية لا تثير فى النفس غير ذكريات باهتة ونداءات خفية لا يكاد يسمعها أحد ؛ والتراث الروحى الآخر الذى اتخذناه لأنفسنا من أكثر من ألف عام قد تضاءل أثره وصار طائفة من الأساطير الفقيرة والعادات الزائفة والعقائد الشاحبة التى غادرها الدم فلم تَعُدْ تتردد فيها حياة ؛ ولقد انبتّ الحبل بينها و بين العصر منذ عهد بعيد فلم تساير التطور العام ، لهذا تبدت هزلية تثير السخرية والابتسام العريض حين غُمرنا فجأةً بذلك الفيض من النور الهائل الذى قذفنا به ذلك البطل الكورسيكى الجبار .

وكانوا يجسّدون آمالهم فى أشخاص سياسية توسموا فيها أوثاناً للعبادة الدنيوية ؛ أما نحن فلم يكن لدينا رموز كهذه ، وإن لمعت بعض الشُهُب فى سمائنا لحين قصير سرعان ما هوت بعده ، كما كان يملك علينا أمرنا — بالرغم منا — خونة وضعاء فُرِضوا علينا فرضاً واستُبعِد من توسم الناسُ فيهم مخايل الخير . ولا شىء أقتل للأمل وروح العمل من أن لا تتجسد الآمال والأفكار أشخاصاً حقيقيين واقعيين أحياء ؛ إذ تظل أوهاماً ضررها أكبر جداً من نفعها ، بل لا يقاس مطلقاً إلى ذلك النفع ، لأنها تؤدى إلى الحيرة والتذبذب وعدم الاستقرار عند إيمان واضح ، وهذا قاتل لروح العمل تماماً ، لأن العمل لا يمكن أن يصدر عن فكرة مجرّدة لم يتجسدها شىء عينى .

لهذا كله نشأنا — نحن الشبابَ المصرى العربى — فى حالة من العدم الروحى والمادى لا يبلغ مداها التعبير . لم نستطع الصبر على حالنا والاستسلام لمصيرنا البائس ، ونحن نتقرى أحوال الشباب الأوربى ، أستغفر الله ! بل الشباب الشرقى كله من هندى ويابانى وصينى ، فنجد أنفسنا أعداماً إلى جوارهم ؛ ولم نكترث لتلك الصيحات الآثمة تُردّدها الجيف البالية من أصحاب العقلية القديمة التى تحذرنا — من فوق منابرها المحطمة — من مصير الشباب الأوربى ، وقد ظنوا أن الأمر فى الحياة يمكن أن يتم من مجرد النظر فى أحوال الآخرين ونتائجها دون المرور بنفس التجارب التى حيوها . وحَسَناً فعلنا ، وإلا لبقينا فى ذلك الفقر الروحى والحرمان العقلى الذى لا يخلق إلا بالجماد ، فضلا عن الحيوان ؛ فمسنا بعقولنا مَحن الشباب الأوربى وعانيناها روحياً ، ثم زودناها بتجار بنا الواقعية الأليمة ، فتكونت فى نفوسنا قنابل هائلة من الثورة والقلق والبلبال الروحى والاضطراب النفسى ، حتى تولدت لدينا حساسية

مرهفة إلى أبعد حد . كنا نسمع دوىّ مِدْفَع الثورة فى مجاهل الإستبس الروسى يتردد فى آذاننا وسرعان ما ينفذ إلى عقولنا فنطيل التفكير فى أحوالنا الاجتماعية البائسة وما هنالك من بون شاسع بين أبرار بارك فيهم الرب وأشرار باؤا بغضب منه ، ففَرِق الآخرون فى بلايا الحرمان ، ونعم الأولون بأكثر الخير والسلطان . وكنا نتنسّم ريح المقاومة السلبية — العنيفة كل العنف أكثر من الإيجابية — وهى تتهادى إلينا من ضفاف الكنج والسند عبر المحيط والصحراء العربية المحرقة ، فتعلو أنفاسُنا ونصفق بأيدينا طويلاً لإخوان لنا قريبين لا يفترقون عن حالنا فى كثير . وكنا نتتبع مواكب التشكيلات العسكرية الحزبية وهى تشق طريقها الظافر وسط البُحْران السياسى الفظيع فتطرب آذاننا لخطوات الإوَزّ ، وتمتلى عيوننا بمناظر الشارات المتعددة الألوان والقمصان ، فنحس بنشوة السعى نحو المجد وإقامة القيم الارستقراطية فى عرشها من جديد ، ونمتلىء حماسة والتهاباً تحت تأثير الكلمات المشبوبة مثل : « عِشْ فى خطر » ، « الأنانية المقدّسة » ، « الدم والأرض » ، « الحق حق القوة » ، « الأسطورة السياسية » ، الخ .

وما من رأى جديد لاح فى سماء الفكر الأوربى فى مختلف مرافق الحياة إلا استهوى نفوسنا فاستجبنا له بالحماسة السخية الحارة المعهودة فينا معشر الشباب المصرى العربى ؛ وكنا خصوصاً أكثر إعجاباً بالأفكار الحادّة الخطرة الشاذة التى تَتَّسِم بالطرافة والمفارقة والغرابة ، تلك التى تؤذى وتجرح ؛ فكما أننا مولعون بالأفاويه الحِرِّيفة إلى أبعد حدٍ فى غذائنا المادى ، كذلك نحن مولعون بالأفكار المحرقة اللاذعة فى قوتنا الروحى :

فى السياسة تركنا أفكار الثورة الفرنسية للشيوخ من أبناء الوطن ، وكنا نبتسم ابتسامة عريضة ونحن ننظر إلى حماستهم لها ونسمعهم يحدّثون الناس عنها فنتهامس فيما بيننا قائلين : أهؤلاء أصحاب الكهف ناموا طَوال قرن ثم بُعثوا ليرددوا هذه النغمات البالية ؟ أوَما سمعوا بعدُ نغماتِ موسيقى العصر ؟ أوه ! دعونا منهم وذروهم فى جهالتهم العتيقة يعمهون . بينما تحمسنا للأوضاع الجديدة والأفكار الطريفة إلى أقصى حد : ففريق أعجبته المذاهب الاقتصادية المتطرفة فراح يتغنى بنشيد الدولية الثالثة ويولى شطره قِبل الشمال ناحية موسكو يود لو استطاع أن يحُج إلى الكعبة الجديدة فى قصر الكِرِمْلن ؛ وفريق ربأ بنفسه أن تجعل كلّ همها فى الماديات وتفسر التاريخ تفسيراً مادياً خالصاً ، وثار على هذه المادية الوضيعة

التى تحيل الإنسان إلى معدة فحسب ، وتعرفه بأنه حيوان ذو معدة ، فذهب يتلمس الأمجاد والقيم الأرستقراطية والعصبية القومية والحماسة المتوثبة والكراهية المُبْدِعة على ضفاف التفره والأودر بين مواكب القمصان الزاهية وتحت أصوات أناشيد « الجوفنتسا » و « هورست ڤِسل » ؛ وفريق ثالث أَنِف من طغيان هؤلاء وعنفهم وانعدام عواطف الرحمة والمحبة الإنسانية العامة لديهم ، فسكنَتْ نفسه إلى تعاليم « الڤيدا » واستكان للمقاومة السلبية ممثَّلةً فى فكرة « الأهِنْسا » ، ولَذَّ له أن يتطهر بمياه الكنج المقدسة من ضوضاء تلك التشكيلات الصاخبة العنيفة ، فمضوا يلقون على الناس تعاليم البراهمة ويرددون « موعظة الجبل » ويستعذبون الفناء فى حِضْن الطبيعة الكلية تحت رواق النِّرڤانا ؛

وفى الاجتماع ، تركنا فكرة تحرير المرأة ، كشىء فرغنا من أمره ، وإن لذ الشيوخ أن يجادلوا بعدُ فيه — وأى شىء لا يجادلون فيه ، قاتلهم الله ؟! — وانصرفنا نحن إلى الأفكار الشاذة الخطرة : فذهب فريق منا يطلب البركة فى معبد الكاهن الأكبر ، فرويد ، محاولا أن يردّ كل شىء إلى الجنس ، مندفعاً يحدوه هذا التفسير الغريب إلى آفاق موغلة فى الانحراف والبعد عن المألوف ، جاعلا غذاءه الروحى كتبه وحوارييه ؛ وفريق آخر وجد فى التعرّى فكرة تستهويه فأمضى لياليه البيض يقلِّب بعينيه اللهيفتين صفحات ديڤِد هربرت لورنس وألدوس هكسلى واتسقيج والتعبيريين الألمان ؛ وفريق ثالث عاد إلى العهود الأبوية ينظر إلى الجنس الآخر كأنه من الامَزُونات ناصحاً بتعدد الزواج دافعا بالمرأة إلى المشاركة فى جلائل الأعمال مع حرص على العناية بالنسل والإكثار منه إلى أبعد حد ، مستهاماً بكتابات اشپنجلر وروزنبرج . وانقسموا القسمة عينها فيما يتصل بالعلاقة بين الآباء والأبناء ، كلٌّ يستلهم هداته وأنبياءه ؛

وفى الاقتصاد ، ارتبطوا بالسياسة خصوصاً وقد وجدوها تقوم فى هذا العصر على الاقتصاد إلى أبعد حد ، بحيث لم يعد من الممكن التفريق بين المذهب الاقتصادى والمذهب السياسى ، وإن كان منهم فريق لا يجد حَرَجاً فى الجمع بين مبدأ سياسى معين ومبدأ اقتصادى لا يسايره ، فيكون فاشياً شيوعياً معا . بيد أنهم حاولوا التمييز فى الفروق الدقيقة بين المذاهب الاقتصادية : فهذا فريق تستهويه الجماعات النقابية ، وذاك يرى النزعة الجماعية وتكديس أدوات الإنتاج فى يد الدولة ؛ وهناك غيرهم يستعذبون أفكار سان سيمون ، أو يودون أن يعيشوا فى

« فَلَنْستيرات » فوربيه ، أو أن يحيوا فى جنة النعيم الأرضية التى وعدهم بها ماركس وحَوارِيُّوه ؛ أو يشايعون آراء سوريل و باريتو والسندكاليين عامة . ولكننا ، والحق يقال ، لم نحفل بهذه النزعات الاقتصادية إلا متأخراً ، لأن الناحية السياسية فى تلك المذاهب كانت تشوقنا وتبهر أنظارنا أكثر من الناحية الاقتصادية ؛ ولا عجب فالتفرقة بينهما تحتاج إلى خبرة وحسن اطلاع وقلة فى الحماسة السخية .

وفى الأدب ، لم نشأ أن نعرّج على النوع الكلاسيكى ، وإن دعانا إليه الشيوخ دون أن يفهموا جيداً ماذا يعنون به ، إذ فهموا منه النوع الكلاسيكى المُحْدَث الموجود فى العصر الحديث فى القرن السابع عشر فى كل من فرنسا وانجلترا والقرن الثامن عشر فى ألمانيا . لهذا انصرفنا عنه ؛ ولم نتنبه إلا متأخراً إلى الأدب الكلاسيكى الحقيقى ، ونعنى به الأدب اليونانى الخالد ، فلما عرفناه امتلأنا حماسة له ، ولو كانوا دلونا عليه منذ البداية لما حملونا على الارتماء فى أحضان الأدب الرومنتيكى الذى استهوانا إلى أبعد حد ، سواء منه الفرنسى والإنجليزى والألمانى . فإذا كنا قد أتينا متأخرين إلى مذابح أثِينا ذات العيون الزرقاء ، ولم نصعد إلى قمة الأولمب إلا بعد جهد جهيد ومرض طويل قضينا مدته فى مستشفيات الرومنتيك ، فليس الذنب ذنبنا ، بل ذنب أولئك الشيوخ ، فاغفرى لنا أيتها «الموسا» تلك الزلة الكبرى . بيد أننا ما لبثنا أن ثُرْنا على ذلك المخدِّر الرومنتيكى القتال ورحنا نتلمس الشفاء منه فى المذاهب الأدبية المتطرفة المعاصرة أو القريبة : ففريق التمس التخدير مرة أخرى — لأنه لم ينجُ بعدُ من تأثير المخدّر الرومنتيكى — فى ماخور الأدب الرمزى ، منتشياً بالبخور المتصاعد من نارجيلة دى كونسى وكُلْردرج ، هائماً على ضفاف الكوثر الشهوانى فى جنات بودلير الصناعية ، مستريحاً إلى النَّدم الآثم يرتل ألحانه ڤرلين ؛ وفريق جرى وراء الشاذ فى كل ما هو جنسى أو حسّى فتفقد العلاج عند حوارِيى فرويد من الكتاب ، خصوصاً التعبيريين الألمان والكتاب المتطرفين من الإنجليز والفرنسيين ، ثم غالوا فمضوا وراء تمويهات النزعة فوق الواقعية (السّرْياليزم) فى صورها المتعددة من دادائزم وكيوبزم وفوتورسمو ، واتخذوا لأنفسهم ملاهى خاصة على غرار « كباريه ڤولتير » ؛ وإذا كان العدد الأكبر منهم يتخذون هذه النزعة فى الفن ، فإن فريقاً من أهل الأدب لم يلبث أن تأثر بها فى الأدب نفسه ؛ وفريق ثالث أعجب بالوثبة الكبرى التى قام بها الأدب الألمانى

فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الماضى فطوّفوا بالغابة بالسوداء و بكوا لانتحار ڤرتر وامتلأوا حماسة وهم يقرأون مسرحيات شلر ، وازدادوا سمواً وتطلاباً للأفق الأعلى محلقين مع « فاوست » و « ڤلهلم مَيْستَر » ؛

وفى الفن ، بدأنا بمحاولات متواضعة فى أول الأمر ما لبثت بعدُ أن اندفعت بعنف ، ولم يكن لنا من التقاليد ما يسمح لنا بالتوقف عند ناحية معينة أو الارتباط بعمود محدود ، فبقينا حيارى تتجاذبنا التيارات المتباعدة : فمنا من أذهله الفن الكلاسيكى اليونانى ، ثم الفن الإيطالى فى عصر النهضة فنزع نزعة هادئة ولكنها موفَّقة ، وكان هذا فريق المعتدلين ؛ ومنا من هام بالنزعات المتطرفة العصرية واطَّرح فدياس ورفائيل وديرر ورمبرنت وميكلنجو واتخذ بدلا منهم بيكاسو وأندريه بريتون ودى تشيركو وماكس أرنست ، بل جاوزوا هذا الحد فكونوا شعبتين إحداهما تتأثر سلڤادور دالى ، والأخرى تتأثر خوان ميرو ، وامتازوا خصوصا بتطلب الشاذ والمشوّه وتفسير الأعلى بالأدنى فى كل شىء ، متأثرين خصوصاً بفرويد والنزعة الآلية والنزعة الفطرية فى هذا العصر ، وكان هذا فريق المتطرفين ؛ وبين هؤلاء وهؤلاء فريق جمع بين العود إلى الطبيعة مع تأثره بالفن القديم خصوصاً المصرى والأشورى ، وبين النزعة الكلاسيكية الحديثة مقتطفا من هنا وهناك ، محاولا تكوين مركب طريف ؛

وفى الدين ، حِرْنا الحيرة الكبرى : ففريق أمعن فى التجديف والإلحاد حتى لم يكد يبقى على شىء متأثراً خصوصاً بڤولتير وعصر التنوير ثم برينان واشتروس ، وخاضعاً لعوامل أجنبية أخرى من ماركسية ووثنية فكرية حضارية ؛ وفريق تمسك بالدين وغالى إلى أبعد حد ، محاولا العود إلى الدين فى صفائه الأول ، متأثراً خصوصا بنزعات التجديد التى شغلت العالم العربى فى أواخر القرن الماضى ، أو عائداً مباشرة إلى الكتاب والسنة مستمداً منهما كل شىء بلا واسطة من تفسيرات أو مذهب ؛ وفريق توسط بين الطرفين المتباعدين يأخذ بطرف من الحرية الفكرية فى الدين مع إيمان بالأصول العامة فى العقائد الدينية ، بيد أنه ليس واضح الاتجاه ، ولهذا فهو فريق لا لون له (ولا طعم أيضا !) .وكانت المعركة عنيفة بين المعسكرين الأولين ، وإن لم يكن مقدار كليهما من الحرية متكافئا . بيد أننا لم نستطع أن نثبت شخصيتنا بوضوح فى تلك المعركة : فلا الفريق الأول استطاع أن يكوّن مذهبا

جديداً فيه عِوَض عن المذهب القديم أو يشيع إيماناً يحل محل الإيمان الموروث ، ولا الفريق الثانى استطاع أن يوفق بين مطالب الدين ومطالب العصر ، ولم يولّد روحاً جديدة تستطيع أن تسكّن ثائرة الشكوك التى تعصف بعقل كل شاب مفكر حر فى مطلع شبابه ؛ ولعل السر فى إخفاق كليهما أن الأول يعوزه التطور الروحى الكافى كما تعوزه الشجاعة والصراحة ، وأن الثانى تنقصه الثقافة وسعة الأفق وامتياز التفكير كما ينقصه الإخلاص والصدق بحيث يقدم النموذج الحى على إيمانه ومعتقداته .

تلك هى الخصائص العامة للجيل الذى تمثله نحن الشباب الذى ولد بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩٢٠ .

وكنتُ أنا الولدَ المتلاف من بين أبناء هذا الجيل : كنت أبغض التوسُّط فى كل شىء ، ولا أقف إلا عند الأطراف البعيدة ؛ وكنت حريصاً على أن أنال القسط الأوفر من التجارب الحية الحادة فى كل ناحية أطرقُها من نواحى الحياة : المادية والروحية ؛ وما عرفتُ يوماً السكون إلى عاطفة أو الاستقرار عند مذهب أو التعلق برأى واحد : إنما كانت تتجاذبنى الأطراف المتناقضة كأننى وَتِد مشدود إلى حبال قوية لا نهاية لها ، وفى وسط هذا التوتر العنيف كنت أحيا وأنمو وأنعم بالوجود . لذا كانت حالة القلق هى الحال العاطفية السائدة عندى فى مجرى حياتى الباطنة كلها ، وكانت القشعريرة هى الاستجابة الوحيدة التى أردُّ بها فعلَ الأشياء والأحياء فى نفسى . وكان أثر هذا يبدو فى الخارج على وجهى الشاحب الدائم الأحزان ، وفى قوامى المرن المرهف كقوام المهْر الزوْل الأصيل ، وفى ثيابى التى اتخذت لوناً واحداً هو الكحلى أو الأزرق لم تحد عنه يوماً ما .

عرفتُ الإيمان الملتهب حتى صرت جمرة تحترق بنار الحب الصوفى الإلهى ؛ وعانيت الإلحاد العَرِم فلم تُفلِت من سيفه البتار عقيدة ولا دين ؛ حتى نعتنى الناس حيناً بالولاية والقداسة ، وحيناً آخر بالكفر الأكبر ؛ وكنت فى كليهما مخلصاً مندفعاً عنيفاً ، كعادتى دائماً فى كل شىء .

وآمنت بالارستقراطية المطلقة وبِشِرْعة من القيم الإنسانية العليا لا تبقى إلا على عالم من الجبابرة المتوحدين والمَرَدة الخالقين الذين لا يعرفون إلا كيف يخلقون ويسيطرون ؛ وهفت نفسى إلى المساواة المطلقة والوحدة الكلية للذرات الإنسانية المتشابهة فى كل شىء

وناديت بالقسوة على الوضعاء المتوسطين من الناس وحاربت الرحمة فى نفسى ، بيد أنى كنت من رقة الإحساس وإرهاف الشعور بحيث كنت أبكى بدموع غزار على أقل زهرة تذبل أمامى ، ولا أجرؤ على رؤية الدم يسيل من أدنأ حشرة تؤذى الإنسان .

وحلمتُ بالعهد القديم وكأننى أحد أبطال مجدّو أو طروادة أو القادسية ، فكنت أتغنى بالفروسية الشاردة والحياة المليئة بأروع الفعال ، وبالأبطال الأماثل يذرعون الدنيا سعياً وراء فكرة نبيلة ؛ كما كنتُ عصرياً أنشِب أظفارى كلها فى لحم الحاضر وأحتسى من دمه الحار المتدفق .

هذا المزيج الغريب كان صليباً عاتياً حملته على كاهلى الهزيل فكنت أمشى مِشية التألان فى هذه الحياة المتناقضة المضطربة التى وجدتُ فيها نفسى . ولعلى لم أكن نسيج وحدى فى هذا النحو من الوجود ، بل لعله كان يشاركنى فيه شباب آخرون على تفاوت فيما بيننا فى درجة التأثر والتأثير .

ولقد بقيتُ سنواتٍ طوالاً أجيل هذا كله فى داخل نفسى ، وأحيا مأساتى على مسرحى الباطن ، حتى قامت هذه الحرب الضروس ، فقلت فى نفسى : هذه فرصة سانحة للتعبير فى الخارج عما تشعر به فى الباطن . لكنى كنت فى هذا جِدّواهم ، فلم يكن من حظنا نحن الشباب المصرى العربى أن نشارك فى هذه الملحمة الكبرى : فالنزاع الدائر بين الفريقين لا يمسنا عن قريب ولا عن بعيد ، لأنه نزاع بين قوتين هائلتين تحاول كل منهما أن تنازع الأخرى السيادة العالمية ، وعلى من ؟ علينا نحن معشر الضعفاء المستضعفين فى الأرض ، وكأننا — معشر الدول الضعيفة — عبدٌ يتنافس فى الاستيلاء عليه سيدان ، أو بالأحرى قطعة من الجماد يصطرع من أجل اقتنائها لصّان . ولو كان النزاع دائراً حول فكرة إنسانية عامة ، إذاً لشاركنا — نحن الشباب المتوثب المتطلع إلى المجد — وساهمنا بنصيبنا فى الانتصار لما نؤمن به . فأين نحن إذاً مما رنونا بأبصارنا إليه !

انتابنا الهم القاتل لأننا بقينا قوى زاخرة متعطلة تدور وتغلى فى داخل نفسها ، وحسدنا الشباب الأوربى على وضعه الذى يسمح له بالتعبير عما تكنه نفسه ، وإن كنا أيضاً قد رثينا له لأنه انساق وراء مطامع زائفة لا تضيف إلى الإنسانية قيمة نبيلة ولا تسمو بها درجة فى معراج التطور الحىّ ، وندفع بالمسكين وراء الدجّالين المحترفين ممن يسمونهم الساسة ، فعبثوا

بهم عبثاً منكراً بواسطة ألفاظ جوفاء أحياناً ، وبالقوة الغاشمة والحُمّى المخدِّرة أحياناً أخرى . وسواء أكان مسوقا بوهم أم مدفوعا بإيمان صادق ، فقد وجد على كل حال ما يشبع رغبة البذل والفيض بنشاطه ، بينا بقينا نحن حيارى متعطلين .

بيد أننا لم نستطع أن نستمر على هذه الحال من الفراغ من الأفعال والتقلب فى أحضان البلبال ؛ بل فكرنا منذ اللحظة الأولى فى أن نقوم بمغامرة كبرى نستطيع بواسطتها أن نبذل من فيض قوانا المُرْهِقة أولا ، وثانيا نستطيع أن نحقق شيئا من أحلامنا فى حضارة جديدة كانت تحوِّم أطيافها فى خيالاتنا ، خصوصا وقد آمنا بما تنبأ به المتنبؤن فى الغرب عن مصير الحضارة الأوربية ، ووجدنا أن المسؤولية عن إيجاد الحضارة الجديدة إنما تقع علينا . ونحن لم نَرْضَ أن نكون هذه المرة أيضا وسطاء ورُسُلا بين الحضارة المحتَضَرة والحضارة الجديدة كما فعلنا من قبل فى دور الحضارة العربية ، بل امتلأنا حماسة ويقينا بأن دورنا هذه المرة أن نكون خالقين ، لا متمثِّلين ولا ناقلين ولا حارسين على النور ألا ينطفىء .

وكان لى ثلاثة أصدقاء : أحدهم عالم ، والثانى فنان ، والثالث ضابط طيار ؛ وكنا ممتلئين بنفس الأفكار وتساورنا عين الأحلام ؛ وكنا نجتمع معا فى مساء كل يوم نشتور فى أمر المهمة الكبرى التى شعرنا بأن القدَر قد قيضنا لتحقيقها من أجل بلادنا ومن أجل الإنسانية ، ونضع التصميات العامّة ونرسم المُجْمَلات لعالم الغد الذى سنقيمه بأيدينا ، فيدلى كلٌّ بآرائه فى فنه ثم ننسق الاتجاهات حتى تستوى على قاعدة واحدة ، محاولين أن نخلق طابع الروح الجديدة للحضارة التى حلَمنا بإيجادها . لكننا ، والحق يقال ، لم نهتد بعدُ إلى حل عملى نستطيع أن نستقرّ عنده ، لأن أمورنا العامة كانت من الاضطراب والغموض بحيث لا يستطيع المرء أن يرسم الطريق اللاحب للعمل السليم على نحوٍ ميسور ؛ كما كنا على حال من القلق النفسى والتردد الروحى لا تسمح بالتهيؤ للعمل قبل التفكير ، والحركة قبل الفكرة ، إذ نخر البلبال فى نفوسنا بوصفنا رجال فكر وثقافة ومن أبناء « الانتلجنسيا » المعروفة بضعفها وجبانتها أمام العمل والفعل ، وإن كنا فى هذا الباب أحسن حالا بكثير جداً من أولئك الدجالين المهذارين من أصحاب القانون ومحترفى السياسة الرخيصة .

وفى مساء من تلك الأماسى البديعة فى شهر أبريل اجتمعنا حول مائدتنا المعتادة فى مقهانا المعهود ؛ وكانت الشمس قد انحدرت للمغيب وراء أجبال المقطم فاكتست سفوحها لوناً

بنفسجيا لازَوَرْديا يبعث على الهم والتفكير ، وكنا على العُدْوة الأخرى من النيل نمتد بأبصارنا إلى مجرى النهر ، والزوارق الصغيرة تمخر عبابه الهادىء وتترنح على أمواجه الساكنة ثم نعرّج بها إلى الجزيرة ، تلك الروضة الفاتنة المزهوّة بجمالها فى حِضن النيل كأنها عروس خجول يعانقها عِرْسها لأول مرة فى ليلة الزفاف . وكانت العطور الخفيفة فى سماء الجزيرة يعبَق بها جوُّها ثم تنتشر منه على الشّطئين باعثة على الحُلم الرقيق ؛ والأغانى الصعيدية تتردد بها حلوق الملاحين فى المراكب الكبيرة الشراعية ، وفيها ذلك الحزن الساجى الذى يطبع كلَّ ما هو مِصرى : فهى إما شَكاة من حبيب حال العذول دون وصاله ، ولكن إيمان المحب لا يزال قوياً ، قوياً إلى حد أنه يستطيع أن يصارع العناصر الأولية ويخضعها لطاعته بحيث يكفيه — إن لم يتيسر له أن يعبر إلى الحبيب على زورق — أن يفرش مِنديله على الماء ويعبر إليه فوق هـذا المنديل ! فانظر أية قوة لهذا الإيمان الذى يشبه ذلك الإيمان الذى طالب به المسيحُ حوارييه ! وإما مرثية أليمة لفقد تلك الحبيبة التى أخذتها الأمواج كأنها أُنْدينة أخرى ، الحبيبة « ليصه » التى صارت شفيعة هؤلاء الملاحين ، وموضع سرِّهم ونجواهم ، بحيث لا يلذ لهم شىء قدر أن يهيبوا بليصه هذه ويدعوها لتعينهم فى الشدة حينما يضطرون إلى مقاومة التيار ، أو ترفه عنهم حينما يهزَجون أثناء أعمالهم داخل المركب . والحق أنى كنت معجبا دائما بليصه هذه وما شاع حولها من أساطير مائية ، وكنت شغوفا منذ الصغر بتتبع أنبائها وما جرى لها فى أحضان الأمواج وتحت أعماق أبينا النيل ؛ فمن يدرى ، لعل ليصه النيل أن تكون قصتها أعذب وأكثر تشويقا من قصة أندينة الدانوب ! ولطالما فكرتُ فى أن أروى للناس قصتها كما روى فوكيه أسطورة أندين .

وكانت أنباء القتال فى الصحراء الغربية تترامى إلينا بما فيها من تشويق وتناقض وقتال سِجال ، وما كان فى عملياتها من مهارة فنية وبراعة فى الكر والفرّ ، وقدرة على المناورات الماكرة وعمل المكامن الحاذقة . وكان يعجبنا فيها خصوصا ما تنطوى عليه من روح مغامرة وعود إلى روح الفروسية القديمة ، تلك الروح التى كنا مُشْبعين بها إلى أبعد حد ، لأن الجانب الإنسانى الروحى فيها أوفر حظا من الجانب الجمادى الآلى ؛ لهذا كنا — نحن الذين استهوتنا الروح الرومنتيكية بعصرها الوسيط ونبالتها السخية وفروسيتها الكريمة — متلهفين لأنباء هذه المعارك شبه الروحية فى وسط ذلك البُحْران الآلى الذى يمثّل الحرب

الحديثة بآلاتها الثقيلة وأجهزتها المادية القاتلة لكل قيمة إنسانية . وفضلا عن هذا كله ، فقد كانت الصحراء مكانا لا متناهيا غامضا نستطيع أن نسبح فيه بخيالنا ونتصور مانشاء، كما كانت الحال قديما فيما يتصل بالغابات فى العصر الوسيط فى أوربا . وإن للمجهول لإغراء لايقاوَم . وأى شىء أشد جهالة من تلك الصحراء الكبرى التى لا تكاد تنتهى فى خيالنا عند حد ! وكنا نبتئس لقيام المعارك فى المدن وحولها ، لأنها فى هذه الأمكنة خالية من كل معنى إنسانى ومن كل مهارة فنية ، فليست غريزة الحرب السامية هى التى تسيطر فى تلك الأماكن ، إنما غريزة التدمير والتخريب الوضيعة المنحطة . وأى فخر فى أن تصارع أبنيةً ونساء وشيوخا وأطفالا آمنين ! إنما الفخر كلّ الفخر والمجد كل المجد فى أن تناضل الأقران من الأحياء . إذن يكون النضال نبيلا وتكون الحرب قيمة إنسانية عالية .

وكنا نتميز غيظا من ذلك الموقف الأليم المهين لكرامتنا المهدر لشرفنا الذى نشاهده فى الصحراء الغربية وهى جزء من بلادنا العزيزة ؛ وكلما تواترت الأخبار عما فى تلك المِنْطقة من معارك شائقة ازددنا أسفا على حالنا هذه البائسة ؛ فلما تجمع كل هذا الغيظ والحنق انقلبنا إلى قنابل مفرقعة من الثورة على ما نحن فيه من تراخ وضعف وجبانة . وفى ذلك اليوم كان السخط على حال أنفسنا قد بلغ أوْجَه ، فدار بيننا الحديث على هذا النحو ؛ قال الفنان :

— ما ذا ! أنظل هكذا عاجزين سلبيين أبداً ؟ أية قيمة للحياة إذاً إن كان هذا نصيبنا منها ؟ ألا فلنقض عمراً حافلا بالمجد . أو لندع هذه الحياة لغيرنا ممن يستطيعون الرضا الذليل عنها، أولمن هم جديرون حقا بأن يحيوها بما بذلوه من دماء وما أنفقوه من تجارب وما حصلوه من أفعال .

— لك الحق ! بهذا أجاب المفكر ؛ فإننا لم نتزود بهذه الأفكار القوية العرمة التى تلقيناها من نيتشه واشپنجلر ، ووقفنا عليها فى أعمال كبار الرجال الذين خلقوا التاريخ ؛ ولم نردد هذه الآراء للناس وندعُهُم إليها عابثين ولا مهرّجين مستجدين للتصفيق أو مستثيرين للعواطف حتى نظفر بالشهرة الرخيصة ، إنما هى مبادئ آمنا بها وحَيِيناها وأعْددنا نفوسنا لتنفيذها ، لأنها امتزجت بدمائنا وصارت جوهر وجودنا ، ولن نستطيع الحياة بدونها . كل موجود يسعى لتحقيق إمكانياته ، فإن لم نحقق أكبر قدر من إمكانياتنا فسنُمضى العمر خاوين فارغين من كل نبيل ثم يأتى الموت فيسجّل ذلك الخواء التسجيل الأخير . أما سئمنا إذاً من تكرار الأقوال ، بينما نحن نؤمن بأن الفكرة بنت الحركة وأن الفعل هو الدليل الوحيد

على الحياة الحقيقية ، وكنا نسخر من أولئك النبلاء الحالمين أو الحالمين النبلاء ونعدّهم فضولاً على الحياة والوجود ؟ فأين نحن الآن مما سعينا إليه ونشدناه ! أوَ لم نصبح شبيهين بأولئك النبلاء الحالمين والفضوليين الواهمين ؟

— لكن هذا كله لايزال كلاماً أجوف ، هكذا قال العالم ؛ فدعونى من تلك العبارات الخطابية ومن هذه الأرميائيات التى تندب فيها حظنا وحظ بلادنا ومصير الإنسانية ، شأننا شأن هؤلاء البواكى المأجورات المحترفات . لننتقل تواً إلى العمل الإيجابى السريع الحاسم ، فأية خطوة عملية ، مهما كانت ، أجدى ألف مرة من ألف بيان وخطبة ومحاضرة ورسالة وموعظة . افعلوا دائماً أيها الإخوان ، حتى لو كان الفعل خاطئا ، لأن الفعل الخاطئ خير ألف مرة من عدم الفعل ؛ فبالله عليكم إلا تركتم فكرة البكارة من الفعل والطهارة من العمل ، فذلك هو الإثم الأكبر والفجور الأعظم . ولن أسمح لنفسى بعد اليوم بالدخول فى أية مناقشة وإياكم ، فقد ضقت ذرْعا بالروح الكلامية : فإما أن نبدأ العمل تواً ، وإما أن نلقى سلاح الكلام وسلاح الحياة ، ونستقيل نهائيا من حياتنا وقلبنا وعقلنا وروحنا بأكملها لكى يقبع كل منا فى كهف موته البطىء أو ليغادر الحياة فى التوّ إن كان شجاعا إلى هذا الحد .

— فقال المفكر : وماذا قلتُ غير هذا ؟ إننى وإن كنت أحبُّ النظريات وأولع بأن أضفى على كل شىء طابعاً فلسفياً ، وأستخرج من كل عمل جوهره الفكرى ، فإننى أحرص الناس على التنفيذ والفعل .

— فأجابه العالم : إذاً لماذا تركتنا حتى الآن نجرى وراء نظرياتك ومبادئك دون أن تحاول أن تخرجنا عنها ؟ أجل ، لقد كنتَ بارعاً فى فهم المواقف السياسية العامة واستخراج النتائج المنتظرة منها ، والإشارة إلى السبل التى ستسلكها الأحداث ، حتى لقد صدقت نبوءاتك أكثر من مرة — وإن كنت مغالياً فى جانب دون جانب — ؛ لكن هذا كله كان لا يعدو حدود الفهم والتفسير كأنك مؤرخ مفكر ؛ أما أن تدعونا إلى العمل وفقاً للآفاق التى تستشرف إليها بفكرك ونظرك ، فهذا ما لم يحدث حتى الآن ؛ ولذا يحسن بك أن تتنحى عن دور التنفيذ فتتخذ مكانك فى الصف الثانى .

— ومن تريد إذاً أن تضعه فى الصف الأول أيها العالم المفضال ؟! لعلك تريد أنتَ

أن تتقدم الصفوف بعُوَيناتك السميكة متسلحاً بمخباراتك ومعوجّاتك وأحماضك وقلوياتك وما لديك من فِلِزّات تموننا بها طوال الطريق ! هكذا قال المفكّر ، وابتسم ابتسامة عريضة ماكرة .

— قلتُ إنى سأنسحب من كل عبثكم هذا إن أحلتم المسألة إلى سخرية وتنابز بالألقاب . فلستُ أنا الذى أحرص على رئاسة أو تصدُّر ، وأنت وأمثالك من الفضوليين أصحاب الكلام الأجوف أعرف الناس بهذا . أليس كذلك ؟ هيه !

وهنا تدخل الفنان خوفاً من أن يتجاوز الأمر هذا الحد فيفسدُ كلَّ شىء : مهلاً أيها الرفيقان ! أنحن طلاب مجد إنسانى بتضحية نبيلة ، أم سياسيون دجالون يطلبون السلطان بالدجْل والعبث والبهتان ؟ لقد حَمِدنا الله على أنه لم يكن بيننا مَن هو مِن أهل السياسة أو أهل القانون ، فهل نزَع أحدَكم عِرْق إلى هولاء فتأثرتم بهم ؟ شيئاً من الدعة والحكمة إذاً ! وإنى لأقترح أن يكون دليلنا فى الناحية العملية هو صديقنا الذى سكت الآن ، أليس هذا هو الأوفق يا حضرة الضابط الطيار ؟

— أوه ! بهذا أجاب الضابط الطيار ؛ لا تحملونى فوق طاقتى ، إن كان هذا الاقتراح جاداً ؛ فلقد عُوِّدت الطاعة أكثر مما تعودتُ الأمر ؛ ومن يكن هذا شأنه لا يصلح أن يكون فى مركز التوجيه ، حتى فى ميدان العمل . فما عليكم إلا أن تأمروا وأنا كفيل بالطاعة والتنفيذ . وإن سمحتم لى — هكذا قال وحُمْرة الخجل تعلو وجهَه — أن أوزِّع الاختصاص كما يقال فى لغة الموظفين ، فأنا أنصح بأن يوكل أمر وضع التصميم العام وتحديد الغاية للمفكر ويوكل تحديد مجمل التنفيذ للعالم ، ويعاون كلاً منهما أخونا الفنان ، أما أنا فسأقتصر على تنفيذ الخطة التى تنتهون إليها أنتم الثلاثة .

— فقال العالم : أيقنعك هذا التوزيع ويرضيك ، أى مفكرنا العزيز ؟ أظن أن فيه ما يتملق نزعتكم دائماً معشر المفكرين ، نزعتكم إلى أن تكونوا الموجهين العالميين وهداة الإنسانية كلها ، وتلذّ لكم هذه التجريدات العامة فلا يحلو لعقولكم أن تتجول إلا فى مجالها وأن تنسج إلا من خيوطها .

— فأجاب المفكر : ثق بأنى لن أرد عليك لأن الأمر جدّ ، وستعلم بعدُ علمَ اليقين ما لنا من أثر فى التوجيه العام حينما يلقى إلينا أمر وضع الأهداف العليا والتصميات العامة .

وعلى الرغم مما لى من اعتراضات على كيفية هذا التوزيع ، فإننى موافق عليه إجمالاً ، لأننى موقن بأن سياق الفعل كفيل بأن يرد الأمور إلى نصابها حينما تلتوى عليها السبيل .

— فقال الفنان : فماذا ترى إذا أيها المستشار الأعظم ؟ سندعك تفكّر برأسك الأصلع هذا حتى تقدح زناد قرعتك عن فكرة محكمة . آه ! بودّى أن أرسم رأسك فى صورة هزلية وأنت مفكر على هذا النحو ! كم سيكون رسماً شائقاً إذاً !

وترافأنا على أن أقوم أنا بالتفكير فى الغاية التى سنهدف إليها وسنجتمع فى لقائنا التالى بعد ثلاثة أيام لإدارة الرأى فيما بيننا حول هـذه الغاية ، فنتمالأ عليها ، ثم ننتهى إلى رأى نهائى قاطع نكله إلى العالم ليرسم لنا خِطّة تنفيذها بمساعدة الفنان ونعود لمناقشتها ، حتى إذا فرغنا من تمحيص الوسائل بعد الاتفاق على الغايات عهِدْنا إلى الضابط الطيار فى التنفيذ العملى.

و بعد أن رسمنا الأمر كله على هذا النحو وتبادلنا القسَم والأَيمان على الكتمان والتنفيذ، والمبايعة على الحياة والموت مجدِّدين عهودنا السابقة المتكررة ، أخذنا فى مختلف الأحاديث الودية الشخصية ، وتطرّق كلٌّ منا إلى حال عواطفه ؛ وشكونا جميعاً من حالة القفر التى نعانيها فى مصر بعد عودتنا من أوربا . لقد كنا جميعاً ننعم هناك بالجمال فى كل شىء : ننعم به فى الطبيعة العظيمة وهى تتبدّى لنا بكل روعتها فى الغابات العميقة ذات الأسرار الرهيبة ، وفى الأجبال العالية ذات القمم المغطاة بالثلوج وهى تشرف على الأرض بتيجانها الناصعة البياض كأنها تيجان كبار السلاطين والشاهنشاه ، وفى الروابى الوادعة تظللها الكروم العتيقة وتتجاذبها أشعة الشمس فى الريف الضحيان ، وفى أشجارها الباسقة من شوح و بلوط وزان وسَرْو ذى أفنان ، وكلها تشعر المرء بأن الطبيعة كائن حى وعالم أكبر ينبض بالقوة العَرِمة الزاخرة فتدعو إلى النشاط الجم والعمل الغزير والتوثب المستمر للتوقُّل فى سلم المجد ؛ كما كنا ننعم بهذا الجمال على وجوه الفتيات الحسان الشقراوات الشعور ، الزرقاوات العيون ، الفاتنات القدود والخدود ، وفى أجسامهن الرقيقة الفارعة بما لها من مرونة ملساء فرّارة كرارة .

أما هاهنا فى مصر فقد استسلمنا لطبيعة رخوة مريضة أشاعت فى نفوسنا الطراوة والرخاوة ففَرِقنا فى أحلام سخية رخيصة أشبه ما تكون بتهاويل المخدِّرات ، كما حرمنا من كل متعة بالجمال الإنسانى : فكل ما يتصل بهذا الجمال مشوب بالنفاق والتصنع والنفعية البغيضة

والمداورات الرخيصة . فالفتاة خاوية من كل إحساس نبيل وعاطفة سامية ، لهذا لا تفهم من الحب إلا أنه مكيدة للزواج ؛ وهي خالية من كل إيثار ونبل في الشعور وإحساس بالمعاني الإنسانية الواسعة ، فلا تفهم من الزواج إلا أنه مكيدة للظفر بالمال أو الجاه وبكل ما يرضي التظاهر الزائف لديها . والرجال حريصون على النقد بأي ثمن ، على ما يجره هذا من تناقض شنيع في أعمالهم وأقوالهم : فهم لا يعدمون أن ينقدوك في كل تصرف تأتيه ، باسم كذا وكذا من التقاليد أو الروح العصرية أو ... إلى آخر كل تلك المبادئ المتناقضة التي لا يفكرون مطلقاً في معناها الحقيقي ولا فيما تنطبق عليه مما يتصل بأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم . فإن لم تكن إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فأنت الشقيُّ المتوحِّد الأكبر : الكل يرجمك بنظراته المقوتة الحاسدة ، ويَسْلُقُك بألسنته الحداد الكاذبة المنافقة ، وإذا أنت بعد قليل قد صرت منبوذاً تقتحمك العيونُ حين تمرُّ بك ، ما دمت تصرّ هكذا على أن ترتفع فوق نظراتهم الضيقة ولا تخضِع نفسك لمعاييرهم الوضيعة . أوه ! إنهم جميعاً — رجالاً ونساء ، شباباً وفتياتٍ — يحيون في جحيم لا يوصف .

ومثل هذه الحال الهائلة خليق بأن يدفع النفوس الحالمة إلى القنوط ، والنفوس الثائرة إلى الثورة الجامحة . لكن كان يمكن أن يكون في القنوط عَزاء ، لو تركوك وشأنك تعيش في هذا القنوط ؛ بيد أنهم لا يدعونك حتى في هذه الحال ، بل يهجُمون عليك في قلعتك اليائسة القانطة ليوهموك ويعذّبوك بأسئلتهم الآثمة وفضولهم الزائف الرهيب القاتل . وكان يمكن أن تكون للثورة فائدة ، لو وجدتَ من يشاركك فيها ولو كان فرداً واحداً ؛ لكنك تظل تعوي في واد غير ذي زرع لا أنيس فيه ولا شيء حتى يردد صداك ؛ فما تلبث أن يُبَحَّ صوتُك ثم يفنى ، وأخيراً تضطر إلى أن تسلك السبيل الحاسمة النهائية فتقضي على حياة لم يعد لها عندك بعدُ معنى ولا قيمة .

وكنا نحن الأربعة فرائس لكلتا الحالتين معاً : القنوط ، والثورة . ففي ميدان العواطف الشخصية جَنَحنا للقنوط ، وفي مجال المبادئ العامة آثرنا الثورة الجامحة المدمرة . وكنتُ أنا من بينهم جميعاً أشدهم تأثراً بالتجربة الغرامية الكبرى التي كانت لي في أوربا . كان جُرْحي يجيش دماً قانياً سَرِباً دائماً فتتضرَّج كل أحاسيسي ويستحيل كثير من آمالي إلى صديد . وهم كانوا على علم بحالي هذه ، فكانوا يحاولون كثيراً تسليتي بالأقوال . بيد أنها لم تفلح ؛

أستغفر الله ! بل زادتنى ألماً فوق ألم . وأخيراً اهتدوا إلى حل مجازفٍ هو أن أدرك المرأة فى أحس أوضاعها ومراتبها ، فتزول بهذه الطريقة فكرتى السامية عنها ؛ وسرعان ما أتناساها وأنساها ؛ فيكون فى هذا خير شفاء من ذلك الداء العَياء .

دبروا هذه الحيلة ، لكنهم كتموا أمرها عنى . وكنا من ناحية أخرى قد يئسنا من العود القريب إلى مهاوى أفئدتنا فى البلاد النائية ذات الغادات الشقراوات ، ومَلِلْنا من ذلك المقهى الأبدى الذى لم نفارقه منذ عودتنا إلى بلادنا ؛ فاستقر الرأى على تنويع تُزُهاتنا ؛ وكان أن اخترنا ارتياد ذلك المرقص الذى بدأتُ بوصفه هذا الحديثَ .

لم أستوحش إذاً من جانب الفتاة — سرڤناز — ، ولم أر فى صلتى بها ما يُغرِ بالعمل الخطير الذى كنا بسبيل البدء فى تنفيذه . بل ازدادت صلتى بها توثقاً يوماً بعد يوم ، وبخاصة منذ أن قرأت هذه اليوميات التى تصوِّر حالها الأسيفة وتكشف عن جوانب خيرٍ لم تلق على بعض أنحائها الظلالَ إلا قسوة الحياة . وَمَن مِنّا لم تدفعه الخطوب إلى مسالك كان يربأ بنفسه عن ولوجها لو كان بيده أن يكيِّف مجرى حياته ؟! وإذا كان فى بعض هذه الصفحات ما يثير الريبة وتوجس الشر من ناحيتها ، فقد كنت أرد هذا إلى نزوات طارئة كنتيجة ضرورية ، ولكنها وقتية ، لما أصيبت به من خيبة أمل وكوارث وما بلته من أخلاق الناس مما ملأ قلبها هموماً وتغاماً . وهل برىء أحدنا من العيب حتى نُنحِى عليها وحدها باللائمة ، والأَوْلى بنا أن نتجه بالتثريب إلى الدهر العاتى والصدفة المتحكِّمة فى كل أمرٍ من أمور حياتنا ؟ وإن ما شعرتُ به من خيبة أمل قد أشاع فى نفسى نوعاً من عدم الاكتراث وعدم التسرّع فى الإدانة إلا إذا وقفت على الأسباب كلها : ظاهرها وخفيِّها . فهذه الحماسة المنطلقة التى كانت تعنى بإبداء الأحكام القاطعة الحاسمة قد طامنتُ منها . وصرتُ أُخلِى هامشاً عريضاً للضعف الإنسانى . ومن هنا هذه النظرة المُشفِقة الباكية التى تتبدى من عيونى والتى صار معارفى يُدهَشون من رؤيتها عندى ، أنا الذى تعودت أن أطلق نظرة حادة قاتلة تشع منها حرارة إيمان صلب بالواجب والصِّراط المستقيم وعدم الرحمة لأى خطأ أو تخاذل ، حتى عدوا هذا انحلالاً بدأ يُغذُّ فى سيره إلى كيانى الباطن كله .

لهذا كنتُ مُهيئاً لتقبل سرڤناز على علاتها ، مع شىء من الحذر الرقيق يمليه علىَّ تزعزع ثقتى بالأحياء والأشياء . وحاولت أول الأمر أن أظفر ببقية « يومياتها » يدفعنى الفضولُ المعهود فى أمثالنا من أهل الفكر والفن ، أولى من أن يحملنى عليه الشك فى أمرها واتخاذ الأحوط بإزائها . بيد أنها ماطلتْ فى تسليمها ، وفهمتُ أن السر فى هذه المماطلة إنما هو رغبتها فى أن يبقى لديها سلاح للإغراء تستطيع بواسطته أن تستولى على ما تشاء منى تحت تأثير التهديد به والإغراء . ومثل هذا التفسير خليق بأن يُنهنِهنِى عن الإلحاح فى طلبها

فلم أعد أسألها عنها ، عساى أن أظفر بها بعد حين ، يوم أن تكون قد اكتشفتْ سلاحاً آخر لإغرائى .

ثم جرَت الأمور بينها و بينى على ما أهوى أول الأمر ، فكنا نقضى الساعات الطوال كلَّ يوم إما فى الضواحى البعيدة عن القاهرة أو فى داخل المدينة بين مقاهيها وملاهيها . ولم يكن أصدقائى الثلاثة يعلمون الكثير عن هذه الصداقة الوثيقة بين سرفناز و بينى ، وأنا من ناحيتى كنت أخفى عنهم بعضاً من نواحيها وأؤكد أن الصلة عابرة لا تتجاوز بضعة أوقات فراغ أزجيها معها ؛ بيد أنهم لاحظوا تغيبى عنهم وعدم ضبطى للمواعيد التى نضربها فيما بيننا ، وهو شىء لم يعهدوه عندى من قبل ؛ فوقع فى خلدهم أن تكون الفتاة قد استأثرت بلبى ، أو أكون قد تعلقت بغيرها ، وفى الجملة لا بد أن تكون ثمت مغامرة غرامية هى التى أحدثت لى هذا الاضطراب المفاجئ . ولقد خشوا من هذا خصوصاً على خِطتنا الكبرى ، وهم وقد رأونى فى الموعد المحدد لتعيين الغاية التى سنهدف إليها لم آت ببيان مفصَّل ، بل اكتفيت باقتراحات متنوعة يبدو عليها اضطراب المتسرِّع المرتجِل الذى لم يُروِّ فى الأمور تروية كافية . لهذا سرعان ما كان مشروعى المقترح هدفاً لنقد لاذع قاتل قضى عليه فى التوِّ ، ولم يكن لدىَّ من الحجج المُعدّة ما يسمح لى بالرد عليهم وكسر اعتراضاتهم . لهذا استيأسوا منى فيما يتصل بوضع الِخطّة ، كما رأوا من ناحية أخرى أننا لن نستطيع بتفكيرنا الشاب غير المدرَّب ولا المحنّك أن نهتدى إلى الوجه الأصوب فى الأمر كله ؛ لذا عزمنا على تفقد رجل يستطيع أن يُبَصِّرنا مواقع الرَّشَد من أمرنا ، رجل يكون له من الخبرة ووفرة التجارب والاطلاع على أحوال العالم والمشاركة فى الأحداث الكبرى ، فضلاً عما له من شهرة واسعة فى هذا الوطن ، مايسمح لنا بأن ننجح فى مشروعنا وأن نمتد به إن اقتضى الأمر إلى آفاق أوسع .

والحق أننا قد بقينا حتى ذلك الحين نجول فى دائرة أنفسنا ، وكأنها مغامرة خاصة بنا نحن الأربعة ، نريد من ورائها مجرد تحقيق ما يخالجنا من نوازع نحو العيش فى خطر والظفر بأكبر قسط من التجارب الحية وتحقيق ما بنا من إمكانيات كامنة ، وكنا لانزال — ألسنا شباباً رومنتيكياً حالماً ؟ — نتخذ النموذج الأعلى عند فرسان العصر الوسيط الذين كان يجول كل منهم بمفرده ساعياً وراء غاية نبيلة ومطلب إيثارى سامٍ ؛ ولم نفكر مطلقاً فى روح العصر الحديث بما تقتضيه من إشراك للجماعات والشعوب فى كل أمر يقوم به كل فرد ؛ بل

كنا على العكس من هذا نمقت هذه الروح الشعبية ونعدها انحلالاً ونزولا بالقيم الأرستقراطية التى آمنا بها وازدرينا ما عداها ؛ وكنا نتمثل أنفسنا أخلافاً لخالدٍ وزيجفريد وترستان ، أى لهؤلاء الأبطال المتوحّدين الذين يذرعون الأرض كالشُّهُب ناشدين مغامرات ، ولا يعنيهم بعد أن يقيموا دولاً أو يثبتوا عروشاً ؛ وكل همّهم أن يمتلئوا بأروع الفَعال ويقوموا بأنبل الأعمال ويظفروا بأكاليل المجد العزيز المنال .

أمّا وقد قررنا الالتجاء إلى مثل ذلك الرجل فقد اتسع أفق تفكيرنا وصرنا أقرب إلى روح العصر ، فبسطنا الحبل منها ما اتسع ، حتى نشمل بخطتنا دائرة الوطن كله ، على أن نتابع خطتنا الخاصة إن أخفقَت تلك الخطة العامة .

واستعرضنا النجوم اللامعة فى سماء السياسة الوطنية واحداً إثر واحد ؛ لكننا لا نكاد نذكر أحدهم حتى يهوِى ويغور فى هاوية الخيانة أو النفاق أو الدَّجَل أو الخذلان أو الاستكانة الذليلة أو الحمق الأهوج . ولما شاهدنا هذا استولت علينا الحيرة وتبادلنا النظرات حيارى مدهوشين متسائلين عن العلة فى التماع هذه الأسماء الزائفة ، ثم اكتشفنا فى الحال أنها ليست نجوماً حقيقية ، وإنما هى شرر أُلقِى به إلى أعلى بواسطة سهامٍ نارية ، أى أنها نجوم زائفة صناعية أطلقها الأعداء لنلهو بمنظرها فننصرف عن واجباتنا الحقيقية .

وفى وسط هذا التساؤل وتلك الحيرة صاح الفنان — وكان معتصما بالصمت حتى ذلك الحين : هل أدلكم على رجلكم المنشود ؟ إنه نِعْمَ الرجل : فهو فى السياسة داهية ، وفى الحرب مغامر ؛ وكلا هذين قد ذاق كلٌّ ، ذاقه وعاناه ولقى منه الأهوال دون أن ينم بشىء مما ينم به أولئك الدجالون من الساسة الزائفين . ولقد عرفته أثناء زيارة له لأوربا ، فامتلأتُ إعجاباً به ، لأن حديثه كان يتسم بالحماسة المقرونة إلى الخبرة والحكمة والعلم الغزير .

فقال العالم : أخشى أن تكون آنئذ فريسة وهم مفاجئ أو رجل عجيب ، خصوصاً وأنت فنان سريع التأثر بما يفاجئوك ويَبْدَهك ، ولا تدع للروية مجالاً فى أحكامك .

وقال الضابط الطيار : يا ويلنا من هؤلاء الذين يجذبوننا بحديثهم الخلاب من أول وهلة! وبُهراً لهذه الحماسة الجوفاء التى لا يخلو منها واحدٌ من اللامعين فى هذه البلاد ، ومع هذا فهم على ما تعلمونهم من نفاق وزَيَف ودَجْل !

فأجاب الفنان : أنا واثق تماماً من هذا الرجل ، لأن اللهجة التى تحدث بها كانت

تنمُّ على الإخلاص ؛ ولم يكن يستخدم تلك الألفاظ الطنانة والعبارات الرنانة التى طالما سمعناها ممن تحدثنا إليهم من محترفى السياسة الدجالين ؛ بل كانت عباراته طبيعية خالية من كل تصنيع وصنعة ، هادئة لا حرارة فيها فى الخارج ، بل كل حرارتها من باطن كأنها جمر متقد لا ترى له ضوءاً باهراً زاهياً ، لكنك تُحِسُّ بالدفء من مجرد الوجود فى حضرته دون أن تعلم مصدره فى المُصْطَلى ؛ بل لقد كانت همساته و إشاراته ووقفاته ، أبلغ عبارةً من كلماته . آه ! لو نظرتم إلى عينيه وهما لا تستقران فى حدقتيهما ، بل ترسلان أضواء رنانة متحركة دائماً حتى إنكم لتشعرون بأن الإبصار والنور إنما ينبعثان من البدن كله !

فقلتُ : أما عن رأيى أنا ، فقد سمعتُ عن الرجل الكثيرَ مما ينطوى على إطرائه والتمدّح بمناقبه ؛ بيد أن الكل يأخذون عليه تردده وميله إلى القول أكثر منه إلى العمل ، ولا يخلونه من نقائص الشيوخ الآخرين : من أثرة وطمع فى السلطان والجاه وضيق أفق فيما يتصل بالمسائل الإنسانية العامة ، ومن تأثر بتلك الروح الخائرة السائدة فى مجتمعنا بين هؤلاء الشيوخ : روح الهدم والنقد والتجريح ، بدلاً من البناء والإنشاء وطى الجميع فى داخل الفكرة العامة وصهر العناصر المتباينة فى بوتقة واحدة بحيث يتم فعل الخلق دفعة واحدة وبالنسبة إلى المجموع بكل ما ينطوى عليه .

فأجاب الفنان : قد تكون مصيباً فى هذا الوصف لطبيعة الرجل ؛ وأشهد أننى لم أتعمقه إلى هذا الحدّ ، كما أننى لم أختبره فى مواقف عملية أستطيع منها أن أستنبط الحكم الصادق الكامل الواضح ؛ إنما هى آثار عامة — تستطيع أن تسميها غامضة ، وإن كانت قوية — تركها هو فى نفسى ، وأيدتها قراءاتى عن أحواله وأعماله وما يروى عنه . وما أقصد أن أقدمه إليكم رائداً أوحد أو تمثالاً للعبادة ، إنما أقدمه للإفادة من تجاربه .

فقال الضابط الطيار : لقد صدّع الشيوخ رؤوسنا بكلمة التجربة والخبرة والحكمة ، ويعلم الله أن تجربتهم ما هى إلا تجربة شعورهم بتفاهتهم وعجزهم وإثقال العمل المتحلل عليهم ، وأن خبرتهم ما هى إلا خبرة الاستخذاء والذل والجهل ، وأن هذه الحكمة ما هى إلا لسان الضعف والانحلال والعجز الكليل وضيق أفق التفكير والجبانة الرعديدة التى تفزع من خيال نفسها . ما هذا يا شباب ؟ أعَدِمتم الثقة بأنفسكم حتى تلجأوا إلى تلك اللحى الزرقاوات والعُكّازات المتعثّرة والتجاعيد الكالحة والأنفاس المبهورة من العِلَل والشيخوخة ؟

أين ، أين روح الشباب الوثاب الذى يحمل صليبه على عاتقه ويمضى قُدُماً فى سبيل المجد لا يحفل بأية عقبة ؟ أين الإيمان المنطلق الذى ينشد اللامعقول ويلقى بالحكمة الرزينة فى مُتحَف العاديّات ، ولا يتخذ دليلاً غير قلبه العامر بالإيمان ، الإيمان بهذه الرسالة السامية التى نريد أن نكرّس حياتنا من أجلها والتى بايعنا أنفسنا وضمائرنا على الحياة والموت فى سبيل الذود عنها وإعلانها ونشرها بين الناس حتى تمتلىء الأرض عدلا ونوراً ومجداً بعد أن سيطرت عليها شياطين الشر عشرات وعشرات من القرون ، بل ودهوراً ؟ يا لله ! حرام علينا أن نسعى لمثل هذه الغاية ثم نستعين فى تنفيذها رجالاً تافهين وُضَعاء لم يستطيعوا حتى أن يقيموا مجداً لبلادهم ، أستغفر الله ، بل ألقوا بها فى أبشع مهاوى الذل والمهانة وكانوا أرباب لحدها ، بينما نحن ننشد غاية تنتظم الدنيا بأسرها ! ماذا ! أنسيتم ما تعاهدنا عليه وامتلأنا إيماناً به ، أم تضاءلت آفاقكم واختُلِست أبصاركم ؟ علواً بالقلوب وسمواً بالأبصار إلى ما فوق هذه الغايات المحدودة والآفاق المحصورة ؛ فمن عرف نور الآفاق العالية لا يقدر بعد على القناعة بضوء الذُّبالة . هيه يا شباب !

فقال العالم : جميل منك أن ترتفع بنا إلى تلك الآفاق ، وأن نحوّم معك بين الأفلاك ، ولكننا الآن لسنا بسبيل حماسة متفجرة ، بل بصدد عمل دقيق أرضىّ ؛ وليس ثمت من خطأ أكبر من الخلط بين ما هو أرضى وما هو عُلوى : فلندع ما لقيصر ، أى ما للأرضى ، للأرضى ، ولندع ما لله ، أى ما للعلوى ، للعلوى ؛ وهكذا فليكن شعارنا فى كل عمل نأتيه فى الحياة ؛ فما هذه الحكمة إلا رمز يقصد به إلى كل شئون الدنيا . وأنت ، ياعزيزى ، تغالى كثيراً حينما تطلب إلينا أن نندفع من تلقاء أنفسنا إلى تحقيق هذه الغاية دون أن نحسب لشىء فى الدنيا حساباً ، وإنى لأخشى أن تكون قراءاتك الرومنتيكية قد أفسدت عليك الإحساس بالأرض ومعنى الأرض . وإلا فقل بربك بماذا نبدأ ، ونحن لم نعرف بعدُ الرأس من الذنب ؟

فأجاب الضابط الطيار : لقد كان عليك أنت أن ترسم خُطة العمل ، فما إلىّ أنا يوجه هذا السؤال . لهذا فأنا أدعوكم إلى رسم الخطة حالاً ، وإلا تركتكم وشأنكم فى مناقشتكم العقيمة هذه ، وعندى فى طائرتى مأواى وأداتى التى أستطيع بها أن أحقق رغباتى وآمالى . فإذا ما عجزت واستيأستُ من الأرض وكلّ ما عليها ، فسأحلق بطائرتى العزيزة فى جِوائى

العالية ، سأحلق وأحلق ودائما أحلق حتى أبلغ أمراً أو أتحطم معها كما تحطم من قبل صِنْوى ، هيپريون !

فقال المفكر : أوه ! لقد انتقلنا إلى عالم الأسطورة إذاً ولما نكد نخطو الخطوة الأولى ! وا حسرتاه ! أما أنا فلا أرى بأساً فى التوفيق بين سَبَحات صديقنا الطيار — ولنَعْذره ، فإن مهمته التحليق والطيران فى أجواز الفضاء وفى الجِواء العالية — و بين عقل عزيزنا العالم اللاصق بالطين ؛ لهذا أشير بتطلب أوجه الرأى من ذلك الرجل الذى أشار به الفنان ، مع احتفاظنا بكامل حريتنا فى تصرفاتنا ؛ إنما يخلق بالعاقل أن يسترشد بمختلف الآراء ، حتى لو كانت فى مناقضة صريحة مع اتجاهاته ؛ لأن الرأى المخالف يزيد من تمحيص الرأى الخاص و يسلح صاحبه بما يرد كل هجوم عليه ، والرأى الموافق يزيد من توكيد الإيمان بالرأى الخاص ؛ ولا تنسوا كذلك أن الوجود نسيج الأضداد ، فلا ينبغى إذاً التعلق بوجه واحد ، بل يجب الأخذ بالأطراف المتعارضة بكل ما بينها من حدة وشدة .

فقال الضابط : ليكن الأمر على هذا النحو ، وإن كنتُ أشكُّ مقدماً فى قيمة النتائج التى ستصلون إليها عن طريق هذه الاستشارات ؛ ماذا أقول ! بل إن قلبى — وقلب المؤمن دليله كما يقولون — ليتوجس من ناحيتها خيفة و يتوقع شراً ؛ لماذا ؟ وعلى أى نحو ؟ لست أدرى ؛ لكن هكذا يُنَبِّئُنى حَدْسى .

فقال العالم : لاداعى للسير وراء الحدس المؤمن ، فيما تزعم ؛ بل لنجرّب وفى نتيجة الفعل ما يغنى عن كل سؤال و بلبال . واتفقنا على أن يمهد لنا الفنان سبيل الاتصال بالرجل الذى أشار به .

للنفوس القَلِقة ميل غريب إلى كل ماهو شاذ أو مَرَضِيّ . فهى تحتقر المعتدل فى كل شىء وتنفر من كل ما يسير وفقاً للعادة المَرْعيّة أو تبعاً للقاعدة المطّردة ؛ فكما تحرص الأجسام النَهِمة على توبلة غذائها المادى ، كذلك تعنى الأرواح الشاردة بأن تكون تجاربها الروحية حِرِّيفة المذاق .

عانيت صدقَ هذا القول فى تجربتى مع فتاتى سرڤناز . فلقد وقفتُ فى « يومياتها » على ما فى حياتها من توابل شعورية فما زادنى هذا إلا حرصاً على التعلق بها .

عرفتُ منها أنها مصابة بذات الرئة فنما عطفى عليها بدرجة غريبة ، لأن المرضى بهذا الداء كثيراً ما كانوا من ذوى الحساسية المرهفة والمشاعر اللطيفة البالغة غاية الرقة والعمق ، وعلى وجوههم سيما الحزن الذى يستهوى النفوس المعذبة ، فيشعر المرء إلى جوارهم بما يستشعره تحت ظل وارف فى ساعات الأصيل إبان الخريف ، ولعل هذا أن يكون خير بَلْسم مسكّن لتلك النفوس القلقة الحائرة . ولعل السرّ فى هذا أن استشهادهم طويل بطىء ، والضحية التى تظل تجود بنفسها زماناً طويلاً تستدر عطفاً أكبر جداً من تلك التى يُقْضَى على حياتها فجأة ؛ ولذا كان أكبر الشهداء إثارة للعطف والإجلال هم أولئك الذين عانوا أوفر قسط من العذاب لعهد طويل ؛ ولولا أن سقراط قد قضى عهداً فى السجن قبل تناوله السمّ إذ لما أحاطت باستشهاده تلك الهالةُ الرائعة التى نرسمها دائماً حول رأسه حينما نفكر فيه . والمسلولون يبدون فى حياتهم وكأن الموت قد دمغهم منذ الميلاد بطابعه ، فتراهم يقضون العمر وهم يُقَطِرون الموت فى كأس حياتهم حتى تمتلىء فيغادروها .

وفضلاً عن هذا كله فقد انضافت الذكريات الأدبية التى استقيتها من «غادة الكاميليا» فزادت هذا الميلَ العام توكيدا وواكبته بالتأييد .

وعرفت من هذه « اليوميات » كذلك أنها تدبِّر المؤامرات وتحرص على المناورات وتضطرم بعاطفة الانتقام الرهيب ، فحشدَتْ فى رأسى خليطاً من الأسرار الغامضة نسجته حول شخصها ، مما أثار حب الاستطلاع أكثر فأكثر ، وقوى عزمى على المغامرة مادمت

أنا بسبيل الامتلاء بتجاربها ونِشدان مختلف ضروبها . فلقد أقبلتُ عليها مغامراً يريد استكشاف المجهول من طوايا النفس الإنسانية ، فأى ميدان خير منها يصلح لتحقيق نزعاتى هاتيك !

لقد كانت إذاً ضالتى المنشودة من كل ناحية : فنفسى تواقة إلى طَعْم الهاوية . وأية هاوية أبعد غوراً وأشد إيحاشاً وإرهاباً من فتاتى هذه !

لهذا أقبلتُ على غرامها بكل جوارحى ؛ وضربت صفحاً عن كل ما أنذرنى به الناس من عواقب وخيمة إن أنا أضفيت عليها كل هذه القيمة . وكنت لا أزال أنظر إلى الحب من عليائه ، من تلك القمة التى استشرفت منها إلى معبودتى الأولى فى غرامى الأول بين روابى الأُمْبريا وضفاف الماروج والدانوب . وعبثاً نبهونى إلى الفارق الهائل بين فتاتى القديمة وهذه الفتاة ؛ لأنى لم أكن أحفل بموضوع التجربة نفسها . إن التجربة تجربتى ، أما الموضوع فلا يكاد يعنينا كثيراً فى شىء لأننا نحن الذين نخلق هذه الموضوعات بخيالنا وحساسيتنا ، وما هذه الموضوعات إلا رموز محسوسة لمشاعرنا اللا محسوسة ؛ فالشأن هنا كالشأن فى الوثنية : لا قيمة للمادة التى صُنع منها الوثَن، وإنما القيمة كلها المعنى الذى يعطيه المتدين لهذا الرمز .

ولم يكن فى وسعى تبرير هـذا الفضول القاسى أمام نفسى إلا بأن أعللها بهداية إنسان ضال ، فأُضْفِى على عملى هذا نبالة الغاية السامية ؛ ولم يكن هذا تغريراً لضميرى بقدر ما كان تغريراً لنفسى كلها ، إذ ما لبث هذا الإيهام أن صار وهماً مسيطراً فحسبت نفسى حقاً أسعى إلى تلك الغاية . وكانت النتيجة لهـذا الوهم أننى كنت أبذل لها عن سَعة ، محتجا بنبل الغاية ، إلى أن أوشكت على الإفلاس . وهى من جانبها قد كانت بارعة كلَّ البراعة فى التذرع بالأسباب الوجيهة فى الظاهر من أجل الظفر بأكبر مغنم . وكنت أنا أتحمل هـذا كله بصبر نافد وتسليم عاجز : ذلك أنِّى كنت معذباً بالتناقض بين ناحيتين : ناحية الشعور بأننى فريسة للاستغلال وناحية الشعور بأن هذا الاستغلال نفسه هو العنصر الرئيسى فى هذه التجربة ، فإن لم أتظاهر بالسذاجة والغفلة فلن أستطيع استطلاع هذه الآفاق المجهولة ، وبذا تمضى كل جهودى عبثا فى غير طائل .

قالت لى ذات يوم :

— أتعلم أنى ضِقتُ ذرعاً بهذه المهنة الرهيبة التى أمضيت فيها ما ذرّف على ثلاث سنوات ؟ إننى أغدو إلى مقبرتى كل مساء ، وأزعم أنى أعيش بين الأحياء ؛ وياليتنى أسعى إليها كما يسعى غيرى من الناس ، فإن الموتى أنفسهم قد تنكروا لى ورفضوا أن أقيم بينهم ، فلا يلبثون أن ينبذونى ويطردونى من جديدٍ كلَّ ليلة إلى دنيا الآلام : فلا بِنُعْمى الحياة ظفرت ولا براحة الموت نَعِمت .

— وماذا يحملك على الاستمرار فى هذه المهنة ؟

— إنه المصير الذى لا يرحم .

— وهل حاولتِ الخروج عنها من قبل حتى تيأسى كل هذا اليأس ؟

— نعم ، فى تجربة غرامى التى عرفتَ نبأها فى « يومياتى » . لقد أفسدتْ علىَّ كل أمل فى حياة كريمة حتى إن فرصاً كثيرة قد سنحت للمحاولات الجديدة ، بيد أنى لم أحفل بها . فكم من فتيان عرضوا علىَّ الزواج فأبيت . وإنى لأذكر من بينهم خصوصاً فتى مسكيناً كاد أن ينفق علىَّ كل مالهُ ولا له فى الحياة من مال ؛ ومع هذا فقد رفضتُ الاقتران به ، لأنى لن أكون له ولا لنفسى مصدر سعادة .

— ولماذا كل هذا التشاؤم ، وممكنات الحياة لا حصر لها ، وليس من الضرورى أن يصيب المرء الهدف بالرصاصة الأولى ، بل عليه أن يحاول ويستمر فى المحاولة حتى يُفْرِغ كل ما فى جعبته من رصاص ؟

— أوه ! دعك من هذه الحِكم المبتذلة التى أفسدت على الناس حياتهم ، فقصوها فرائس لآمال زائفة وكان خيراً لهم أن يوفروا على أنفسهم هذه الجهود العابثة منذ اللحظة الأولى . تلك هى الحقيقة الأليمة التى لا مناص من مواجهتها والاعتراف بها إن عاجلاً أو آجلاً . وأنت ستعانيها يوماً ما ، ولا زلتَ الآن فى مطلع الشباب .

— أنا لا أفهم السرّ بعدُ فى اتخاذ هذا الموقف إن استمر المرء مع هذا يساير ركب الحياة . فإن النتيجة الطبيعية لمثل هذا الموقف هى الانتحار أو …

— أو التذرع بوسائل أخرى لعلك أن تعلم نبأها بعد حين .

ثم رفضتْ أن تدلنى على نوع هذه الوسائل على الرغم من شدة إلحاحى عليها ، فأشاعت فى نفسى اضطراباً حملنى على زيادة التفكير فى إمكان تحقيق تلك المهمة التى توهمت أننى

أَنطْتُ بنفسى تحقيقها نحوها .وتلت فترة صمت عادت هى فقطعتها قائلة :

— لنعُدْ إلى موضوعنا الأول وهو تبرُّمى بحياتى ، ماذا ترى من وسيلة ؟

— أنتِ أدرى ما دمت تعرفين « وسائل أخرى » للسلوك فى الحياة !

— دعِ المزاح ، فأمرى أجلّ من أن تعبث به هذا العبث . أنت ممن لا يمكن الاعتماد عليهم فى تخفيف متاعب الحياة وهمومها . يالقسوة قلبك !

— أين القسوة ولماذا هذا الاتهام السريع وأنت التى تريدين أن تنفردى بالرأى السليم فى كل شأن ؟ ما من رأى أبديته إلا وتناولتِه بالرفض والإعراض ؛ لهذا أدع لك مطلق الحرية فى إملاء ما ترين .

— أنا لا أُملى شيئاً ، إنما أريد أن أجد حلاً جميلاً يحقق رغبات غرامنا المشترَك . فأنت تعلم أن غرامنا قد ظل حتى اليوم شريداً لا يستطيع الاستقرار فى مكان ؛ إنه غرام ضالّ لقيط لا يعرف له عُشًّا يأوى إليه إذا جَنّ الليل واشتاق إلى الرقاد والسكون . أفلا ترى من الخير إذاً ألاّ ندعه هكذا كأحد أبناء السبيل ، بل نجد له ملجأ يحتمى فيه ، خصوصاً من أعين الناس وأنت الحريصُ على الكتمان ؟ أترى إذاً ما هنالك من فوائد عميمة لكلينا ؟ ماذا أقول ! بل الفوائد كلها ستعود عليك أنت وحدك ، وما ذكرتُ اشتراكنا فى الفائدة إلا من باب التواضع فحسب ؛ أليس كذلك ؟

— اطلبى ما تشاءين ولا تسأليني الرأى ، فأنا طوع ما تقولين . ومن ذا يستطيع أن يخالف عن أمرك أيتها ... ... !

— إذاً أنت لا تصغى إلى حديثى ، ولا تريد أن تحقق هذه الفوائد لصالحك أنت ؟ أنت وشأنك ، ولن أحفل بإسداء النصح إليك مرة أخرى ، وعلى نفسها جَنَت براقش كما يقولون .

— أوه ! لولا هذه الحِدّة فى غير ما داعٍ ! أنا لم أقل إلا الصدق ، وهل خالفت لك رأياً من قبل حتى تتهمى عباراتى على هذا النحو ؟

— أجل ! أنا أقرأ فى عينيك الدهاء والخبث . أتريد أن ينطلى هذا علىّ ، علىّ أنا العالمة بكل أمور الرجال ؟ هيه !

— أفصحى عما تريدين ، وأنا كفيل بتحقيقه : هذا كل ما فى الأمر .

— وهل كنتُ أتحدث بالصينية ؟ لقد أبنت اقتراحى بوضوح ولن أكرره مرة أخرى وأنت وشأنك ، ولا جُناح علىّ بعد الآن .

واعتصمتْ بالصمت المطلق الذى لم يقطعه إلا إقبال صديقى الفنان علينا فى مقهانا المعهود ، فاتجه الحديث اتجاها آخر دون أن تشارك هى فيه برغبة ظاهرة مستأثرة بتكتم مقصود الدلالة . ثم استأذنتْ لتنصرف إلى عملها وودعتها ، ثم عدتُ إلى صديقى الذى جاء ليخبرنى عن الموعد الذى ضربه لنا مع الرجل الكبير .

***

كان الرجل مقيما فى ضاحية بديعة من ضواحى القاهرة ، يحيا وحده فى قصر صغير أنيق تحيط به حديقة فسيحة تخللتها صفوف من أشجار الفاكهة الباسقة ؛ ويقف على بابها كلبان من النوع الدنيمركى الأجرد الأرقط ، كأنهما ذئبان كاسران ؛ ومن حولها أشجار النخيل تزهو بغدائرها وقد أطلت أعْذاقها وتبدّت بكل فتنتها انتظاراً لقدوم الحبيب ؛ والرمال الوردية تتراءى من الجبل الأصفر فتشيع روحاً خيالية جذابة تزيد من روعة هذا المكان الفريد ؛ وعرائش الكروم ، وقد نبتت أوراقها من جديد فى هذا الربيع الفاتن ، تستقبل الداخلين فى كل البيوت وتُظِلّ الجالسين فى شرفاتها الخشبية أو تحمى العذراوات الحالمات وهنّ ينسجن دُرّاعات من الصوف المتعدد الألوان بإبرهن الطويلة من العاج أو المعدن ، تحميهن من عيون العابرين من سكان ومسافرين .

وفى الميعاد المضروب وصل بنا القطار إلى هذه الضاحية ودُرْنا حول الحديقة نصف دورة حتى نستوثق من أننا غير مراقَبين من أحد من الناس أو رجال الشرطة السريين وعيونهم المبثوثين ، لأن الرجل كان هدف مراقبة هؤلاء . فلما أن اطمأن رائدنا دخلنا الحديقة من باب حديدى ضخم فاستقبلنا الكلب الكاسر بنباحه الوحشى ، فنادينا البستانى ليحمينا منه . وأخيراً كنا فى حضرة ذلك الرجل .

كان رجلاً فارع القَوام سمينَ الضواحى مُطَهَّم الوجه ، تبدهك منه لأول نظرة عينان واسعتان ترسلان نظرات حادة كنظرات الباشَق فيها اضطربت الحياة العنيفة وانعكست التجارب العميقة الأسيانة ، كما يبدهك شعره الجُفَال الفضّى وقد تهدّل على سالفيه فكأنك أمام رأس ليوناردو دافنشى التى رسمها لنفسه لولا صِغَرُ اللحية وزوالُ الشارب ؛ وإنك لتنظر

إلى قَسِمات وجهه وتجاعيده فتستشف من ورائها قوة انفعال رهيب وتمرد على الأوضاع لم يستطع أن ينفِّس عن عرامته إلا فى تعابير مُحيّاه . وتكوين جمجمته ولون بَشَرته وسعة جبهته تدل كلها على أن أجناساً مختلفة قد توفَّرت على إيجاده ، أبرزها الجنس الطورانى . وعلى الرغم من أنه ذرّف على السبعين فقد كان الحركة بعينها والنشاط مجتمعاً : فى سيره المهرول وسعة خطواته وطريقة إشاراته إبان الحديث ، وتردده بين الجلوس والوقوف أو السير ذهاباً وجيئة ، بحيث التاث علينا الأمر : فكنا فى البدء نتابعه فى حركاته ، جلوساً ووقوفاً وسيراً ، ولكنه كان أسرع منا بحيث كنا نضطرب وكنا نأتى بحركات متنافرة مضحكة لا تكاد تستقرّ على وضع ، وأخيراً لم يكن بُدٌّ من أن نظل مكاننا جالسين وقد تركناه يأتى من الحركات ما يهوى ويشاء .

ثم دار بينه وبيننا الحديث — وكان رائدنا الفنان قد هيأ الموضوع من قبل . فبدأ بأن سألنا أغراضنا ، وهل نحن جادّون فيها ، وإلى أى مدى يمكن أن نبذل من ذات نفوسنا ، فأبدى كلٌّ منا توكيداته وصادق عزمه باللهجة التى تتفق ومزاجه . وبعد أن فرغنا من بيان نوايانا وعزائمنا ، بدأ الحديثَ فقال :

« العالم بأسره يحترب ونحن لا نحرك ساكناً ، كأن الأمر لا يعنينا بينا هو يعنى العالَمَ أجمع . فإما ألا نكون من هذا العالم — وحينئذ فلا معنى لبقائنا فيه إذ سنكون فُضُولاً عليه — ، وإما أن نكون دُمى بائسة لا تملك من أمرها شيئاً وسيقرر الآخرون مصيرها . وأيّاً ما كان الأمر ، فقد حكمنا على أنفسنا بالفناء . ولست أدرى لماذا لا نعلن هذا كله صراحة للعالم كله ، ونرتب نتائجه ونحقق ما تقتضيه بدافع من أنفسنا وضمائرنا خيراً من أن نُضْطَرّ إليه اضطراراً ويُرْغِمنا التاريخ على أن نُطْرَدَ خارجَه . فسنكون إذن طفيليات لا معنى لوجودها ؛ وإذا فقد المرء معنى وجوده ، فأنبل عمل يأتيه هو أن يقضى على نفسه بنفسه بواسطة فعل حُرّ إرادى يترك له الذكر الطيب بين الحاضرين من الأجيال والمقبلين ، ويرشح نفسه للمقام الكريم فى عِلّيين . وأنا من جانبى أرى من الأكرم لنفوسنا أن نأتى هذا الفعل النبيل ، الآنَ وقد يئسنا من الظفر بمكان لائق فى هذا العالم الذى نحيا فيه .

« لقد بلوتُ الحياة حُلْوها ومُرَّها ، وامتلأت نفسى بعريض الآمال ومعسول الأحلام فى غضارة شبابى ، فشاركتُ بدافع منها فى كثير من الأحداث العامة والانقلابات القومية والدولية

المحدودة ، وحسبت أنى سأظفر من وراء هـذا كله بشىء لقومى أو لبنى الإنسان ؛ لـكن ها أنتم أولاء ترونني نائياً عن الأهل — فما أبعد الهوة التى تفصل بين بنى وطنى و بينى ، وما أ كبر الفارق بين ما يضطر بون فيه و بين ما هفت إليه مطامحى ! وما أعظم الشقة بين ما كنا نحلم به معشر الشباب للإنسانية البائسة فى مأساتها الـكبرى الماضية ، و بين ما انتهت إليه بعد زوال المأساة الحمراء وابتداء البيضاء ، مأساة السلم ، وقد كانت أشد من الأولى بشاعة وهولا ! كما ترونني صِفْرَ الـكف من كل أمل ، على الرغم مما يتبدى على محياى من دلائل الفَتاء والشباب والنشاط الذى يدعو إلى الطموح الواسع والأمل الغض المستمر فى النماء ؛ وهأنذا بعد هـذا كله منفرد أعيش وحدى محروماً حتى من أقرب أهلى وأخلص إخوانى والمعجبين بى ، كأننى نَسْر هَرِم معمَّر هجره الطير فلاذ بقُنّة جبل شامخ فى القطب الشمالى .

« أرى فى وجوهكم مخايل امتعاض وتمرد على هذا اليأس وعدم ثِقة بما أقول ، وكأنـكم تقولون لأنفسكم : هذا كلام شيخ يَفَنٍ أشاح بوجهه عن الحياة واستقبل الموت فلا تصغوا إليه . ولقد كان هذا ردَّ فعلنا دائماً ضد أحاديث الشيوخ الذين كنا نجتمع بهم فى مؤْتنَف شبيبتنا ؛ وكنا نسخر ونتهـكم من هذه الخرق البالية المهلهلة التى تريد أن تفرض علينا فشلها فى الحياة و إخفاقها فى إيجاد عالم ممتاز لبنى الإنسان ، وكنا أشدَّ منكم حماسة لدعاة الإنسان الأعلى — الذى ذ كر أحدكم أنه متأثر بصاحب فـكرته وأ كبر دعاته — خصـوصاً ونحن كنا نتلقى مؤلفاته أولاً فأول فنلتهمها التهاماً ، و بلغ من حماستنا لنيتشه أننا كنا نتسقط أنباء تنقلاته فى سويسرة و إيطاليا ونُهْرَع إليه كيما نرى نبيّنا الجديد ، دون أن نقترب منه أو نجرؤ على السير إلى جواره لأنه كان يتبدى لنا فى صورة زرادشت وقد نزل من جبله ليبشر الناس ببرقه أى بالإنسان الأعلى ؛ وعلى الرغم من أنه كان نحيلا ضامراً ، فقد كان يبدو لنا — بنوع من الوهم الغريب — مارداً جباراً يستطيع بإشارة واحدة أن يضرم العالم كله فى أتون ثورته . وكنا من ناحية أخرى من أشد الناس إيماناً بمذهب التطور — وكان فى ذلك الحين فى أوج مجده ونفوذه — ، وتأسرنا عباراته الخلابة مثل : بقاء الأصلح ، والانتخاب الطبيعى ، والتطور المتجه نحو التفاضل وزيادة التنويع ؛ كما كنا متأثرين كذلك بالنزعة التنويرية فى الدين التى حمل لواءها اشتروس ورينان ، ونؤمن بالتقدم المستمر للإنسانية بفضل التقدم فى العلم والصناعة الفنية . وكنا نتابع تطور العلم فى معابده ، فندخل المعامل وكأننا ندخل هيا كل النور نريد

أن نقدِّم أنفسنا على مذابح التجارب ، ناظرين إلى پاستير وكوخ وهكل وبرانلى كأنهم الكهنة الكبار لدين الإنسانية المقبلة .

« أما اليوم فماذا تبين لى ولمن ينتسب إلى جيلى من وراء هذه الأحلام العريضة ؟ لم يتبين غير أننا كنا واهمين مساكين : فالإنسان الأعلى قد استحال إلى قزَم وضيع يسمى صاحب المليارات ؛ وبقاء الأصلح قد صار نجاح الأخس فى مرتبة الإنسانية ؛ والانتخاب الطبيعى هو اختيار الطفيليات الزائفة والقضاء على العناصر الممتازة الصالحة ؛ والتطور المستمر هو التداعى السريع لكل حضارة وقيمة روحية نبيلة ؛ وتقدم الإنسان بفضل الصناعة الفنية قد صار استعباد الحى العاقل للتنين الجماد الذى يسمونه الآلة . وبعد أن كنا نؤمن بقيام طائفة من الممتازين الذين سيوجهون العالم نحو تلك الأهداف العالية ، لم نجد إلا نفراً من كبار الدجالين الشعبيين والمنافقين المترمِّتين . فإذا بالعالم يصبح أكثر بربرية وانحلالاً مما عرفناه فى شبابنا .

« أين إذاً آمالنا العريضة وتضحيات أصحاب النوايا الطيبة فى العالم كله ؟ !

« وهكذا سيكون عالم الغد الذى ستمضون فيه كهولتكم وتمام رجولتكم . فإذا كنتم حريصين على مواجهة الحقائق سافرة لا عاطفة فيها ولا محاباة ، فخذوا عنى هذه التجربة . أجل ، أنا أعلم ما فيها من ألم ومرارة وخيبة أمل سيكون لها أبلغ الأثر فى نفوسكم الغضة ؛ لكننى أحببت أن أصارحكم ، لأننى بقيت دائماً ألدّ أعداء النفاق والدَّجَل . ولكم عانيت من آلام ومتاعب من جَرّاء هذه الصراحة ، لكننى مع هذا لم أطامن من حِدّتها ولن أخفف من وقعها ، لأن مرارة الكأس التى شربت منها لا يمكن أن تُنسى » .

فقاطعه أحدنا قائلا : « لكن لعل القدر قد شاء أن تكون كأسك على هذا النحو ، فلماذا تريد أن تفرض على الناس جميعاً الشراب منها ؟ لقد حاولتَ — وحاول جيلُك — فأخفق ، فهل معنى هذا أن تصدر قرار الإعدام على كل محاولة مقبلة ؟ سنفحص عن تجربتكم ونتلافى ما فيها من نقائص ، ثم نمضى لسبيلنا قُدُماً يحدونا أمل الشباب المتفائل الوثاب » .

فأجاب : « أوه ! تلك كانت ردودنا أيضاً على الشيوخ الذين كانوا يحدثوننا عن تجاربهم . وهأنذا — ومعى أبناء جيلى — أكفّر عن عدم الاستماع إلى مقتضى تجاربهم أفدح كفّارة . ولست أدرى إلى متى يظل الناس هكذا فرائس مسكينة لذلك اللفظ .

الخداع الأثيم ، لفظ : « الأمل » . فما ابتليت الإنسانية بشر أكبر نُكْراً من هذا اللفظ . صدقونى ولا تظنوا فىّ المبالغة حينما أحدثكم بهذا الحديث القارس الأليم ، وأنا أشد منكم تألما له ، لأننى عشته تجاربَ حية بذلت نفسى فداءه لها وعانيتها حتى أعمق عمائقها » .

فقال المفكر من بيننا : « لنفرض أن ما تقوله هو الحق الصُّراح ، فماذا ترتّب عليه من نتائج ؟ أنا لا أرى غير نتيجة واحدة هى : الموت الإرادى لبنى الإنسان أجمعين ، حتى تنتهى هذه المهزلة المجوجة الأليمة التى يسمونها الحياة الإنسانية . فهل لهذا تدعوننا ؟ »

فأجاب الرجل : « أنا لا أدعوكم إلى شىء . فأبغض مهنة لدىّ مهنة الواعظ ، لأنها تقوم كلها على النفاق . ولست من السذاجة بحيث أضع نفسى موضع الناصح لأحد من بنى البشر ، أنا الذى توجّهت كل متوجَّه على أظفر بالنصح لنفسى ، فلم أحظ فى كل مرة إلا بخيبة الأمل المريعة . وإنى لأمقت من أعماق فؤادى هذا النفر من الناس الذى يحاول أن يضع نفسه موضع المشير الناصح ، وأعدّه وبالاً وطاعوناً وشرا مستطيراً على الإنسانية . لو شاء امرؤ نصحاً ، فلا يسأل أحداً النُّصْح غير نفسه ؛ وخيراً من هذا كله أرى له أن يسير حيثما اتفق » .

فقال المفكر : « على رِسْلِك سيدنا الأكبر ! فلقد ابتدأت بمقدمة توسمنا منها أنك ستوجه إلينا أحرّ دعوة إلى العمل الحازم السريع والتوثب فى مرامى المجد ، لكنى أراك قد انتهيت إلى عكس ما ابتدأت به . فهل لى أن أفهم السر فى هذا التطور فى الحِجاج ؟ »

فأجاب : « لقد بدأتُ من حيث انتهيتم ؛ وما كان لى أن أفاجئكم بما ينفّركم . فهذا ليس إلا مجرد أسلوب فى الحديث . ومع هذا فإنى أردت أن أطامن من شدة تفاؤلكم ، حتى لا تصرعكم خيبةُ الأمل حينما تصيرون إليها ، — وأنتم لا بد صائرون إليها — ، فلكم كان لها من صَرْعى ! »

— إذاً هذه نصيحتك لنا : التسليم العاجز لما يأتى به المصير .

— أناشدكم الله ألا تستخدموا هذا اللفظ البغيض : نصيحة ، فلقد قلت وكررت القول بأنى لا أنصحكم بأى شىء ، ولا حتى بعدم الاستنصاح .

— إذاً ماذا نفعل بهذه الحيوية الزاخرة التى تملأ كل كياننا كأنها قنبلة تريد أن تنفجر ؟

— سـواء عليها انفجرت أم لم تنفجر : فإن انفجرت تبددت هى وأصابت الدنيا وما حولها بالدمار ، وإن لم تنفجر كانت قطعة من المعدن المتحجّر لا غَناء فيها : فهى إذاً إما شر وإما عبث ، وكلاهما باطل .

— لسنا نحن الذين صنعناها ، بل الطبيعة هى التى زودتنا بها يوم ميلادنا ؛ فلا بد إذاً أن نفعل بها شيئاً .

— إن آثرتم العافية ، فدعوها تتحلل من تلقاء نفسها حتى تفنى نهائياً دون أن تصيب بالشر أحدا ؛ وإن شئتم إلا أن تفعلوا بها شيئاً ، فألقوا بها من أعلى السماء فوق الأرض كلها لعلها تتبدد ويفنى العالم كله ، ويكون فى هذا الفناء خلاصه . نعم ، يا أبنائى ! الأرض كلها قنبلة عظمى ، وكل مَنْ عليها قنبلة تتفاوت عن غيرها فى الصغر . ويخيَّل إلىّ أن هذه القنبلة لن تستريح من غليان موادها المتفجّرة إلا بعد أن تنفجر . فانفجروا جميعاً ، ولتنفجر أمُّكم الـكبرى ، هذه القنبلة الأرضية العظمى ، من بعدكم لعلها بعد هذا أن تتذوق طم الراحة . ما أعجب هذا التشبيه ! وكم فيه من دقة وتوفيق ! لقد هدانا إلى الحل السديد لمشكلة الإنسان ولمشكلة الأرض ومن عليها وما فيها . أليس كذلك ؟

— ما هذه السخرية العريضة منا ونحن فى حُمَيَّا الشباب ؟ أفما كان الأجدر بالشيوخ أن يباركوا علينا معشر الشباب ويُحرِقوا أمامنا بَخور الآمال الواسعة والطموح البعيد ؟

— رويداً يا أبنائى ! كيف نمنح شيئاً لا نملـكه ؟ لم تبارك علينا الدنيا ، فأصبحت أيدينا صِفْراً من كل بركة ؛ وحرمتنا الحياة من كل أمل ، فاقتلعنا شجرة أعواد الأمل . وهاهى ذى حديقتى كلها أمامكم لو عثرتم فيها على شجرة تَنْبُت بالأمل أو بغذاء للآملين فـكلوا منها رَغَداً حيث شئتم . أما أنا فقد يئست نهائياً من العثور على شىء منها أو من آثارها . فلماذا أُتْعِب بعدُ نفسى فى تفقُّدها ! ؟

« خير لـكم ولى أن نرتاض قليلاً فى هذه الحديقة ؛ فما أجمل أن يتعهد كلٌّ منا حديقته بمعزل عن العالم بأسره . تعالوا معى نَجُسْ خلالها ، لعلنا نجد فى كنفها ما فقدناه من أمل . أجل ، إننى أصـبحت أستريح إلى حياة النبات وأراها أفضل بكثير من حياة الحيوان ، وبالأحرى والأولى أراها أفضـل من حياة الإنسان . حقاً إن النبات لا يخلو من صراع ومتاعب وهموم يتلقاها من العناصر المعدنية ، وهذه بدورها فى صراع مع نفسها ؛

ولكم شاقنى أن أشاهد فصول هذه المآسى الدامية بين شجيراتى هذه و بين عناصر الطبيعة ، حتى كنت أشعر بمشاركة وجدانية حارّة معها ، وتمنيتُ أحياناً أن أكون قطرة فى عصارتها وأن أساهم على رأس جنودى فى الدفاع عنها ضد غارات تلك العناصر كما فعلت من قبل مع بنى الإنسان ؛ لكنّ آمالى ضاعت سُدى . فحتى هذا الأمل : أمل أن أصير نباتاً ، قد حرمت من تحقيقه . ولا تظنوا من هذا أننى أسخر أو أتهكم : بل أنا أقول غير حانث إننى كنت ولا زلت أتمنى أن أكون نباتاً .

— وأى نبات فضلتم أن تكونوا ؟ هكذا قال أحدنا ضاحكا .

— كلما كنتُ أبعد عن الحيوان كان خيراً ، حتى لا أتدنّس بهذا الجنس الوضيع . لهذا أفضل أن أكون نباتاً معدنياً .

— إذا كنت تريد أن تتباعد عن الحيوانية إلى هذا الحد ، فأنت بالأحرى تريد الابتعاد عن الإنسانية ؟

— تماماً ! فأنا أمقت الأحياء وأفضل عليها الجماد ؛ و بالأحرى أمقت هذا النوع الأرفع — فيما يزعمون ! — من الحياة الذى يسمى العقل . أوه ! العقل ! كم هو بغيض إلى كل كيانى ! آه لو استطاع الإنسان الخلاص منه ! إذاً لكان أفضل حالاً .

— لكنّ معنى هذا أنه لن يصير بعدُ إنساناً ؟

— تماماً ! وأنا لا أطلب للإنسان غير هذا .

— أفهم من هذا إذاً أنك ترتب الكائنات بخلاف ما يفعل الناس : فتجعل الجماد أفضل من النبات ، والنبات أفضل من الحيوان ، والحيوان أفضل من الإنسان ... وهكذا ! فهلا تخشى على نفسك من جراء هذا القَلْب للقِيَم ؟

— كلا ، لا أخشى شيئاً ، بل أرى فيه عين الصواب وسبيل الخلاص لكل الكائنات .

— ولماذا إذاً لا تعلن هذا للناس وأنت كما قلتَ فى غاية الصراحة ؟

— أنا لا أقوله إلا لمن يسألنى ؛ وإلا كنتُ داعية ، أى ناصحاً ومشيراً ، وأنا قلتُ إننى أُبغض هذه المهنة الزائفة كل البغض . ولهذا أيضاً فأنا لا أنصح به أحداً ؛ بل أتمناه لنفسى ، وأدع الناس وشأنهم ، فعليهم وِزْرُ ما يفعلون ، وما أنا بمسئول عنهم فى شىء .

— وهل تأذن لى فى أن أنقل هذا إلى الناس حتى يعرفوا هذا المذهب ؟

— أرجوك وأتوسل إليك . هذه نجوى فلا تنقل منها شيئاً .

— كيف تبخل بها على الناس وفيها هدايتهم إلى سبيل الخلاص فيما تقول ؟

— وهذا عينه هو السر فى تحريمى إذاعتها فى الناس . فلا يخلق بالمرء أن يذيع شيئاً على أنه دعوة أو مذهب ، وإنما الأفضل أن يدعهم حتى ينساقوا إلى الدعوة من تلقاء أنفسهم وبمحض تجاربهم . وأنا أعلم أن العالم سينتهى يوماً ما قطعاً إلى هذا الذى انتهيت أنا إليه . فلا تفسد علىّ هذا بإحالتك إياها إلى دعوة أو مذهب .

— وإذاً فالخير لنا معشر الشباب أن ننتهى إليها بأنفسنا ؟ أليس كذلك ؟

— يجوز . لست أدرى ! » .

ولم يكن أمامنا بعد هذا كله إلا أن نعود أدراجنا من حيث أتينا ؛ وكنا فى تلك اللحظة التى انتهى فيها الحديث إلى هذا الحدّ قد اقتربنا من باب الحديقة الذى دخلنا منه ، فانتهزناها فرصة للخلاص من هذه الأحاديث المُحَيِّرة . فودعناه وانصرفنا .

والحق أنه كان حديثاً مزعجاً مُحيِّراً أشاع فى نفوسنا بلبالاً لا حدّ له . فما أوشكنا نترك الباب ونولّى وجوهنا قِبَل المحطة حتى نظر كل منا إلى أخيه وهو فى قلق وهمّ مقيم . وبعد حين قطع علينا صديقنا الضابط الطيار هذا الصمت ، بأن قال فى لهجة لا تخلو من تفاخر وتأنيب :

— ألم أقل لكم إنكم لن تظفروا بشىء من وراء هذه الجيف الحية ، هؤلاء الشيوخ المهدّمين البائسين ؟ أفلم يكن الأجدر بكم أن تستمعوا إلى نصحى وتعتمدوا على إيمانكم وثقتكم بأنفسكم ونمضى قدُماً إلى حيث نريد ؟

— يبدو يا إخوانى أن هذا كان عين الصواب ، وأنه كان محقاً فى مخاوفه ، هكذا قال العالم .

— لكن ماذا خسرنا ؟ هكذا قال الفنان وقد شعر بأنه المسؤول الأول عن هذه المقابلة الخاسرة . بل بالعكس : إن هذا من شأنه أن يزيدنا إيماناً بأنفسنا ، الآن وقد يئسنا من الآخرين . فنحن الرابحون إذاً من هذه المقابلة السلبية .

— على رسلكم قليلا ! هكذا قال المفكر . لا تظنوا أن الأمر على هذا النحو من البساطة بحيث يكفى أن تدمغوه وأمثاله بلفظ « الشيوخ » حتى تظنوا أنكم قد اهتديتم إلى الصواب وزدتم بأنفسكم ثقة وإيماناً . فإن حديث الرجل كان مع هذا مليئاً بالأفكار العميقة ، وبالآراء المبتكرة التى لا يخلق بنا أن نرفضها جملة كأنها متاع قديم نلقى به من النافذة دفعة واحدة بلا تمييز .

« حقاً إنه رجل مثير للخواطر ؛ تدعو كل عباراته إلى التأمل الدقيق والتفطُّن وحشد الخاطر حتى نستوعبها ؛ لأنها أقوال صدرت عن تجارب حية ، وليست كلمات منمقة زائفة من ذلك النوع الذى برع فيه الدجالون والمهرّجون من الشيوخ ؛ وتكوّن فلسفة كاملة فى الحياة يحسن بنا أن نقف عندها طويلا ، قبل أن نطرّحها جملة ، فعلَ الجهولين الأغبياء » .

فصرخ الطيار قائلا : « أية حكمة تراها فى هذه الدعوة إلى الموت والفناء ؟ إننى أفضل ألف مرة أن أُنعَت بالجهل والغباوة على أن أستسلم لهذه الآراء الانحلالية التى تفتك بالنفوس السليمة لأنها سرطانها المستتر . ماذا تقول ، وأنت الشاب الذى يتفجر منه الإيمان وتنتزى فيه قوى الحياة ، لمن يدعوك إلى التسليم والجمود وإنكار الحياة ؟ لا أجد عندى غير جوابٍ واحد أصفعه به هو : اذهب عنى إلى الشيطان أيها السم الزعاف ! »

فقال المفكر : « رفقاً ! ما هكذا تورَد يا سعدُ الإبِل ، كما يقولون فى الأمثال العربية . لسنا أقل منك حماسة ، وإنما نحن نطالب — أو بالأحرى أنا أطالب ، لأنى لا أعلم رأى زَميلَينا — بأن نروّى فى الأمر حتى نكون على بينة مما نفعل . أنسيت ما قلناه فى مناقشتنا السالفة فى هذا الأمر عينه ؟ وما قاله ذلك الرجل إن هو إلا رأى قد يكون له بعض الوجاهة وقد يكون زائفاً كله . ولكننا لا نستطيع أن نميز بطلانه من صوابه إلا إذا تدبّرنا آراءه — وكلّ آراء تلقى علينا — ، واستطعنا بعقولنا أن نهتدى إلى الوجه الأوفق . حقاً إن للسن المتقدمة أحكامها وطرائق تفكيرها ، كما أن حياة الرجل قد أحاط بها من الظروف واكتنفها من الأحداث ما أثر — إلى حد كبير من غير شك — فى طريقة نظره إلى الأمور ، وفى نظرته فى الحياة عامة . والرجل لم يفرض علينا شيئاً ، بل بالعكس : تركنا وشأننا . أفلا يجدر بنا إذاً أن نروّى ونفكر لأنفسنا فيما قاله ، ثم نتبادل الرأى فيما انتهينا

إليه بتفكيرنا المنفرد ، فى اجتماعنا القادم ؟

فقال الفنان : أظن أن هذا هو الأنسب .

فقال الطيار : سأدعكم تفكرون ما يحلو لكم التفكير ؛ أما أنا فقد كونت رأيى وانتهيت ، وهو الذى أعتقد واثقاً أنكم ستنتهون إليه أيضاً .

فقال العالم : لا ضير من ترك فرصة للتفكير ؛ و إلى اللقاء بآرائنا فى اجتماعنا المقبل .

فأسلم الفنان أمره وقال آسفاً : ليكن !

٦

لم يكد بُدٌّ من تحمّل نفسى على مشايعة أهواء فتاتى سرڤناز . فلقد كانت من الدهاء بحيث أسرتنى بغرامها دون أن أظفر منها لإرضائه إلا بالنذر اليسير ، بينما كان نموّه من جانبى سريعاً قوياً بحيث كان يجرى فى أوصالى كأنه سيل دافق لا سبيل إلى الوقوف فى وجهه أو تحويل مجراه . وكانت تلق إلىَّ بأبرع المعاذير عن ضنها وتأبّيها ، مؤكدة خصوصاً أن مجال الخلوة ممنوع علينا طالما كنا هكذا بغير مأوى أمين ، حتى اقتنعتُ بوجوب إيجاد هذا المأوى وفقاً لما أشارت به ، فلا يتسع لها بعدُ وجهُ العذر .

فاخترت بيتاً أنيقاً يقوم على حافة الصحراء فى ضاحية بديعة من ضواحى القاهرة . واتخذت له أثاثاً ريفياً لا يخلو من الوثارة والجمال ؛ فكانت المقاعد والأسرّة كلها من أغصان الشجر المُنمّقة تتخللها حِزَم من القش والخيزُران ؛ وكانت الوسائد على هيئة أوراق النبات القلبية الشكل ، وكلها من الساتان الأزرق ، بينا كانت الستائر من المُخمَل الأخضر ذى الهُدّاب الأزرق الكوبَلتى . أما حشايا الأسرّة فكانت من المطاط المكسوّ بالساتان الأحمر القِرْمِزى بحيث كانت تبدو فى مظهرها الشهوانى كأجسام نساء روبِنْس الرسام ، أو تِتْسيان ، حتى كان يختلط علىّ الأمر أحياناً فلا أرى فارقاً واضحاً بين أن يرقد عليها جسم من تلك الأجسام الرخصة البضّة المشرّبة بالحمرة ، وبين أن تكون خالية . وكم كان يلذلى أحياناً أن أتخيل عليها لحماً شهوانياً دون أن يكون ثمت أحد ، فأنامَ مستسلماً لأعذب الأحلام الذهبية ! بل كنت مع هذا أشعر أحياناً بأننى أتنسّم أبخرة فاغمة العطر الشهوانى ما تلبث أن تسد علىّ خياشيم أنفى وأكاد أراها تنبعث فعلاً من هذه الحشايا كما تنبعث الأبخرة الكثيفة من حَميمٍ آنٍ .

وأقمنا بالبيت شهراً أو بعض شهر لا يكاد أحدٌ يعلم بمكاننا ولم يكن من الجيران البعيدين من يحفل بأمرنا ، إلى أن اقترحت علىّ ذات يومٍ أن أدعو أصدقائى الثلاثة حتى لا نشعر بالملال ، وأن نقيم ليالى حمراء ساهرة مستعينين بمجموعة من الأُسطوانات الموسيقية الأوربية ، وقد كان لدىّ قدر وفير منها . ولم ترقنى الفكرة أول الأمر لأننى كنتُ أستعدب

هذه الوحدة ، وتكفينى هذه المجموعة المسجلة من الموسيقى كيما أبدّد فى الحال كل دواعى المَلال ، فضلا عما كان فى التريُّض فى المِنطقة المجاورة من تجديد لكل أسباب النشاط . فأنا ممن يهوون الريف الزراعى إلى أبعد حد ، وأجد لذة ما بعدها لذة فى الإقامة بين أحضانه : فهذا الحُلْم الساجى الذى يتبدى عليه إبان الظهيرة وسحابة النهار ، وهذه القشعريرة التى تستولى عليه ساعة الغروب ، وهذا الاستسلام الرقيق فى وقت الأصيل ، وهذا الليل العامر بأصوات الحيوان الحبيبة إلى القلب والأذن ، كل هذا ما أجمله وما أشد أثره النبيل فى نفسى ! و إذا صح ماحاول به البعض أن يعرّف حقيقة الإنسان فقال إنه الحيوان الكسول ، فما أقوى الإنسانية فى هذا الريف الضاحى فى مصر ! إن إيقاعه من النوع الأَدْنى (أنداتنه) كما يبدو خصوصاً فى سير الحمير وهى تحمل زنانيل السّماد فى هدوء ورزانة كأنها فى موكب جنازة رهيب تمثل هى فيه طائفة الكَهَنوت !

لهذا لم أشأ أن يخرجنى شىء عن هذا السُّجُوِّ البديع ، فلم أرافِقْها على رأيها . بيد أنها بدأت تتململ وتحنُّ إلى جوّها الشاحب المغمور بأضواء المدينة الزاهية الحمراء ، ولم تشعر بأى ميل نحو هذه الظلمة الزرقاء التى يتلفع بها الريف ، إن نهاراً فى حمارّة القيظ أو ليلا فى سواده المرصّع بالنجوم . فلا طفْتها وحاولت أن أسرّى عنها مشيداً بمباهج هذه العزلة قائلا إنها عملية حجر صحى أو فترة استشفاء لن نلبث بعدها أن نعود إلى المدينة بعد أن تكون قد شفيت من داء المدن الكبرى ، هذا الداء الوبيل الذى كان كارثة من كوارث عصر المدنية الذى نحيا فيه . غير أنها لم تزد إلا تبرُّماً وضيقاً ، فلما وجدتنى أزداد إصراراً بدأت هى من جانبها ترهقنى وتُبْطِرنى ذَرْعى حتى أحالت هذه الوحدة إلى جحيم من المضايقات والمشاكسات ؛ لذا لم يكن ثمت مناص من إقامة هذه الحفلات الساهرة بيننا و بين أصدقائى . فكانوا يوافوننى فى هذا المكان بعض أيام الأسبوع فنقضى جانباً طويلا من الليل ثم يعودون إلى المدينة فى سيارة أحدهم .

وكان طبيعياً أن نتحدث — فى غير حضرتها — عن المشروعات التى كنا بسبيل القيام بها وكنا دائبى التفكير فيها . وكنا نتكتم البحث فيها حتى لا يُنْمَى إليها من أمرها شىء . ومضت الأمور حيناً على هذا النحو إلى أن توسمتْ فينا شيئاً من التكتم ومحاولة إخفاء أمور عنها ؛ لكنها لم تسألنى عن أمر هذا كله ، بل تبدّت كأنها لم تفهم شيئاً ، حتى إننا نحن

لم نستوحش من ناحيتها . وهكذا مضت الأمور بينها و بيننا من هذه الناحية على ما نهوى ، فيما خيِّل إلينا فى ذلك الحين .

ولقد حدثتك عن إخفاق هذه المقابلة بين الرجل الكبير و بيننا وتواعدنا على أن نجيل النظر فى الأمر مرة أخرى . وفى تلك الأثناء كان صديقنا الفنان قد اتصل برجله الكبير واستنبأه العلّة فى هذا الموقف السلبى المستسلم الذى أبداه فى لقائنا معه ؛ وعرف منه أن العلة فى اتخاذه ذلك الموقف هى عدم ثقته بأحد ؛ فلكم عانى من ألوان الخيانة من جانب كثيرين تظاهروا بكل غَيْرة وطنية و إخلاص للمُثُل العليا الإنسانية ؛ وهو لم يُرِد أن يقع مرة جديدة فى أحبولة من تلك الأحابيل التى افتنّ خصومه فى نصبها له ؛ لذا آثر أن يسلك و إيانا — وكذلك مع غيرنا — هذا المسلك . بيد أن أخانا الفنان أكد له أن أصدقاءه هؤلاء — أى نحن الثلاثة — ليسوا من ذلك النوع الذى ألفه وعرفه ؛ بل هم من طراز جديد تماماً ؛ وراح ينعت له هذا الطراز بكل صفاته وطباعه حتى يأنس بناحيتنا . وأخيراً قبل الرجل أن يلقانا مرة أخرى .

وتلاقينا ؛ وتعدّد هذا التلاق ؛ وفى كل مرة ازداد الموقف أمامنا وضوحاً ، حتى انتهينا آخر الأمر إلى خُطة للعمل ، أحكمنا وضعها معه وتوزعنا تنفيذها ، ثم حددنا لهذا التنفيذ ميعاده.

ولا أحسبنى فى حاجة إلى سرد تفاصيل هذه الخطة بعد أن ذاع فى الناس أمرُها وعرفها القاصى والدانى ، وكيف انتهت إلى ما انتهت إليه من فرار صديقينا الطائر والعالم وقد كُلِّفا بتنفيذ الوجه الخارجى من هذه الخطة وما أدّى إليه هذا من الكشف عن شركائهما و إيداعهم أعماق السجن ، هذا السجن الذى أكتب إليك من مستشفاه الآن وأنا لا أعلم شيئاً عن مصيرى ، و إن كنت واثقاً من أن النجاة لن تأتينى إلا عن طريق هذه العلّة الخبيثة التى أعانى الآن أشد أدوارها ، وأستشعر النهاية المحتومة قريبة أكاد ألمسها بيدىّ . أجل ، إنى لأرى الآن شبح الموت متمثِّلا بكل جلاء أمام ناظرى ، وهأنذا أهتف من أعماق : لبّيك ! لبّيك !

أيها الموت ! لقد كنت كريماً بصديقىّ فهويت بهما من حالق فى أعماق اليمّ حيث ذهبا يسألان تحقيق آمالهما فى أعماق الماء بعد أن أخفقا على الأرض ولم يبصرا شيئاً من ناحية السماء . وكنتَ سريع التلبية حين ناداك صديقنا الفنان حُرًّا مختاراً فلم تبخل عليه

بتحقيق عزمه فى لحظات قصار بعد أن أرهق السجن حساسيته المرهفة الفنانة فلم يطق البقاء .
أما أنا ، فلماذا أطلت فى مسيرك إلىّ وتباطأْتَ عنّى متذرعّاً بهذه العلة التى أعدتنى بها تلك الخائنة الآثمة ؛ فلم يكفها ما أبدته من خيانة بكشفها أمرنا لقاء مبلغ حقير من المال الأثيم ، بل شاءت كذلك أن تقضى على هذه النفس المسكينة التى لم يكن لها من ذنب عندها إلا أنها بذلت لها كل ما تملك وضحّت لها بكل ما تستطيع ؟

لَبّيك أيها الموت ، لَبّيك ! فما قيمة الحياة عندى ، الآنَ وقد تحطَّمت كل آمالى ؟!
لقد كان الرجل الكبير صادقاً كل الصدق حينما قال إن الأفضل للإنسان أن يعود إلى الحياة المعدنية الأولى ، مطرّحاً هذه الصورة الكاذبة : صورة الإنسانية الحيوانية . ألا ليتنى استمعت إليه ، إذاً لكنت منذ زمن طويل أرقد ناعماً بين طيات الصخور .

من الراوى الى القارئ

تلك ، أيها القارئ العزيز ، آخر رسالة كتبها إلىّ هذا الصديق المسكين ، بينا كان يعالج سكرات الموت فى المستشفى الملحق بالسجن ، وقد نُقِل إليه لما أن ألحت عليه العلة ، أعنى السُلّ ، الذى أعدته به خليلته الآثمة إثماً مزدوجاً ، سرڤناز . ويلوح أنه أصيب بالعدوى منذ عرفها ، بيد أن الداء ظلّ مكنوناً معتصماً بقلعة من قلاع خلايا رئتيه إلى أن دخل السجن فَحُرِم النورَ والهواء والغذاء الجيد ؛ حتى بلغ منه الهُزال — بعد أن كان وثيق التركيب متين العصب — ، فخلا المجال أمام الجراثيم الفتاكة واندفعت تطلب الطعن والنزال ، ولات ثمت من يقبل تحدّيها فى هذا البدن الضاوى . وعبثاً أرسل المسكين الرجاء تلو الرجاء للقائمين بأمر السجن والنيابة والحاكم العسكرى العام . لكن لم يكن له من جواب غير الصمت الكالح ؛ وكان ينذرهم بالمصير الذى سينتهى إليه وشيكا إن لم يتداركوه بإنقاذه من مِقْصَلَة حياته ، هذا السجنِ الرهيب الذى ألقوا به فيه لا لسبب إلا لافتراءات اخترعتها تلك الآثمة ودبرت مؤامرتها مع صديقها الميجر الجاسوس الذى حدثتنا عن صلتها به فى آخر « يومياتها » التى عرفناها منذ حين .

وكم كنا نود ، وكم كان يشوقك أيها القارئ أن يمتدّ بصديقنا الأجل حتى يأتى على وصف مأساته كلها بقلمه المشبوب . لكنّ لنا بعضَ العزاء عن هذا الحرمان فى « يوميات » غير متصلة الفقرات سجّلها اختلاساً إبّان سجنه وشطراً من إقامته بالمستشفى ، وقد دفع بها إلىّ فى زيارتى الأخيرة له قبل موته بساعات ، وهذه الزيارة كانت إحدى الزيارات النادرة التى ظفر بها ، وقد كلفنى تمكنى منها الكثير من المال والمخاطر . فلعلّ إذاً فى الخطوط العامة التى رسمها من خلال فِقراتها ما يهيئ لنا أن نتابع مجرى حياته حتى نهايته الأليمة .

***

٥ أغسطس — اليومَ أدخل السجن لأول مرة فى حياتى محشوراً فى زمرة كبار المجرمين ، وكأننى — أنا الذى طَمَحْتُ إلى إنقاذ العالم فى الفرصة الوحيدة الباقية أمامه فى فى فترة لا تقلّ عن ألف سنة — قد تضاءلتُ وتقلصتُ آمالى بحيث لم يعد يتسع لها إلا هذه

الصومعة الخبيثة الظلماء التى ألقوا بى فيها . أيتها الإنسانية البائسة ! أتلك هى المكانة التى قدرتِها لكل هُداتك ؟ يخيّل إلىّ أن هذا العالم — وعلى رأسه الإنسان — لا تتحكم فيه غير الصدفة العمياء . وكلّ يوم يزداد إيمانى بهذه الحقيقة الرهيبة ؛ و بودّى لو فقأت كل عين تتجاهل رؤية هذه الواقعة !

لقد كنتُ مقبلا على الحياة أريد أن أعبر ما بين ساحليها فى لحظة واحدة وأن أغوص إلى أعمق عمائقها حتى أحيا كل أنواع الحياة المليئة الممكنة . لكن سرْعان ما صفعنى المصير الجبار بكفِّه الهائلة على خدِّى الساذج البرىء ؛ فيا ليتنى أخرج من هذا السجن سليما كيا أعترف للناس بأوهامى واعترف لهم بـ « خطيئتى » ، مبشّراً بإنجيل جديد ، هو إنجيل الفناء السريع للكون بأسره . أجل ، لقد صدق الرجل الكبير حينما دعانا إلى الحياة المعدنية فى أعماق الصخور ؛ وهأنذا اعترف بأنى كنت ساذجاً لما أن عارضته فى رأيه وعارضه زملائى الثلاثة . ولعله لم ينزل عند محاولتنا فى مغامرتنا الجديدة إلا لكى يدع التجربة تصفعنا فلا نعود إلى سالف أوهامنا الكليلة . بل أنا اليوم قد ذرَفْتُ عليه فى رأيه ، فلست أدعو إلى حياة الجماد فحسب ، بل أتمنى لو احترق الكون كله ، وكنت أنا آخر المحترقين — لا حرصاً على أطول بقاء مستطاع ، كلا ! كلا ! بل لأتملى بتلك المتعة العظمى ، متعة الانتقام الرهيب من الكون بأجمعه : آه ! لو كنت نيرونَ آخر لا يكتفى بإحراق روما ، بل يُحْرِق الدنيا والفلك المحيط !

ولعلّ الناسَ أن ينظروا إلى هذا الكلام عن عُرُض ساخرين من هذه السذاجة الطفولية . لكنى أنا أيضاً أسخر منهم وأنذرهم باليوم الذى سيجدون فى هذا القول سبيل النجاة الوحيد أمامهم . إى ور بى ! لكأنى أرى هذا اليوم وتلك الساعة بعين خيالى ماثلين بكل وضــوح !

ولا يتوهمنّ أحد أننى أريد من هذا الاحتراق العام أن يكون عملية إيجاد عالم أفضل والظفر بحياة أفضل من الأولى ! كلا ! كلا ! بل أريده كاملا لا رجعة فيه بعدُ لأية حياة ؛ ولا يُلدَغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين كما يقولون .

فإن شاءت الإنسانية أن تعجّل بخلاصها فلتبدأ — ما دامت تزعم أنها خير الكون — بأن تكون قدوةً لبقية الكائنات !

أواه ! ما أشبه هذه الخواطر السود بالظلمة الرهيبة التى بدأت تشمل صومعتى (زنزانتى) فى هذه الساعة ! لقد تبدد الضوء الأحمر القليل الذى كان ينساب إلىّ من هذه الكوّة الوحيدة فيها ؛ وقليل من الابتراد يتمشى فى مفاصلى منبعثاً من هذا الأسفلت القارس الذى أرقد عليه ، على الرغم من أننا فى حمارّة القيظ . ولأحاول النوم قليلا لعل فيه ما ينسينى ويصرفنى عن هذه الخواطر الأليمة .

١٩ أغسطس — لم يبدأ المحقق فى سؤالى إلا منذ يومين ، على الرغم من أننى ألححت فى أن أُسأل فى الحال ؛ لكن يبدو لى أن الأدلة ضدى واهية كلها ، وهذه هى العلة — فيما أرى — فى التأخير ، وإن كان الضابط المكلّف بحراستى يزعم أن خطوط الأدلة قد أوشكت أن تحيط بإدانتى وحبالها أخذت تمسك بمخنّقى ، لكنه رجل أرعن كالح الوجه ، لا تكاد تتوسم فى قسماته مخايل ذكاء أو ثقافة ، إنما هو لوح من اللحم قُدّ على بزّة عسكرية . وهو لهذا أيضاً يدعو إلى الشفقة ؛ لذا تركته فى ترّهاته ولم أحفل بالإجابة عنه .

والمحقق هو الآخر لم يكن أسعد حظاً ، وإن تباهى بالذكاء والدهاء دون أن يبدو فى حديثه وطريقة سؤاله ما يكشف عن ذرة من كليهما . ولقد تكشّف لى من خلال أسئلته أن أدلة اتهامى تنحصر كلها فى تقرير كتبه ضابط فى قلم المخابرات البريطانى عن مؤامرة دبرناها نحن الأربعة تحت إشراف الرجل الكبير أو بتوجيهه لكى نقلب نظام العالم ونشيع فيه نظاماً جديداً يقوم على آراء خطرة هدّامة لكل الأوضاع القائمة . ولم أنكر أنا — ولاصديقى الفنان ، فيما علمتُ سرًّا ، لأنه يقيم فى صومعة معزولة كل العزلة عن صومعتى — أننا نفكر فى نظام يكفل للعالم الخلاص المنشود .

— ولكنّ فى هذا قلباً للنظام العالمى القائم ؟ هكذا سألنى .

— وهل أنت راض عن نظام العالم القائم حتى لا تود أن يُقلب ؟ إن الإنسانية تعانى اليوم محنة من أشد ما تعرضت له من محن طوال تاريخها الحافل بالمآسى ، كل هذا بفضل الدجّالين العالميين الذين لا يرعون فى حقها إلا ولا ذمة ، بل كل ما يسعون إليه هو أن يقيموا على أشلاء البشر المكدّسة قبراً صغيراً لغرورهم الفتّاك ؛ فمن ذا الذى يحمل للإنسان ذرة من مرحمة ولا يود قلب نظام العالم رأساً على عقب ؟ أليس كذلك ، وأنا أتوسم فيك رحمة لها (هكذا قلت له ساخراً فى أعماق نفسى) ؟

— لكن السبيل الذى لجأت إليه مع زملائك ليس هو السبيل المشروع .

— لنتفاهم قليلا حتى لا نفوّت المقصود ، بعدم تحديدنا للألفاظ . فالمشروع فى نظرك إنما هو القانون الذى يحمى الوضع القائم ؛ فكيف تريد من هذا « المشروع » أن يعين على ضد هذا الذى يحميه ؟ هذا تناقض بارز للعيان وما أحسبُك قصدت إليه ؛ فهل تقصد شيئاً آخر ؟

— دعنا من هذه الفلسفات . ويكفينى أنك قد اعترفت بأنك سعيت — بالاشتراك مع زملائك الثلاثة — إلى قلب نظام العالم القائم ، وأنا ممثّل لما هو قائم .

— مهلاً ! فكلمة « قائم » هنا فى غير موضعها الدقيق . لأنه لا شىء يقوم أكثر من لحظة ، فإن الكون فى تغير مستمر ، والحياة فى تطور دائم ، بحيث لا يبقى الوضع الواحد زمانين . فأى نظام « قائم » إذاً تقصد ؟

— أقصد « بالقائم » « الحالى » ؛ ألا تفهم ما أقول ؟ وزمجر وغضب وضرب بيده على المنضدة الخشبية الهزيلة التى جلس إليها قُبالتى .

— معذرةً ، سيدى المحقّق ! فأنا لم أقصد إلى إثارة غضبك — وأنت الحليم الواسع الصدر بحكم مهنتك — بل كل ما أردته هو استيضاح تعابير وجدتها مبهمة الاستعمال فأحببت أن نتفاهم على معانيها . وها أنت ذا تقول مرة أخرى ، مفسّراً ، : « الحالى » ، والحال لا وجود له ، فهو آنٌ لا امتداد له حتى ليوشك أن يكون عَدَماً .

وما بدأت أسترسل فى هذا الحديث حتى ركبتْ الهائجةُ رأسه وبعد قليل من التهديدات الغامضة أمر بإغلاق محضر التحقيق إلى ميعاد آخر ، كما أمر بوضع القيد فى يدىّ وإعادتى إلى سجنى .

وهأنذا أرقد على قطعة « البُرْش » التى لم يسمحوا لى بغيرها فى صومعتى (زنزانتى) مستسلماً لأفكارى وخواطرى عن هذا التحقيق الغريب . لم أكن أعلم شيئاً عن هذا التقرير ولا عن العوامل التى أدت إلى اكتشاف أمرنا . والآن قد تبيّن لى شىء من جلية الأمر . ترى من يكون ذلك الضابط الجاسوس وكيف وصل إليه خبرٌ عنا ؟ أدرت فى ذاكرتى وعقلى هذا السؤال مرات ومرات حتى تذكرت أننى قرأت فى « يوميات » سرفناز عن صلتها ، قبيل معرفتى بها ، بضابط ذكرَتْ اسمه — وقد ندّ عنى الآن . فهل

يكون حقاً نفس الضابط ؟ لكن أين معقد الصلة ؟ أيكون سرفناز ؟ أوه ! هذا أخشى ما أخشاه . لكن ماذا كان يحملها على هذا المُنْكَر ؟ كيف تخوننى هكذا وقد بذلتُ لها كل شيء ؟ ماذا كان ينقصها مما لم أحققه لها ؟ وأى قلب أفسح من قلبي وأوفر منه إخلاصاً ، لو كان هذا بدافع الحب ؟

أسئلة تملأ نفسى فزعاً ومخاوف .

٢١ سبتمبر — يلوح أن المخاوف التى أبديتها من قبل كانت تنبئ عن واقع . فالفتاة الآثمة قد انخدعت بمعسول وعود ذلك الضابط الذى أغراها بمبلغ ضخم من الأصفر الرنان لقاء كشفها عن أسرار تتصل بحادثة فرار الضابط الطيار بطائرته مع زميل له ، ويلوح أنه كان من جانبه على علم بصلاتنا بذلك الرجل الكبير ، إذ كان مكلفاً بمراقبته خفية . ولعلها تحت هذا التأثير — أو لدواعٍ أخرى لا تعدو الجانب المادى — قد أدلت بأقوال عن صلاتنا ، فاعتقلنا نحن الباقيَيْن ؛ ولعلها كذلك أن تكون قد اخترعت قصة طويلة — وما أبرع النسوة فى هذا ، وبخاصة بنات الهوى وهنّ اللائى أنفقن حياتهن يتاجرن فى الأكاذيب والنفاق والاختلاق ! — تنبئ عن مؤامرة ضخمة دبرناها وكنا بسبيل تنفيذها ، وقد تم الشطر الأول منها بفرار صديقَيْنا المكلَّفين بالجانب الخارجي منها ، وبقى الشطر الثانى الذى نيط بنا تحقيقه .

ولقد رأيت هذا الضابط منذ ثلاثة أيامٍ خارجاً من مكان التحقيق ، دون أن يرانى ؛ وقد كان هو بعينه ذلك الضابط الذى رأيته من قبل فى المقهى الذى أخلفت فيه الفتاة ميعادها الأول معى . وعجبت أن يكون هذا الرجل ذو الأسرار ممن تنبض قلوبهم بعاطفة وجدانية ؛ وإن كان فيه من الدهاء ذلك اليومَ ما يكشف عن جانب غير عادىّ فى الناس . لقد كان فارع القوام منتفخ الخدود ضئيل العينين ، تتنازع الصُفْرةُ الكاذبة المنافقة حمرةَ بشرة وجهه ، فيلوح على محياه لون كالح بغيض . أوه ! إن فيه الكثير من وضاعة مهنته .

بيد أن تقريره — على الرغم مما فيه من لباقة ، بل وبلاغة فى العبارة (كما عرفت من الفقرات التى قرأها علىّ المحقِّق) ، — لا ينطوى على أى دليل مادى ملموس ؛ بل كل ما فيه إشارات إلى مقابلات وخلوات بيننا وكيفية عقد اجتماعاتنا فيما بيننا ، ثم كلمات متناثرة تلقفتها الفتاة الخائنة من بعيد وهى تتسمَّع إلى أحاديثنا منذ أن اتفق معها الضابط على الصفقة

السمينة (و يعلم الله إن كانت قد ظفرت بها كلها أو لن تظفر بالباقى يوماً ما أبداً !) . لهذا فإن التحقيق ما يكاد يفتح حتى يُغلَق . ولعلهم سيجدون من الخير ألا يفتحوه بعدُ إلا إذا جدّ جديد ، تاركين إياى أتلوّى فى أعماق كهفى القذِر .

٤ نوفمبر — بدأ الهزال يدب إلى كل كيانى ؛ وأحس باختناق فى أنفاسى ، وضيق وحَصَر فى صدرى ؛ وازداد السُّعَال يوماً بعد يوم . لا زلنا فى الخريف ، ومع هذا فأنا أشعر بالبرد القارس فى هذا الكهف الرهيب المقيم ؛ فماذا سيؤول إليه أمر صحتى فى الشتاء !

٢٩ نوفمبر — علمت اليوم أن زميلى الفنّان قد استغفل حُرّاسه وانتحر بواسطة موسى صغيرة استطاع الظفر بها من أحد زملائه فى السجن بحجة حلق ذقنه ، ثم باختناقه بحبل صنعه من ملبسه الداخلى ، وقد تم هذا كله إبان الليل . وفى الصباح عثر عليه الحارس وقد فارق الحياة فى غرفته .

أواه ! يا لهول الكارثة ! أية آمال ضخمة كنا نعقدها عليه فى فنه ! لقد كان نحيلا نافذ النظرات قصير القامة سريع الخطى ؛ ما تكاد تنظر إلى عينيه حتى ترتفع إلى سماوات من الوحى العالى أو الجنون الرفيع . وعلى الرغم من أن إبداعه الأكبر كان فى التصوير ، فإنه مع هذا قد شارك فى بقية الفنون حتى الشِّعْر . وكنت حينما أنظر إليه أحار فى هذا البدن المهزول الذى استطاع أن يضم هذه الروح المشبوبة دون أن يحترق ، فلقد كان لهيباً حقاً : فى آثاره الفنية الفياضة بحرارة الإلهام ، وفى نبرات صوته الهامس كأنه ليليّات (نوكتيرن) شوبان ورباعيات الكمان ، وفى انطلاقاته كسهام نارية وهو فى جمع مِنّا بحيث تحار فى تفسير حركاته ونزواته ، وكنا نغتفرها له لهذه الأسباب مجتمعةً على الرغم مما يبدو فيها من شذوذ لا داعى له أحياناً فى الجلسات الأليفة المأنوسة . وكان يلتزم الصمت الشهور الطِّوال حتى ليخيل إليك أنه تبلّد وتحجّر ، فى مفارقة غريبة لأحواله العادية . لكنه لم يكن من أولئك الفنانين الأثرين الذين يحسبون أن الغاية كلها فى الاقتصار على الفن الخاص ؛ بل كان قلبه ينبض بمشاركة وجدانية حارّة للإنسانية عامة ولبنى وطنه خاصة فى آلامهم ومخاوفهم ونوازعهم وأهداف مطامعهم نحو المجد . لأنه كان يرى الفن وحدة تنتظم الحياةَ كلها ويُعبِّر — على طريقته الخاصة — عما فى الكون كله وما تختلج به ضمائر الناس من عواطف ونزوات ؛ ويرى الفن المنطوى على حدوده الخاصة صناعة فنية (تكنيك) ليست

خليقة مطلقاً باسم الفن الحقيقى ، إنما هو صناعة وضيعة كالصناعات العملية سواء بسواء . وتلك الخاصة هى التى ربطت بينه وبيننا : فنحن جميعاً كُنّا طُلاَّب مجدٍ للإنسان ، تشيع فينا نزعة إيثار تريد أن تنتظم الكونَ كله وتود أن تضم العالم بين ذراعيها فى عناق مستمر حار ؛ إى والله ، لقد كنا نحب أن نقترن بالكون الأكبر اقتراناً متصلاً أبداً لا طلاق فيه . وهذه النزعة الصوفية — الغامضة فى دقائقها ، الواضحة لدينا فى مغزاها العام — كانت تطبعنا جميعا بطابعها وتشملنا فى وَحْدة كلية حتى كنا نحس أحياناً بأننا قلب العالم النابض ، فلا يكاد يصيب أطرافه شىء حتى نستشعر صداه يخفق به هذا القلب المحيط .

أوه ؟ كم كنتِ عذبةً أيتها الأحلام حينما كنت تغذّيننا فنحس بأن الكون بأسره غطاؤنا الدفآن !

آه ! بالأمس كنت أستدفئ بالأكوان والأفلاك ، واليومَ لا أكاد أجد خِرقة مهلهلة ترد عنى عادية البرد الهائل الذى استولى على كل أطرافى !

وأنتما أيها الصديقان التائهان ، أين أنتما اليوم ؟ أو لا تزالان تحلقان فى أجواز الفضاء مستشرفين إلى هذه الأرض البائسة التى لم تلقيامنها إلا العَنَت ومع هذا آثرتما لمصلحتها أن تسعيا لإنقاذها ؟ أم ترا كما يئستما من تحقيق شىء على الأرض فآثرتما اللحاق بنجم من النجوم العشرة ، ولعل صديقنا العالم أن يكون قد حنَّ إلى عالمه الفلكى الذى سبح فيه منذ نعومة أظفاره فرغب فى رؤية إخوانه من النجوم والأفلاك بعد أن كانا على اتصال بالروح والعلم فحسب حتى ذلك الحين ؟ بودى لو اكتشفتما لى كوكباً خيراً من كوكبنا القاتم البائس ، ثم هبطتما إلىّ بطائرتكما الميمونة فانتزعتمانى من بين حُرّاسى وطرتما بى إلى مأوانا الجديد . أم تُرانى أهْذِى مرة أخرى ؟

١٦ ديسمبر — منذ أيام وأنا أحس بأن صدرى يتمزق من شدة ما بداخله من ألم . وبعد إلحاح وتهديد من جانبى قبل مأمور السجن أن أُعرَض على طبيب ؛ وقام هذا بالكشف علىّ وأنبأته بكل أحوالى ، لكنه لم يكد يستمع لشىء منها ، وأسرع بالخروج قائلا إنه ليست بى عِلّة ظاهرة ، وما علىّ إلا أن أحتسى حساء ساخنا . ! وعبثاً توسلت إليه مشيراً إلى خطورة الحال فى داخل صدرى ، لكنه فى قسوة باردة كالحة لم يلقنى إلا بالصمت الثقيل .

ثم إنى لا أعلم بعدُ ما العلة فى استمرار سجنى وقد طويت أوراق التحقيق منذ شهرين ، فلماذا إذاً لا أقدم للقضاء أو أخرج برىء الساحة ؟

أهذه عَدالتكم يا أهل الأرض ؟ لكنى أرثى لحالكم : فأنتم جلادون ومجلودون فى آن واحدٍ معاً !

٣ يناير — يلوح أن ذلك الطبيب الأحمق الجلاّد كان لا يزال فى حاجة إلى أن أصبّ فى سُعالى أمواجاً من الدم الأزرق حتى يقتنع بأننى مريض فعلاً بالسل المخيف . فالآن ، وقد أصبح الأمل فى الشفاء برقاً خُلّباً قد رضى بنقلى إلى المستشفى الملحق بالسجن . يا لهذه الوضاعة التى تسلب إنساناً كل تبصُّر من أجل دريهمات تافهة يتقاضاها من جلادين !

لكن من يا ترى أصابنى بهذه العلة ؟ أم جاءتنى من تلقاء نفسها تحت تأثير هزالى ؟ أوه ! لكننى كنت متين البنية بحيث لا يكفى هذا الهزال لتغلب الجراثيم علىّ . لقد سألنى الطبيب الجديد عن أسباب تتصل بالوراثة فلم أجد شيئاً مطلقا ؛ وسألنى هل خالطت أحداً ممن هم مصابون به ، فلم أجد إلا تلك الخائنة . فقال إنه يرجح إن لم يؤكد أنها العلة الحقيقية فى إصابتى بهذا الداء ، وازداد يقينا حينما عرف كيفية مخالطتنا ومعيشتنا معاً فقطع بأنها العلة الوحيدة الأولى . أما أن الأمر لم يظهر فى الحال ، فذلك لأن بدنى متين محكم التركيب منذ نشأته فاستطاع أن يقاوم ؛ إلى أن دخلت السجن وحرمت الضوء والهواء النقىّ والشمس الجميلة والغذاء الكافى فأُخلِيَتْ السبيل أمام هذه الجراثيم لكى تبدأ غزوتها الكاسحة . ولقد رثى هذا الطبيب الجديد لحالى ، ووعدنى ببذل كل معونة لى فى مستشفاى هذا ، بعد أن عرف حقيقة أمرى وكان على علم بمدى نشاطى العقلى وأفكارى .

فشتان ما هذا الطبيب النبيل القلب الواسع الأفق وذلك الأحمق الجاهل !

٢٠ فبراير — تناقل الناس أنباء سقوط الطائرة بصديقينا فى إحدى رحلاتهم فوق البحر المتوسط فى طريقهم إلى أوربا ، وإن لم تتأيد هذه الشائعة تماماً ، لتعذر الحصول على أخبار من هذا النوع . وهكذا لم يبق من هذا الرُّباع المسكين غيرى أنا البائس . لكن يعزّينى أننى سألحق بهم عما قريب . فكل المحاولات التى بذلها الطبيب الطيب لإنقاذ رئتى اليسرى ذهبت سدى ؛ وامتد الداء إلى اليمنى وعما قليل سيودى بها هى الأخرى .

إنى لأحسِدهم على حظهم لأنهم ظفروا بميتة سريعة ؛ أما أنا فلا بد أن أقدّم كفّارة

طويلة حتى يأتى الموت فيعلن أن الكفّارة قد استوفيت كلها ، وأن هذه الضريبة الفادحة التى فرضها علىّ الوجود — فى مقابل شىء تافه كل التفاهة : هو أن أوجد — قد سدِّدت .

لكن لا عليكِ بعد هذا كله أيتها النفس المطمئنة : فنِعْم هذا الاستشهاد الطويل !

٢٥ مارس — وافى الربيع وأنا بعيد عن أزهارى الحبيبة . فأين أنتِ الآن يا زهرة البنفسج ، يا من تعشقتك بكل قلبى وكنتِ أليفتى منذ الصِّبا ، فلم نفترق ربيعاً واحداً غير هذا الربيع الحزين الدامى ؟ أم تُرى أصابك ما أصابنى لأنك لم تجدى من يتعهدك هذا العام ؟ أم آثرت الانطواء فى تربتك احتجاجاً على حال صديقك العزيز ؟ وأنت ، أى أزهار الثالوث (البنسيه) ؟ ماذا فعلتن بزينتكن البديعة التى كنت أفتَنَ فى اقتنائها لَكُنَّ فى كل عام حتى تبدين فى أبهى مظهر وأروعه ، أتُرا كنَّ استبعدتن الأصفر الزاهى واقتصرتنَّ على الكُحْلى الكابى المجلل بالسواد الرهيب حداداً على أخيكم الأكبر الذى أودعوه ظلماً قاع السجن وحاولوا قتله بعلة رهيبة ؟

إيه أيتها الأزاهير الحبيبة العزيزة ! أنتنّ وحدكنّ اللاتى وجدت عندهن الراحة فى الحياة والصدق فى الإخاء والعزاء فى البلواء . لقد أوشك كأس عمرى أن يتحطّم ، وهأنذا أغِذّ فى السير إلى عالمى الأصيل الذى هبطت منه إلى هذه الأرض الجاحدة المنكِرة لكل جميل بعد أن نزلت إليها وكلّى إيمان بإمكان إصلاحها ، واليوم أيقنت تماماً بألا سبيل مطلقاً إلى هذا الصلاح . وعما قليل سَيَخُطّ الناس بالآمال الخائبة مضجعى ، وسيصنعون لى أكفاناً من الأحلام التائهة فى بيداء المجهول ، ثم يرقدوننى فى قبر من الهموم النبيلة . أما أنتن يا أخواتى من الأزهار ، فانْبُتْن على قبر هذا الشباب الشهيد كيما تَكُنَّ رفاقى فى هذا المثوى الأخير ؛ واسألن أخاكنّ الندى أن يهوِىَ عليكن بدموعه الحارّة الغِزار .

وأنتم أيها الشباب ، يا من يضطرب فى نفوسهم ما اضطرب فى نفسى من هموم ، لست أسألكم إلا أن تذكروا حاجّين قبرَ هذا الشباب الشهيد .

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوى

ا — مبتكرات

١ — الزمان الوجودى

٢ — هموم الشباب

٣ — مرآة نفسى [ديوان شعر]

٤ — الحور والنور

ب — دراسات أوربية

١ — الموت والعبقرية

٢ — قلوب الفلاسفة

خلاصة الفكر الأوربى

١ — نيتشه

٢ — اشبنجلر

٣ — شوپنهور

٤ — أفلاطون

٥ — أرسطو

٦ — ربيع الفكر اليونانى

٧ — خريف الفكر اليونانى

٨ — برجسون

حـ — دراسات إسلامية

١ — التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية

٢ — من تاريخ الإلحاد فى الإسلام

٣ — شخصيات قلقة فى الإسلام

ء — ترجمات

الروائع المائة

١ — أيشندورف : من حياة حائر بائر

٢ — فوكيه : أندين

٣ — جيته : الديوان الشرقى (فى جزئين)

٤ — بيرن : أسفار اتشيلد هارولد

٥ — جيته : الأنساب المختارة

٦ — هيلدرلن : هيپريون

٧ — نيتشه : زرادشت

٨ — رلكه : صحائف مالتى برجه

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر